شرح

أسماء الله الحسنى للرازي

وهو الكتاب المسمى
لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات

للإمام الأعظم والعالم الأمجد الأكرم
فريد دهره ووحيد عصره شيخ الإسلام
فخر الدين محمد بن عمر الخطيب
الرازي

راجعه وقدم له وعلق عليه
طه عبد الرؤوف سعد

الناشر
دار الكتاب العربي
ص.ب: ٥٧٦٩-١١ بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢ ٨٠٠٨١١ ٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برقياً: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان


شرح
أسماء الله الحسنى للرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد ألا إله إلا الله شهادة تُثقل لنا بها ربنا ميزان الحسنات ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد سيد ولد آدم المنزل عليه الكتاب المنير والآيات البينات ، صلاة وسلاماً دائمين متتابعين إلى يوم يقوم الأشهاد .

أما بعد : فقد وفقنا الله ويسر لنا ، وكل ميسر لما خُلق له أن نخرج أمهات الكتب وجلائل أعمال المؤلفين وقرائح أذهانهم . ولما كان شيخ الإسلام الإمام فخر الدين الرازي قد أسهم في المكتبة العربية بنفائس لا تعد ودرر لا تُحصى وأفكار لا تستقصى ، ولا يخفى على القارىء ما لهذا الإمام من باع طويل في هذا الميدان وما لكتبه من شهرة مرموقة وصيت بعيد وفائدة مرجوة إن شاء الله .

فكان لزاماً علينا أن ننقب عن مؤلفات هذا البحر الزاخر ننشرها ـ إن شاء الله ـ تباعاً ، ونستفتح بهذا الكتاب العظيم المفيد ـ بعون الله ـ ببركة أسمائه الحسنى وصفاته العليا ألا وهو كتاب « لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات » .

وهو درة من درر الرازي وكل مؤلفاته درر ، ولقد اخترناه واسطة العقد تبركاً بأسمائه تعالى وصفاته جل في علاه .

ولقد أطلعت على كل ما كتب في الأسماء والصفات سواء من سبق هذا الإمام كالغزالي مثلاً أو عشرات الكتب التي كتبت بعده فوجدته بحمد الله قد بز من سبقوه وتقدم في علمه وبحثه عمن خلفوه ، وهو بلا شك رضاء من الله سبحانه وتعالى عن هذا الإمام الأفخم والحبر الأعظم رضي الله عنه جزاء ما أخْرج للمكتبة الاسلامية من روائع التآليف ومن عظائم التصانيف . ونظرة صادقة منك أيها القارىء العزيز في هذا الكتاب الجليل تدرك صدق قولي وتعلم حسن ظني في هذا الكتاب . وإني أدعو الله سبحانه وتعالى أن ينفعني وإياك بهذا الكتاب ببركة أسمائه تعالى إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن إتبع طريقه وسار على هديه إلى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

المراجع

ترجمة الإمام الفخر الرازي

مولده :

ولد في اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة وقيل ثلاث وأربعين الموافقة لسنة ١١٤٩ م.

نسبه ولقبه :

هو الإمام الكبير شيخ الاسلام العلامة النحرير ، الأصولي ، المتكلم ، المناظر ، المفسر ، صاحب التصانيف المشهورة في الآفاق ، الحظية في سوق الافادة بالاتفاق ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي ، التيمي ، البكري ، القرشي ، الطبرستاني ، الرازي المولد ، الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب الرازي، ذلك أن أباه كان خطيباً. الفقيه الشافعي المذهب ، الأشعري العقيدة ، الملقب بالإمام عند علماء الأصول ، المقرر لشُبه مذاهب الفرق المخالفين ، والمبطل لها بإقامة البراهين ، فاق أهل زمانه في العلوم العقلية والنقلية ، وخصوصاً في الأصلين ، أصول الفقه وأصول الدين ، والمعقولات ، وعلم الأوائل ، فريد عصره ، ونسيج وحده .

آراء العلماء فيه :

كان العلماء يقصدونه من البلاد ، وتشد إليه الرحال من الأقطار ، وقد

حكى شرف الدين بن عنين : أنه حضر درسه يوماً وهو يلقي الدروس في مدرسته بخوارزم ، ودرسه حافل بالأفاضل ، واليوم شات ، وقد سقط ثلج كثير ، وخوارزم بردها شديد إلى غاية ما يكون ، فسقطت بالقرب منه حمامة ، وقد طاردها بعض الجوارح ، فلما وقعت رجع عنها الجارح خوفاً من الناس الحاضرين ، فلم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها من شدة البرد ، فلما قام فخر الدين من الدرس ، وقف عليها ورق لها وأخذها بيده ، فأنشأ ابن عنين في الحال من بحر الكامل :

يا بن الكرام المطعمين إذا شتوا	في كل مسغبة وثلج خاشف
العاصمين إذا النفوس تطايرت	بين الصوارم والرشيج الراعف
من نبَّأ الورقاء أن محلكم	حرم وأنك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها	فحبوتها ببقائها المستأنف
لو أنها تُحبَى بمال لا نثنت	من راحيتك بنائل متضاعف
جاءت (سليمان) الزمان بشكوها	والموت يلمع من جناحي خاطف
قرم لواه القوت حتى ظله	بإزائه يجري بقلب واجف

وقال فيه بعض العلماء :

خصه الله برأي هو للغيب طليعة	فيرى الحق بعين دونها حدُّ الطَبيعة

ومدحه الإمام سراج الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد الكسائي الخوارزمي بقوله :

أعلمن علماً يقيناً	أن رب العالمينا
لو قضى في عالميهم	خدمة اللا عالمينا
أخدم الرازي فخراً	خدمة العبد ابن سينا

ولإبن عنين فيه قصيدة من جملتها ـ من (الكامل) أيضاً :

ماتت به بدع تمادى عمرها	دهراً وكاد ظلامها لا ينجلي
فعلا به الاسلام أرفع هضبة	ورسا سواه في الحضيض الأسفل
غلط امرؤ بأبي عليّ قاسه	هيهات قصَّر عن مداه أبو علي

لو أن رسطاليس يسمع **لفظة** من لفظه ، لعرته هزة أفكل
ولحار بطليموس لو لاقاه من برهانه في كل شكل مشكل
ولو أنهم جمعوا لديه تيقنوا أن الفضيلة لم تكن للأول

وقد كان الرازي يعظ باللسانين العربي والعجمي ، وكان يلحقه الوجد حال الوعظ ويُكثر البكاء ، وكان يحضر مجلسه بمدينة (هراة) أرباب المذاهب والمقالات ، ويسألونه وهو يجيب كل سائل بأحسن الأجوبة والمجادلات على إختلاف أصنافهم ومذاهبهم . ويجيء إلى مجلسه الأكابر والأمراء والملوك . وكان صاحب وقار وحشمة ومماليك وثروة وبزة حسنة وهيئة جميلة . إذا ركب مشى معه نحو ثلاثمائة مشتغل على إختلاف مطالبهم في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب وغير ذلك . ورجع بسببه خلق كثير من الطائفة الكرامية إلى مذهب أهل السنة . وكان يلقب بهراة بشيخ الاسلام .

أساتذته :

كان مبدأ إشتغاله بالعلم على والده ، الذي كان خطيباً بالري حتى مات . وقد ذكر الرازي في كتابه المسمى « تحصيل الحق » أنه إشتغل في علم الأصول على والده ضياء الدين عمر ، ووالده على أبي القاسم سليمان ابن ناصر الأنصاري ، وهو على إمام الحرمين أبي المعالي ، وهو على الأستاذ أبي إسحاق الاسفرائيني ، وهو على الشيخ أبي الحسن الباهلي ، وهو على شيخ السنة أبي الحسن علي بن أبي إسماعيل الأشعري الناصر لمذهب أهل السنة والجماعة .

وأما إشتغاله في فروع المذهب ، فإنه إشتغل على والده المذكور ، ووالده على أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، وهو على القاضي حسين المروزي ، وهو على القفال المروزي ، وهو على أبي زيد المروزي ، وهو على أبي إسحاق المروزي ، وهو على أبي العباس بن شريح وهو على أبي القاسم الأنماطي ، وهو على أبي إبراهيم المزني ، وهو على الإمام الشافعي ، رضي الله عنه .

وبعد وفاة والده قصد إلى الكمال السمناني ، وإشتغل عليه مدة ، ثم عاد إلى الري ، وإشتغل على المجد الجيلي صاحب محمد بن يحيى الفقيه أحد تلاميذ الإمام حجة الاسلام الغزالي ، ولما طلب المجد إلى مراغة ليدرس بها ، صحبه وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة .

ويقال إن الرازي كان يحفظ الشامل لامام الحرمين في أصول الدين .

والمستصفى في أصول الفقه للغزالي ، وكذا المعتمد لأبي الحسين البصري .

وقد لازم الرازي الأسفار ، وعامل شهاب الدين الغوري صاحب غزنة في جملة من المال ، ثم مضى إليه لاستيفائه منه ، فبالغ في إكرامه والانعام عليه ، وحصل من جهته مالاً طائلاً ، ثم عاد إلى خراسان .

وكان له يد في النظم .. فمن نظمه :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
فأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مزعجين وزالوا !!

وقال أبو عبد الله الحسين الواسطي : سمعت فخر الدين بهراة ينشد على المنبر معاتباً أهل البلد :

المرء ما دام حياً يُستهان به ويعظم الرزء فيه حين يُفْتَقَد

فتنته مع الكرامية[1] :

لما قدم الرازي هراة ، ونال إكراماً عظيماً من الدولة ، وإشتد ذلك على

---

(١) تنسب الكرامية لمحمد بن كرام المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٩ ميلادية . وجملة الكرامية ثلاث فرق : حقائقية ، وطرائقية ، وإسحاقية ، ويعد جمهورهم فريقاً واحداً ؛ إذ لا يكفر بعضهم بعضاً . ومن ضلالاته أنه كان يسمى معبوده جسماً وله حد واحد من الجانب الذي ينتهي له العرش ، وأن معبوده أحدى الجوهر ثم قوله إنه على صورة إنسان ، وأنه مماس للعرش والعرش مكان له ، إلى غير ذلك من الضلالات المخزية .

الكرامية ، فإجتمع يوماً مع القاضي مجد الدين بن القدوة ، فتناظرا ، ثم إستطال فخر الدين على ابن القدوة ونال منه إهانة ، فعظم ذلك على الكرامية فلما كان من الغد جلس ابن عم مجد الدين ، فوعظ الناس وقال : « ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » أيها الناس : ما نقول إلا ما صح عن رسول الله وأما قول أرسطو وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابي ، فلا نعلمها ، فلأي شيء يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الاسلام ، يذب عن دين الله ، وبكى فأبكى الناس ، وضجت الكرامية ، وثاروا من كل ناحية ، وحميت الفتنة ، فأرسل السلطان الجند وأسكتها . . وأمر الرازي بالخروج .

ولم يزل بين الرازي والكرامية السيف الأحمر ، فينال منهم ، وينالوا منه سبأ وتكفيراً ، حتى قيل إنهم سموه فمات من ذلك .

وصيته :

وفي وفيات الأعيان لإبن خلّكان ، أن الرازي عندما مرض ، وأيقن أنه لا محالة ميت ، أملى على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني وصية تدل على حسن العقيدة . وقد جاء فيها :

« . . اعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم ، فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لا أقف على كمية ولا كيفية ، سواء كان حقاً أو باطلاً أو غثاً أو سميناً ، إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي ، أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ، ولقد إختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلا بالكلية لله تعالى ، ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية ، ولهذا أقول كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذي أقول به ، وألقى الله تعالى به ، وأمّا ما إنتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد في القرآن والأخبار

الصحيحة المتفق عليها بين ا لأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما مر . والذي لم يكن كذلك ، أقول : يا إله العالمين : إني أرى الخلق مطبقين على إنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين . فكل ما مر به قلمي أو خطر ببالي فاستشهد وأقول : إن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقديس إعتقدت أنه الحق ، وتصورت أنه الصدق ، فلتكن رحمتك مع قصدي لا مع حاصلي ، فذاك جهد المقل . وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في زلة ، فأغثني وارحمني واستر زلتي وامح حوبتي يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين ، ولا ينقص ملكه بخطأ المجرمين ، وأقول : ديني متابعة سيد المرسلين محمد ﷺ ، وكتابي القرآن العظيم ، وتعويلي في طلب الدين عليهما . . ».

وفاته :

وتوفي فخر الدين ، يوم الأثنين ، يوم عيد الفطر ، سنة ست وستمائة ، هجرية ، الموافقة لسنة ألف ومائتين وتسع ميلادية بمدينة هراة ، ودفن آخر النهار في الجبل المصاقب لقرية مزداخان . رحمه الله رحمة واسعة .

مصنفاته :

للرازي تصانيف مفيدة في فنون عديدة ، كلها محققة ، وإنتشرت تصانيفه في البلاد ، ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس إشتغلوا بها ، ورفضوا كتب المتقدمين ، وهو أول من إخترع الترتيب في كتبه ، وأتى بما لم يسبق إليه ، ومن مصنفاته :

١ ـ تفسير القرآن الكريم المسمى « بمفاتيح الغيب » ـ جمع فيه من الغرائب والعجائب ، ما يطرب كل طالب ، وهو كبير جداً ، وترجع شهرة الرازي إلى هذا التفسير ، إذ جمع فيه بين المباحث الكلامية والفلسفية والدينية وردً فيه على تأويلات المعتزلة للقرآن ، وضمنه محاولته للتوفيق بين الفلسفة والدين .

١ ـ شرح سورة الفاتحة ـ في مجلد .

٣ ـ تفسير سورة البقرة ـ مجلد .

٤ ـ المطالب العلية . في ثلاثة مجلدات . ولم يتمه .

٥ ـ نهاية المعقول في دراية الأصول ـ في مجلدين .

٦ ـ كتاب الأربعين ـ في أصول الدين ـ أعاننا الله على إخراجه .

٧ ـ محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ـ أعاننا الله على إخراجه .

٨ ـ كتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان .

٩ ـ كتاب المبهمات المشرقية .

١٠ ـ كتاب المباحث العمادية في المطالب المعادية .

١١ ـ كتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل .

١٢ ـ كتاب إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار .

١٣ ـ كتاب أجوبة المسائل النجارية .

١٤ ـ كتاب تحصيل الحق .

١٥ ـ كتاب الربذة .

١٦ ـ كتاب المعالم ـ في أصول الدين .

١٧ ـ المحصل ـ مجلد .

١٨ ـ الملخص ـ في الفلسفة .

١٩ ـ شرح الاشارات لابن سينا . وموجز له يسمى « لباب الاشارات » .

٢٠ ـ شرح عيون الحكمة .

٢١ ـ السر المكتوم ـ في الطلسمات .

٢٢ ـ شرح أسماء الله الحسنى ـ وهو الكتاب الذي نقدم له .

٢٣ ـ شرح المفصل ـ في النحو ـ للزمخشري .

٢٤ ـ شرح الوجيز ـ في الفقه ـ للغزالي .

٢٥ ـ شرح ديوان سقط الزند ـ للمعري .

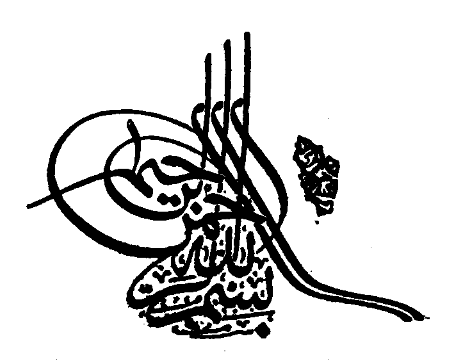
٢٦ ـ مختصر في الاعجاز .

٢٧ ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ـ في علم البيان . أعاننا الله على اخراجه .

٢٨ ـ كتاب في ابطال القياس .
٢٩ ـ شرح الكليات للقانون . ولم يتمه .
٣٠ ـ الجامع الكبير ـ ويعرف بالطب الكبير ـ ولم يتمه .
٣١ ـ كتاب في الهندسة .
٣ ـ كتاب الفراسة .
٣٣ ـ كتاب مناقب الشافعي .
٣٤ ـ أصول الشافعية .
٣٥ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين . أعاننا الله على اتمامه .

وهناك مصنفات له لم يُتفق عليها ، وبعضها أنكره الشافعية ، أو استبعدوا نسبته إليه . منها : « كتاب السر المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم على طريقة من يعتقدهم .

ومع هذا .. فقد كان للرازي باع طويل في التصنيف ، ألف في كل فن ، وأسهم في كل علم ، وكانت مصنفاته غاية في الاتقان والترتيب ، ويقول ابن خلكان : « وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه ، وأتى فيها بما لم يُسبق إليه » .


بسم الله الرحمن الرحيم

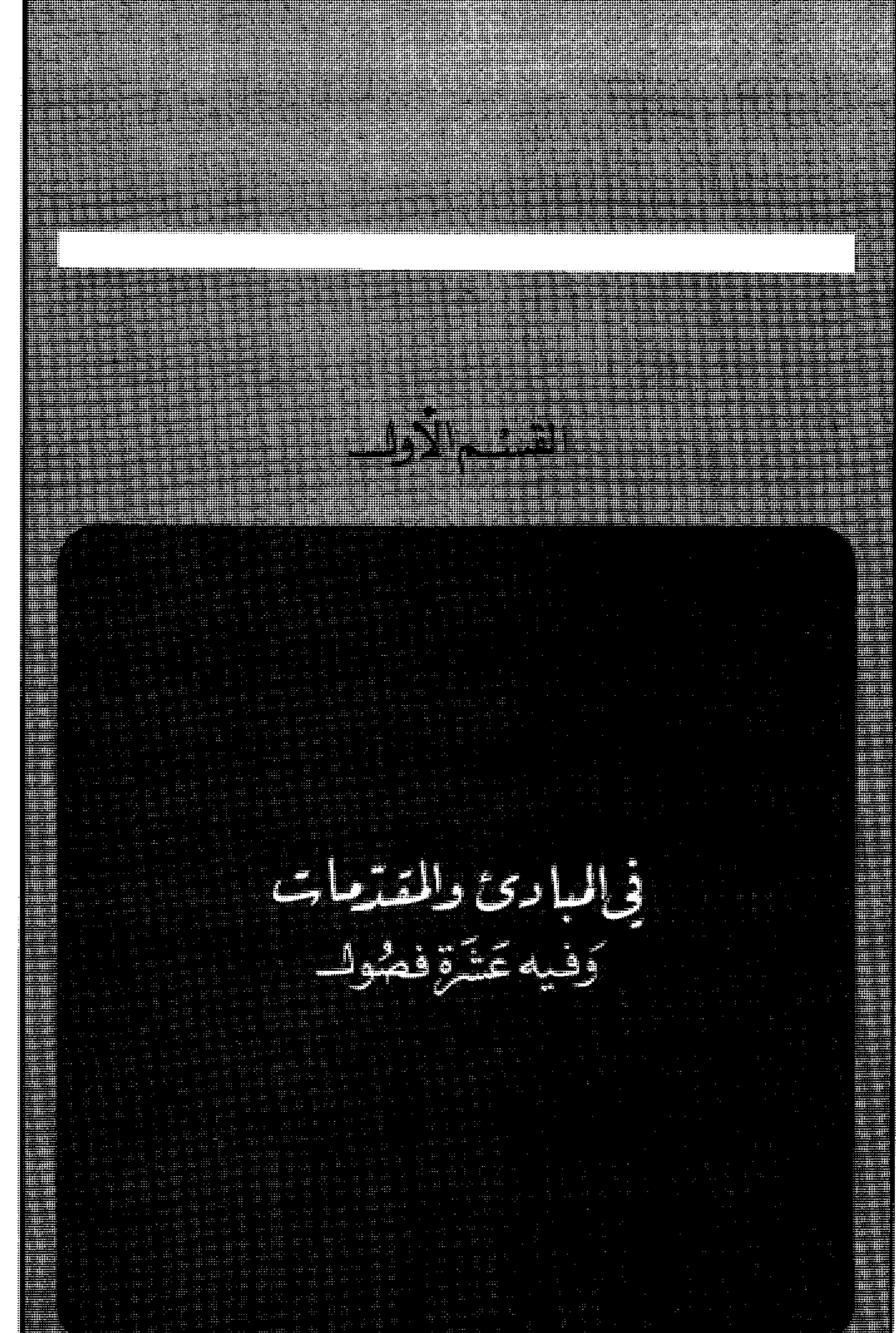


وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

قال الامام الأوحد فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الخطيب الرازي قدس الله روحه :

الحمد لله الذي حارت الأفكار في مبادي أنوار كبريائه وصمديته ، وتاهت الأنظار في مطالع أسرار عزته وفردانيته ، وشهدت ذوات المخلوقات على كمال قدرته وألوهيته ، ودلت أجزاء السموات والأرضين على نهاية علمه وجلال حكمته . والصلاة على نبي الرحمة محمد وآله وصحبه وعترته .

أما بعد : فإن الله تعالى لما أسعدني بالاتصال إلى حضرة السلطان المعظم العالم العادل : بهاء الدين ، شمس الاسلام والمسلمين ، أعقل الملوك وأعدل السلاطين ، أبي المؤيد سام بن عمد بن مسعود بن الحسين . زين الله معاقد ملكه بأنواع الخيرات وخصه في الدارين بأقسام السعادات ، وجعلني من المفرطين في حبه وولائه ، المستظلين بظل لوائه ، وواصلني بحسن ملاحظته إلى غايات المطالب الروحانية ، ونهايات المقاصد النفسانية ، وكان من جملة تلك النعم العظيمة ، والرتب الجسيمة إن وفقني الله تعالى لتنقيح الكلام في شرح أسماء الله تعالى وصفاته ، وتحقيق القول في تفسير نعوته وسماته ؛ فصنفت هذا الكتاب وسميته (لوامع البينات في الأسماء والصفات) ورتبته على أقسام ثلاثة (الأول) في المبادي والمقدمات (الثاني) في المقاصد والغايات (الثالث) في اللواحق والمتممات .



القسم الأول

في المبادئ والمقدمات

وفيه عشرة فصول

الفصل الأول

في حقيقة الإسم والمسمى والتسمية

المشهور من قول أصحابنا رحمهم الله تعالى : أن الاسم نفس المسمى وغير التسمية . وقالت المعتزلة إنه غير التسمية وغير المسمى ، وإختيار الشيخ الغزالي رضي الله عنه أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متباينة هـو الحق عندي .

واعلم أن القول بأن الاسم نفس المسمى أو غيره لا بد وأن يكون مسبوقاً ببيان أن الاسم ما هو؟ وأن المسمى ما هو؟ وأن التسمية ما هي ؟ فإن كل تصديق لا بد وأن يكون مسبوقاً بتصور ماهية المحكوم عليه والمحكوم به[1] . فنقول :

إن كان الاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشيء بالوضع وكان المسمى عبارة عن نفس ذلك الشيء فالعلم الضروري حاصل بأن الاسم غير المسمى ، وإن كان الاسم عبارة عن ذات الشيء والمسمى أيضاً ذات الشيء ، كان معنى قولنا الاسم نفس المسمى هو أن ذات الشيء نفس ذات الشيء ، وهذا مما لا يمكن وقوع النزاع فيه بين العقلاء . فثبت أن الخلاف

---

(١) التصور : هو إدراك المفردات كإدراك لفظ محمد وكذلك إدراك لفظ رسول . أما التصديق فهو إدراك نسبة الرسالة لمحمد وتصديقك لهذه النسبة .

الواقع في هذه المسألة إنما كان بسبب أن التصديق ما كان مسبوقاً بالتصور . وهذا القدر كاف في هذه المسألة .

وكان اللائق بالعقلاء أن لا يجعلوا هذا الموضع مسألة خلافية ، بل ها هنا دقيقة يمكن أن يحمل عليها قول من قال : الاسم نفس المسمى ، وهو أن العقلاء إتفقوا على أن لفظ الاسم، اسم لكل ما يدل على معنى من غير أن يكون دالاً على زمان معين ، ولا شك أن لفظ الاسم كذلك ، فيلزم من هاتين المقدمتين أن يكون الاسم مسمى بالاسم ، فها هنا الاسم والمسمى واحد قطعاً . إلا أن فيه إشكالاً وهو : إن اسم الشيء مضاف إلى الشيء وإضافة الشيء إلى نفسه محال ، فامتنع كون الشيء الواحد اسماً لنفسه ، فهذا حاصل التحقيق في هذه المسألة .

ولنرجع إلى الكلام المألوف فنقول : الذي يدل على أن الاسم غير المسمى وجوه .

الحجة الأولى : أسماء الله تعالى كثيرة والمسمى ليس بكثير ، فالاسم غير المسمى ، إنما قلنا أسماء الله كثيرة لوجوه أحدها قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[1] وثانيها قوله عليه الصلاة والسلام « إن لله تسعة وتسعين اسماً ﴾[2] . وثالثها قوله تعالى : ﴿ والله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[3] . وأما أن المسمى بهذه الأسماء ليس بكثير فهو متفق عليه ، فثبت أن الاسماء كثيرة وأن المسمى ليس بكثير ، وكانت الاسماء مغايرة للمسمى لا محالة ، فإن قيل لا نسلم أن الأسماء كثيرة وما ذكرتم من القرآن والخبر محمول على كثرة التسميات لا على كثرة الأسماء ، سلمنا أن الأسماء كثيرة لكن لا نسلم أنَّ المسمى واحد ، لأن المفهوم من الخالق حصول الخلق ، والمفهوم من الرازق حصول الرزق ، وبين المفهومين فرق .

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .

(٢) الحديث بتمامه « إن لله تسعة وتسعين اسماً ـ مائة إلا واحداً ـ إن الله وتراً يحب الوتر . من أحصاها دخل الجنة » رواه الترمذي .

(٣) طه : ٨ .

والجواب عن الأول من وجوه : أحدها : أن المذكور في القرآن والخبر إثبات الأسماء الكثيرة ، إلا إذا بيَّن الخصم أن التسمية غير المسمى وأن المراد من الأسماء المذكورة في هذه النصوص التسمية ، لكن كل ذلك عدول عن الظاهر .

وثانيها : أن المفهوم من التسمية وضع الاسم للمسمى ، فلو كان الاسم هو المسمى لكان وضع الاسم للمسمى عبارة عن وضع الشيء لنفسه وذلك غير معقول .

وثالثها : إن المعقول ها هنا أمور ثلاثة : ذات الشيء وهذه الألفاظ المخصوصة وجعل هذه الالفاظ المخصوصة معرفة لتلك المعاني المخصوصة بالوضع والاصطلاح . أما ذات الشيء فهو المسمى ، فلو كان الاسم عبارة عن ذات الشيء لزم كون الشيء اسماً لنفسه وذلك غير معقول .

وأما السؤال الثاني فجوابه أن الخالق ليس إسماً للخلق بل للشيء الذي يصدر عنه الخلق ، والرازق ليس اسماً للرزق بل للشيء الذي يصدر عنه الرزق ، ثم من المعلوم أن الذي صدر عنه الخلق والذي صدر عنه الرزق شيء واحد ، فثبت أن المسمى بالخالق والرازق شيء واحد .

الحجة الثانية : إنا إذا قلنا معدوم ومنفي وسلب واللاثبوت واللاتحقق ، فهاهنا الأسماء موجودة والمسميات معدومة ، فكان الاسم غير المسمى لا محالة .

الحجة الثالثة : إن أهل اللغة اتفقوا على أن الكلم جنس تحتها أنواع ثلاثة : الاسم والفعل والحرف ؛ فالاسم كلمة والكلمة هي الملفوظ بها ، وأما المسمى فهو ذات الشيء وحقيقته ، واللفظ والمعنى كل واحد منهما يوصف بما لا يوصف به الآخر ، فيقال في اللفظ : إنه عرض وصوت وحال في المحل وغير باق وأنه مركب من حروف متعاقبة وأنه عربي وعبراني ، ويقال في المعنى إنه جسم وقائم بالنفس وموصوف بالأعراض وباق ، فكيف يخطر ببال العاقل أن يقول الاسم هو المسمى ؟!

الحجة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[1] أمرنا بأن يدعى الله تعالى بأسمائه ، والشيء الذي يدعى مغاير للشيء الذي يدعى ذلك المدعو به ، فوجب أن يكون الاسم غير المسمى .

الحجة الخامسة : أنه يقال فلان وضع هذا الاسم لهذا الشيء ، فلو كان الاسم نفس المسمى لكان معناه أنه وضع ذلك الشيء لذلك الشيء ، وأنه محال ، وأما القول بأن التسمية ليست نفس الاسم فالذي يدل عليه أن التسمية عبارة عن جعل ذلك اللفظ المعين معرفا لماهية ذلك المسمى ، ووضع الاسم للمسمى مغاير لذات الاسم ، كما أن المفهوم من التحريك مغاير للمفهوم من نفس الحركة .

واحتج القائلون بأن الاسم نفس المسمى بوجوه :

الحجة الأولى : قوله تعالى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[2] وقوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾[3] وقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾[4] ووجه الاستدلال أنه أمر بتسبيح اسم الله تعالى ، ودل العقل على أن المسبح هو الله تعالى لا غيره ، وهذا يقتضي أن اسم الله تعالى هو هو لا غيره .

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾[5] أخبر الله تعالى أنهم عبدوا الأسماء ، والقوم ما عبدوا إلا تلك الذوات ، فهذا يدل على أن الاسم هو المسمى .

الحجة الثالثة : اسم الشيء لو كان عبارة عن اللفظ الدال عليه لوجب أن لا يكون لله تعالى في الازل شيء من الأسماء إذ لم يكن هناك لفظ ولا لافظ وذلك باطل .

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .
(٢) الأعلى : ١ .
(٣) الواقعة : ٧٤ .
(٤) الرحمن : ٧٨ .
(٥) يوسف : ٤٠ .

الحجة الرابعة : إذا قال القائل : محمد رسول الله ، فلو كان اسم محمد غير محمد لكان الموصوف بالرسالة غير محمد وذلك باطل قطعاً ، وكذا قوله : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾[1] فلو كان اسم أبي لهب غير أبي لهب لكان الموصوف بالمذمة غير أبي لهب ، وهكذا إذا كانت امرأة مسماة بحفصة فقال حفصة طالق ، فبتقدير أن يكون الاسم غير المسمى كان قد أوقع الطلاق على غير حفصة ، فوجب أن لا يقع الطلاق على حفصة وذلك باطل .

الحجة الخامسة : التمسك بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما[2]

وإنما أراد باسم السلام نفس السلام وهذا يقتضي أن يكون الاسم نفس المسمى .

الحجة السادسة : التمسك بقول سيبويه : الأفعال أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء ، ومن المعلوم أن الأحداث التي هي المصادر صادرة عن المسميات لا عن الألفاظ ، فدل هذا على أن قوله : من لفظ أحداث الأسماء أي من لفظ أحداث المسميات .

والجواب : أن الشروع في الاستدلال لا بد وأن يكون مسبوقاً بتصور ماهية الموضوع والمحمول[3] ، فإن كان المراد من هذا الاستدلال أن اللفظ الدال على الشيء هو نفس ذلك الشيء فذلك باطل بالبديهة ، فالاستدلال فيه غير معقول مقبول ، وإن كان المراد من الاسم نفس ذلك الشيء ومن المسمى نفس ذلك الشيء ، فحينئذ يكون قولكم الاسم نفس المسمى أي ذات الشيء

(١) المسد : ١ .

(٢) صدر بيت وعجزه : ومن يبكي عاماً كاملاً فقد اعتذر . انظر البيت في ديوانه ، وآمالي الزجاج ، والخصائص لابن جنى ، وشرح المفصل لابن يعيش ، والمقرب لابن عصفور ، وخزانة الأدب للبغدادي ، وشرح شواهد الألفية للعيني ، وهمع الهوامع للسيوطي ، والدرر اللوامع ، وشرح الأشموني لألفية ابن مالك .

(٣) الموضوع هو المبتدأ في الجملة الاسمية ، والفاعل ونائب الفاعل في الجملة الفعلية . أما المحمول فهو الخبر في الجملة الاسمية ، والفعل في الجملة الفعلية .

هو نفس ذاته ، ومعلوم أن هذا مما لا حاجة في إثباته إلى الدليل ، وإن كان المراد من قولكم الاسم نفس المسمى مفهوماً مغايراً لهذين المفهومين فلا بد من تلخيصه حتى يصير مورد الاستدلال معلوماً .

ولنشرع الآن في الجوابات المفصلة على الوجه المعتاد .

الجواب عن الأول من وجوه :

الأول : أن التمسك بقوله ﴿ سبح اسم ربك ﴾[1] وقوله ﴿ تبارك اسم ربك ﴾[2] يدل على أن الاسم غير المسمى من وجوه : الأول : أن قوله ﴿ سبح اسم ربك ﴾ تصريح باطلاق اضافة الاسم إلى الرب ، والأصل أن لا تجوز اضافة الشيء إلى نفسه . والثاني : أن اسم الله سبحانه وتعالى لو كان هو ذات الرب لوجب أن لا يبقى فرق بين قوله : ﴿ سبح اسم ربك ﴾ ، وبين قوله سبح اسم اسمك ، وقوله سبح ربك ربك ، ولمّا كان الفرق معلوماً بالضرورة علمنا أن اسم الرب مغاير للرب . والثالث : أن أصحابنا قالوا السبيل إلى معرفة أسماء الله تعالى هو التوقيف لا العقل ، والسبيل إلى معرفة الرب هو العقل لا التوقيف ، وهذا يقتضي أن يكون الاسم غير المسمّى . فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية تدل على فساد مذهبهم من هذه الوجوه .

الوجه الثاني في الجواب : أن نقول للمفسرين في قوله : سبح اسم ربك وجهان أحدهما أن المراد منه الأمر بتنزيه اسم الله وتقديسه ، والثاني أن الاسم صلة والمراد منه الأمر بتسبيح ذات الله تعالى . أما الطريق الأول فقد ذكروا في تفسير تسبيح أسماء الله تعالى وجوهاً . الأول : أن المراد منه نزه اسم ربك عن أن تجعله اسماً لغيره ، فيكون ذلك نهياً أن يُدعى غير الله تعالى باسم من أسماء الله ، فإن المشركين كانوا يسمون الصنم باللات، مسيلمة برحمان اليمامة ، وكانوا يسمون أوثانهم آلهة ، قال الله تعالى : ﴿ أجعل

---

(١) الأعلى : ١ .

(٢) الرحمن : ٧٨

الآلهة إلهاً واحداً ﴾[1] والثاني أن المراد بتسبيح أسمائه أن لا تفسر تلك الأسماء بما لا يصح ثبوته في حق الله سبحانه وتعالى نحو أن يفسر قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[2] بالعلو المكاني ويفسر قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[3] بالاستقرار ، بل يفسر العلو بالقهر والاقتدار وكذا الاستواء يفسر بذلك . الثالث : أن تصان أسماء الله تعالى عن الابتذال والذكر لا على وجه التعظيم .

ويدخل في هذا الباب أن تذكر تلك الاسماء عند الغفلة وعدم الوقوف على حقائقها ومعانيها ورفع الصوت بها وعدم الخضوع والخشوع والتضرع وعند ذكرها . الرابع : أن يكون المراد بقوله سبحانه : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي مجده بالاسماء التي أنزلتها إليك وعرفتك أنها اسماؤه وإليه الاشارة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾[4] وعلى هذا التأويل فالمقصود من هذا أن لا يذكر الله إلا بالأسماء التي ورد التوقيف بها . والخامس : أن يكون المراد من التسبيح الصلاة قال الله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾[5] وكأنه قيل صل باسم ربك لا كما يصلي المشركون بالمُكاء والتصدية . والسادس : قال أبو مسلم الأصفهاني : المراد من الاسم هنا الصفة وكذا في قوله سبحانه : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾[6] فيكون المراد الأمر بتقديس صفات الله .

أما الطريق الثاني : وهو أن يقال قوله ﴿ سبح اسم ربك ﴾ معناه سبح ربك وهو إختيار جمع من المفسرين ، قالوا : والفائدة في ذكر الاسم أن المذكور إذا كان في غاية العظمة والجلالة فإنه لا يذكر هو بل يذكر اسمه

---

(١) ص : ٥ .
(٢) الأعلى : ١ .
(٣) طه : ٥ .
(٤) الإسراء : ١١٠ .
(٥) الروم : ١٧ .
(٦) الأعراف : ١٨ .

وحضرته وجنابه ، فيقال سبح اسمه ومجد ذكره ، ويقال سلام الله تعالى على المجلس العالي وعلى الحضرة العالية ، والكلام إذا ذكر على هذا الوجه كان ذلك أدل على تعظيم المذكور مما إذا لم يذكر كذلك وبيانه من وجوه :

أحدها : أنه إذا قيل سبح اسم ربك فإنه يدل على أنه سبحانه أعظم وأجل من أن يقدر أحد من الخلق على تسبيحه وتقديسه ، بل الغاية القصوى للخلق أن يشتغلوا بتسبيح أسمائه ، ومعلوم أن هذا أدل على التعظيم من أن يقال سبح ربك . وثانيها : أنه إذا قيل سبح اسم ربك وقيل سلام الله على المجلس العالي ، فمعناه أنه بلغ في إستحقاق التسبيح إلى حيث إن اسمه يستحق التسبيح ، وبلغ في استحقاق السلام عليه والتعظيم له إلى حيث صار مجلسه وموضعه مستحقاً لهذا التعظيم والتسليم . ومعلوم أن هذا أبلغ في التعظيم مما إذا قيل سلام الله على فلان . وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] فجعل لفظ المثل كناية عنه ، فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يجعل لفظ الاسم هنا أيضاً كناية عنه ؟ ورابعها ؛ وهو أحسن من جميع ما تقدم أنه لو قال : سبح ربك ، كان هذا أمراً بتسبيح ذات الرب ، وتسبيح الشيء في نفسه لا يمكن إلا بعد معرفته في نفسه ، ولما امتنع في العقول البشرية أن تصير عارفة بكنه حقيقته سبحانه وتعالى ، امتنع ورود الأمر بتسبيحه . أما أسماؤه وصفاته فهي معلومة للخلق فلا جرم ورد الأمر بتسبيح أسمائه . فهذا جملة الكلام في الجواب عن الحجة الأولى .

وأما الجواب عن الحجة الثانية : فنقول إن قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا اسماء سميتموها ﴾[2] يدل على أن الاسم غير المسمى لوجهين .

الأول : أن قوله : ﴿ إلا أسماء سميتموها ﴾ يدل على أن تلك الأسماء إنما حصلت بجعلهم ووضعهم ، ولا شك أن تلك الذوات ما حصلت بجعلهم ووضعهم ، وهذا يقتضي أن الاسم غير المسمى . الثاني : أن الآية

---

(١) الشورى : ١١ .

(٢) يوسف : ٤٠ .

تدل على أن اسم الإله كان حاصلاً في حق الأصنام ، ومسمى الإله ما كان حاصلاً في حقهم ، وهذا يوجب المغايرة بين الاسم والمسمى ويدل على أن الاسم غير المسمى . ثم نقول : المراد بالآية أن تسمية الصنم بالإله كان اسماً بلا مسمى كمن يسمى نفسه بإسم السلطان وكان في غاية القلة والذلة ؛ فإنه يقال إنه ليس له من السلطنة إلا الاسم فكذا هنا .

والجواب عن الحجة الثالثة : أن مرادنا من الاسم الألفاظ الدالة ، وأنتم وافقتم على أنه ما كان لله تعالى في الأزل بهذا التفسير اسم ، ثم أي محذور يلزم في ذلك إذا عرفنا بأن مدلولات هذه الأسماء كانت موجودة في الأزل ؟! .

والجواب عن الحجة الرابعة : أنه إذا قال : محمد رسول الله فليس المراد أن اللفظ المركب من الحروف المخصوصة موصوف بالرسالة ، بل المراد منه أن الشخص المدلول عليه بلفظ محمد موصوف برسالة الله . وحينئذ يزول الاشكال .

والجواب عن الحجة الخامسة والسادسة : أنه تمسك في إثبات ما علم بطلانه ببديهة العقل بقول واحد من الشعراء والأدباء ، وذلك مما لا يلتفت إليه ولا يعوَّل عليه ـ والله أعلم .

الفصل الثاني

في الفرق بين الأسماء والصفات

أعلم أن الاسم مشتق إما من السمو على ما هو قول البصريين ، أو من السمة على ما هو قول الكوفيين ، فإن كان من السمو وجب أن يكون كل لفظ دل على معنى من المعاني اسماً ، وذلك لأن اللفظ لما كان دالاً على المعنى فهو من حيث إنه دليل يكون متقدماً على المدلول فكان معنى السمو حاصلاً فيه . وإن كان من السمة فكل لفظ دل على معنى كان سمة على ذلك المعنى وعلامة عليه ، إذا ثبت فنقول : كل لفظ يفيد معنى فإنه يجب أن يكون اسماً على هذا التفسير ، ولهذا السبب قلنا إن قوله تعالى : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ﴾[1] يقتضي أنه تعالى علمه كل اللغات سواء كان من قبيل ما يسميه النحويون اسماً أو يسمونه فعلاً أو حرفاً ، لأنا بينا أن كل هذه الأقسام أقسام اللفظ المفيد يجب أن تكون أسماء بحسب المفهوم الأصلي .

ثم إن النحويين خصصوا لفظ الاسم ببعض أقسام اللفظ المفيد ؛ وذلك لأنهم قالوا اللفظ المفيد إما أن يكون مفهومه مستقلاً بالمعلومية أو لا يكون ، والثاني الحرف ، والأول قسمان ، لأنه إن دل على الزمان المعين لحصوله فهو الفعل ، وإن لم يدل عليه فهو الاسم ، ولهذا قالوا الاسم لفظة مفردة دالة بالوضع على معنى من غير أن تدل على زمانه المعين .

---

(١) البقرة : ٣١ .

ثم إن المتكلمين خصصوا لفظ الاسم ببعض أقسام هذا القسم وذلك لأن كل ماهية فإما أن تعتبر من حيث هي هي أو من خيث إنها موصوفة بصفة معينة ، فالأول هو الاسم والثاني هو الصفة ، فالسماء والأرض والرجل والجدار أسماء ، والخالق والرازق والطويل والقصير صفات ، وهذا هو الفرق بين الاسم والصفة على قول المتكلمين .

إذا عرفت هذا فنقول : كل واحد من القسمين مختص بنوع شرف لا يحصل في القسم الآخر ، أما الاسم فهو أشرف من الصفة لوجوه . الأول : أن الاسم أقدم من الصفة لأن المراد من الصفات الأسماء المشتقة ، ولا شك أن الأسماء الموضوعة أصل للأسماء المشتقة ، إذ لو لم تنته المشتقات إلى اسم موضوع ابتداء غير مشتق لزم إما التسلسل وإما الدور وهما محالان . والثاني : أن الاسماء المشتقة مركبة من الأسماء ، والموضوعة مفردة ولا شك أن المفرد أصل المركب والثالث : أن الاسماء الموضوعة اسماء الذوات وأما المشتقة فإنها أسماء الصفات مع إضافة مخصوصة ، والذات أشرف من الصفة ، فوجب أن تكون الأسماء أشرف من الصفات ، فهذا ما يتعلق بتفضيل الأسماء .

وأما الصفات فقال أبو زيد البلخي : الصفات أشرف من الأسماء ؛ وذلك لأن الاسم لا يفيد السامع شيئاً إلا دلالة مجملة ، فإن من سمع لفظ الرجل عرف أنه أراد شيئاً فأما أن ذلك الشيء ما هو فإنه لا يحصل بذكر هذا الاسم ، وأما الصفات فإنها تعرِّف ماهيات الأشياء وحقائقها وأحوالها ، ولذلك فإن كل من أراد تعريف ماهية فإنه لا يمكنه تعريفها إلا بذكر صفاتها وأحوالها وخواصها ، فثبت أن الصفات أشرف من الأسماء من هذا الوجه . ولقائل أن يقول : اللفظ الدال على الصفة معناه اللفظ الدال على كون الذات موصوفة بالصفة الفلانية ، فما لم يتقدم العلم بتلك الصفة لم يمكن حصول العلم بأن شيئاً آخر موصوف بها ، فإذا معرفة الأسماء المشتقة موقوفة على معرفة الأسماء الموضوعة لتعريف تلك الصفات المخصوصة ، فثبت أن المعرف للأسماء المشتقة موقوف على معرفة الأسماء الموضوعة ، وكان كلام أبي زيد عكس ما ذكرناه ـ والله أعلم .

الفصل الثالث

في شرح مذاهب أهل العلم في الأسماء والصفات

الطريقة الأولى

أعلم أن من الناس من نفى ثبوت الأسماء لله تعالى، وسلم ثبوت الصفات ، ومنهم من عكس : سلم ثبوت الأسماء وأنكر ثبوت الصفات ، ومنهم من اعترف بالأسماء والصفات لله تعالى . أما الذين نفوا ثبوت الأسماء وسلموا ثبوت الصفات فهذا هو قول كل من يقول : حقيقة الحق تعالى غير معلومة للخلق والبشر ، وإحتجوا عليه بأن حقيقته غير معلومة للخلق وإذا كان كذلك لم يكن له اسم .

بيان المقدمة الأولى : إن المعلوم منه للخلق إما الوجود وإما السلوب وإما الاضافات ، أماالعلم بكونه موجوداً فذلك ليس علماً بحقيقته المخصوصة . لأن الوجود المعلوم هو الأمر الذي يناقض العدم ، وهذا المعقول مفهوم عام يصدق على جميع الممكنات وحقيقته المخصوصة لا تصدق على شيء منها ، فالوجود غير تلك الحقيقة ، وأما السلوب فهي قولنا ليس بجوهر ولا بعرض ولا حال ولا محل ، فالمعقول هنا عدم هذه الأمور ، وحقيقته لا شك أنها مغايرة لعدم هذه الأمور ، وأما الاضافات فهي قولنا إنه عالم قادر فإن المعلوم من كونه عالماً أنه موصوف بصفة ممّا لأجلها صح منه الايجاد على نعت الأحكام ، والمعلوم من كونه قادراً أنه مؤثر في إيجاد الأثر

على سبيل الصحة لا على سبيل الوجوب ، وكل ذلك عبارة عن الاضافات المخصوصة ، وحقيقته المخصوصة ليست نفس هذه الاضافات فثبت أن المعقول منه ليس إلا الوجود والسلوب والاضافات ، وثبت أن شيئا منها ليس هو نفس حقيقته المخصوصة ، فثبت أن حقيقته المخصوصة غير معقولة للخلق .

بيان المقدمة الثانية : وهي أن تلك الحقيقة المخصوصة لما لم تكن معلومة للخلق لم يكن بها اسم ؛ والدليل عليه أن المقصود من وضع الاسم أن يشار بذلك الاسم إلى ذلك المسمى عند التخاطب ، وذلك إنما يفيد إذا كان واحد من المتخاطبين عارفاً بذلك المسمى ، فإذا كانت تلك الحقيقة لا يعرفها إلا الله لم يكن في وضع الاسم لها فائدة . فهذا حجة من نفي الاسم .

ويمكن الجواب عنه : بأن ما ذكرتم من الدليل يدل على أنا لا نعرف حقيقة ذات الله تعالى لكنكم ما ذكرتم دليلاً على أنه يمتنع في قدرة الله تعالى أن يشرف بعض عبيده بتعريف تلك الحقيقة فبتقدير أن يكون ذلك ممكناً كان وضع الاسم لتلك الحقيقة مفيداً .

وأما الذين سلموا الأسماء ونفوا الصفات فهم قوم من قدماء الفلاسفة والصابئة وقد إحتجوا على قولهم بوجوه :

الحجة الأولى : أنّا إذا وصفنا الله تعالى بالصفات فوصْفنا له بالصفات إما أن يكون مطابقاً للأمر في نفسه أو لا يكون ، فإن لم يكن مطابقاً كان جهلاً وكذباً ، وإن كان مطابقاً فتلك الصفات إما أن تكون عين تلك الذات أو لا تكون ، فإن كانت عين تلك الذات كان محالاً ؛ لأن على هذا التقدير تصير كل هذه الصفات أسماء مترادفة دالة على نفس تلك الذات ، وحينئذ لا يكون هذا من باب الصفات بل من باب الأسماء ، وأما إن كانت الصفات ليست هي نفس الذات ؛ فنقول هذه الصفات إما أن تكون واجبة لذواتها أو ممكنة لذواتها والقسمان باطلان فبطل القول بالصفات ، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن تكون تلك

الصفات واجبة لذواتها لوجين : أحدهما : أنه لو حصل شيئان يكون كل واحد منهما واجباً لذاته فهما يشتركان في الوجوب بالذات ويتباينان بالتعيين ، وما به المشاركة غير ما به الامتياز ، فكل واحد منهما في ذاته مركب وكل مركب ممكن ؛ فالواجب لذاته ممكن لذاته هذا خلف . والثاني : أن الصفة هي التي لا يعقل ثبوتها بدون الموصوف ، فكل صفة هي مفتقرة في ثبوتها إلى غيرها ، والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته ؛ فالواجب لذاته ممكن لذاته هذا خلف .

وإنما قلنا إنه امتنع كون تلك الصفات ممكنة لذواتها لوجهين . الأول : إن كل ممكن فله سبب وليس سبب تلك الصفة غير تلك الذات ، لأن هذا البحث إنما وقع في المبدأ الأول ويمتنع أن تكون صفة المبدأ الأول مستفادة من غيره فإذاً ، سبب تلك الصفة هو تلك الذات ، ولا شك أن تلك الذات بسيطة فلزم أن يكون البسيط قابلاً وفاعلاً ، فهذان المفهومان إن كانا داخلين في الماهية كانت الماهية مركبة وقد فرضناها بسيطة ، هذا خلف ، وإن كانا خارجين عن الماهية كانا لاحقين وممكنين ومعلولين ، وكان التغاير في المفهوم عائداً فيه فيلزم إما التسلسل وإما الكثرة في الماهية . وإن كان أحدهما داخلاً والآخر خارجاً فهذا أيضاً يوجب وقوع الكثرة في الذات . الوجه الثاني : في بيان أنه يمتنع كون تلك الصفات ممكنة لذواتها : هو أن كل ممكن فإنه مفتقر في ثبوته وفي تحققه إلى السبب فإفتقارها إلى السبب يمتنع أن يكون حال بقائها وإلا لكان ذلك تحصيلاً للحاصل وهو محال ، فذلك الافتقار إما حال حدوثها أو حال عدمها ، وعلى التقديرين فكل ممكن فهو محدث ، فلو كانت صفات الله تعالى ممكنة لكانت محدثة ، ولو كانت محدثة لافتقر محدثها في إحداثها إلى صفات أخرى سابقة عليها ويلزم التسلسل ، فثبت أنه لو وجدت الصفات لكانت إما واجبة وإما ممكنة والقسمان باطلان فبطل القول بالصفات .

الحجة الثانية : الإله لو كان ذاتاً موصوفاً بصفات لكان الإله مركباً من تلك الذات ومن تلك الصفات وكل مركب فهو مفتقر إلى كل واحد من

أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره ، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن ، فلو كان الإله مركباً من الذات والصفات لكان ممكناً وهو محال ، فوجب القطع بأنه تعالى فرد مبرأ عن الكثرة .

فإن قيل : هب أن الأمر كذلك ، لكن لم لا يجوز أن يقال تلك الذات مبدأ لتلك الصفات ؟ قلنا فعلى هذا التقدير المبدأ الأول هو تلك الذات وحدها ، وتكون الصفات معلولة للمبدأ الأول ، وعلى هذا فالمبدأ الأول مبرأ عن الصفات .

الحجة الثالثة : أن كون تلك الذات كاملة في الإلهية إما أن لا يعتبر فيه أمر وراء تلك الذات أو يعتبر ، فإن كان الأول كانت تلك الذات من حيث هي هي كافية في الإلهية وعلى هذا التقدير لا يمكن إثبات الصفات ، وإن كان الثاني كانت تلك الذات بدون تلك الصفات ناقصة بذاتها مستكملة بغيرها وذلك محال ، وربما عبزوا عن هذه الشبهة بأن الإلهية لو كانت موقوفة على ثبوت هذه الصفات لكانت الذات محتاجة في تحصيل الإلهية إلى تلك الصفات ، والحاجة إلى الشيء من لوازم النقص وأيضاً فالمحتاج إليه أقوى من المحتاج فيلزم كون الصفة أقوى من الذات وكل ذلك محال .

الحجة الرابعة : قالوا جميع الأديان والملل شاهدة بأنه لا بد من الاقرار بالوحدانية : قال سبحانه وتعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾[1] وقال ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾[2] ومعلوم أن النصارى لا يثبتون ذواتاً ثلاثة متباينة بل يثبتون ذاتاً واحدة موصوفة بالأقانيم ، ومرادهم بالأقانيم الصفات ؛ فدل هذا على أنه تعالى إنما كفَّرهم لقولهم بكثرة الصفات . فهذا مجموع شبه منكري الصفات .

والجواب على الشبهة الأولى : لم لا يجوز أن يقال : الصفات الممكنة لذواتها واجبة بوجود الذات ، قوله يلزم أن يكون البسيط قابلاً وفاعلاً ؟ قلنا لم

---

(١) الاخلاص : ١ .
(٢) المائدة : ٧٣ .

لا يجوز ذلك أليس أن حقيقته مقتضية الوجود والوحدة والتعيين موصوفة بها . قوله : كل مفتقر إلى الغير محدث . قلنا ينتقض بالوجود والوحدة والتعيين بأنها من لوازم ذاته أزلاً وأبداً .

والجواب عن الشبهة الثانية : لم لا يجوز أن تكون الذات موجبة لتلك الصفات ثم الذات الموصوفة بتلك الصفات تكون موجدة للمخلوقات ؟

والجواب عن الشبهة الثالثة : أن الذات لما كانت موجبة لهذه الصفات كانت الذات مستكملة بنفسها لا بغيرها .

والجواب عن الشبهة الرابعة : أن النصارى أثبتوا قدماء مستقلة بأنفسها ، ألا ترى أنهم جوزوا على الأقانيم الحلول في بدن مريم وعيسى عليهما السلام ، ونحن لا نقول بإثبات قدماء مستقلة بأنفسها ؛ فظهر الفرق فهذا هو الجواب عن الشبه .

واعلم أن سبب اضطراب العقلاء في إثبات الصفات ونفيها مقدمتان وقفتا في العقول على سبيل التعارض . إحداهما : أن الوحدة كمال والكثرة نقصان فصارت هذه المقدمة داعية إلى المبالغة في التوحيد حتى إنتهى الأمر إلى نفي الصفات . والمقدمة الأخرى : إن الموجود الذي يكون قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات حياً حكيماً سميعاً بصيراً لا شك أنه أكمل من الموجود الذي لا يكون قادراً ولا عالماً ولا حياً بل يكون شيئاً لا شعور له بشيء مما صدر عنه ولا قدرة له على الفعل والترك ، فصارت هذه المقدمة داعية للعقول إلى إثبات هذه الصفات ، ولما كانت ماهيات هذه الصفات مختلفة متغايرة وجب الاعتراف بالكثرة في صفات الله تعالى ، ثم وقعت العقول في الحيرة والدهشة بسبب تعارض هاتين المقدمتين ، ومقصود كل واحد من الفريقين إثبات الكمال لله تعالى والجلال ونفى النقصان عنه ، فالنفاة حاولوا إثبات الكمال والوحدانية ، والمثبتون حاولوا إثبات الكمال في الإلهية ، والأذكياء من العقلاء إحتالوا في وجه التوفيق بين هاتين المقدمتين وحاصل ما ذكروه طرق أربع :

الطريقة الأولى

طريقة الإلهيين من الفلاسفة

في النظر إلى صفات الله

وهي أن صفات الله تعالى نوعان سلبية وهي المسماة في القرآن بالجلال ، وإضافية وهي المسماة في القرآن بالإكرام وإليه الاشارة بقوله ﴿ ذي الجلال والاكرام ﴾[1] ثم قالوا أما كثرة السلوب فلا توجب كثرة في الذات ، بدليل أن كل ماهية فردة بسيطة فلا بد وأن يصدق عليها سلب كل ما عداها عنها ، وذلك يدل على أن كثرة السلوب لا تقدح في وحدة الذات ، وأما كثرة الاضافات فهي أيضاً لا توجب كثرة في الذات بدليل أن أبعد الأشياء عن الكثرة هو الوحدة ، ثم إن الوحدة نصف الاثنين وثلث الثلاثة وربع الأربعة هكذا إلى غير النهاية من النسب والاضافات المعارضة للوحدة بسبب انتسابها إلى الأعداد التي لا نهاية لها . قالوا : فدل على أن إثبات صفات الجلال والاكرام لا يقدح في وحدة الذات .

الطريقة الثانية

طريقة المعتزلة

في النظر إلى صفات الله

وهم قد اتفقوا على أنه سبحانه وتعالى عالم قادر ، واعلم أن مذهبهم في كيفية الصفات مضطرب ونحن نذكر تقسيماً مضبوطاً في هذا الباب فنقول : إما أن يقال أن يكون المفهوم من نفس كونه تعالى عالماً قادراً مفهوماً سلبياً أو ثبوتياً ، أما الأول فيقرب أن يكون مذهب أبي إسحق النَّظام[2] وهو أنه قال معنى كونه عالماً كونه ليس بجاهل وكونه قادراً أنه ليس بعاجز وهذا

---

(١) الرحمن : ٧٨ .

(٢) أبو إسحق إبراهيم بن سيار البلخي واحد من كبار المعتزلة واسع الحفظ كثير الثقافة متبحر في الاتجاهات الفكرية والعقائد الدينية والمذاهب الفلسفية والمسائل اللغوية والأدبية .

ضعيف ؛ لأن نفي الجهل ليس بعلم ، بدليل أن المعدوم والجماد ليس بجاهل ولا بعالم ، أما إذا قلنا إن كونه عالماً قادراً مفهوم ثبوتي ، فهذا المفهوم إما أن يكون عين ذاته وإما أن يكون زائداً على الذات ، أما الأول فيقرب أن يكون ذلك مذهب أبي الهذيل[١] فإنه نقل عنه أنه قال : إنه تعالى عالم بعلم هو ذاته ، لكنه ناقض فقال وذاته ليس بعلم ، وهذا أيضاً ضعيف ، لأن المفهوم من كونه قادراً غير المفهوم من كونه عالماً ، وحقيقة الذات الواحدة حقيقة واحدة ، والحقيقة الواحدة لا تكون عين الحقيقتين ، لأن الواحد لا يكون نفس الاثنين ، ولأنه صح منا أن نعقل الذات مع الذهول عن كونها عالمة قادرة ، ويصح منا أن نعقل العالمية مع الذهول عن القادرية ، وبالعكس ، والدليل الذي يدل على أحد هذه الأمور غير الدليل الذي يدل على سائرها ، وكل ذلك ينافي أن تكون الذات والعلم والقدرة أمراً واحداً .

الطريقة الثالثة

طريقة أبي هشام

في النظر إلى صفات الله

أنّا إذا قلنا : إن كونه تعالى عالماً قادراً أمران ثبوتيان زائدان على الذات ، فها هنا قال أبو هاشم : العالمية والقادرية لا يقال فيهما موجودتان أو معدومتان أو معلومتان أو لا معلومتان ، وإتفق أكثر العقلاء على أن ما قاله باطل ؛ لأن كل تصديق فهو مسبوق بالتصور لا محالة ، فلو لم تكن هاتان الصفتان متصورتان لما أمكن الحكم عليهما بكون الذات موصوفة بهما ، وأيضاً لو لم تكن هذه الصفة متصورة لما أمكن الحكم عليها بأنها غير متصورة ، لأن قولنا : هذا غير متصور ، قضية وكل قضية فلا بد وأن تكون مسبوقة بتصور موضوعها ومحمولها ، وأيضاً المحكوم عليه بأنه غير معلوم ليس هو الذات بل هو الصفة ، فهذه الصفة مستقلة بكونها محكوماً عليها بأنها غير متصورة وذلك متناقض .

---

(١) أستاذ النظام .

الطريقة الرابعة

الطريقة الحقَّة

في النظر إلى صفات الله

ولما بطلت هذه المذاهب لم يبق إلا أن يقال هاتان الصفتان أمران ثبوتيان معلومان زائدان على الذات ، وهذا قول مثبتي الصفات ، فهذا هو الإشارة إلى غور هذه المسألة ، والاستقصاء فيها مذكور في كتب الكلام .

ولما بطلت شبهات نفاة الأسماء وشبهات نفاة الصفات ، لم يبق إلا الجزم بإثبات الأسماء والصفات على ما هو قول الجمهور الأعظم من أهل العلم ، ومباحث هذا الكتاب مفرَّعة على هذا الأصل الممهد والقانون المؤكد . . والله أعلم .

الفَصل الرابع

في أن أسماء الله تعالى توقيفية أم قياسية

مذهب أصحابنا أنها توقيفية ، وقالت المعتزلة والكرامية : إن اللفظ إذا دل العقل على أن المعنى ثابت في حق الله سبحانه جاز إطلاق ذلك اللفظ على الله تعالى سواء ورد التوقيف به أو لم يرد ، وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني[1] من أصحابنا ، وإختيار الشيخ الغزالي أن الأسماء موقوفة على الإذن ، أما الصفات فغير موقوفة على الإذن ، وهذا هو المختار .

حجة الأصحاب : لو لم يقف ذلك على الإذن لجاز تسميته عارفاً وفقيهاً ودارياً وفَهماً وموقناً وعاقلاً وفطناً وطبيباً ولبيباً ، كما جاز وصفه بكونه عالماً ، لأن هذه الأسماء التي ذكرناها مرادفة للعالم في اللغة ، ولما لم يجز ذلك علمنا أن الاستعمال موقوف على السمع والإذن . أجاب القاضي رحمه الله بأن كل واحد من هذه الألفاظ يدل على ما لا يجوز ثبوته لله تعالى . أما المعرفة : ففيها وجوه . الأول أن من أدرك شيئاً من الحاضر ثم غاب عنه ونسيه ثم أدركه ثانياً أو علم أن هذا الذي أدركه ثانياً هو عين الذي أدركه أولاً فهذا هو العلم المسمى بالمعرفة ، ولذلك فإنه إذا رآه ثانياً وتذكر أنه هو الذي

---

(١) محمد بن الطيب متكلم فقيه ولد بالبصرة ومات ببغداد سنة ١٠١٣ من أكبر دعاة المذهب الأشعري جادل المعتزلة وتغلب عليهم ، ذهب إلى القسطنطينية لمجادلة علماء المسيحيين وتغلب عليهم أيضاً ـ رضي الله عنه .

رآه أولاً قبل ذلك فإنه يقول الآن عرفتك ، وعلى هذا التقدير فالمعرفة اسم لعلم تقدمته غفلة ، فلهذا لا يصح إطلاقه في حق الله تعالى . والثاني : ما ذكره أبو القاسم الراغب في كتاب الذريعة[1] وهو أن لفظ المعرفة إنما يستعمل فيما تدرك آثاره ولا تدرك ذاته ، والعلم يقال فيما تدرك ذاته ، ولهذا يقال فلان يعرف الله ، ولا يقال فلان يعلم الله ، لأن معرفة الله تعالى ليست بمعرفة ذاته بل بمعرفة آثاره ؛ ولذلك تسمى رائحة العود بعرف العود لأن تلك الرائحة أثر من آثاره .

وأما الفقه فهو عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه وذلك يشعر بسابقة الجهل ، وأما الدراية فهي عبارة عن الشعور الذي يحصل بضرب من الحيلة وهو تقديم الفكر والروية ، وأصله من ادَّريت الصيد ، والدرية يقال لما يتعلم عليه الطعن ، والمدري تقال لما يصلح به الشعر ، ولهذا لا يصح وصف الله تعالى به لأن معنى الحيلة محال عليه . وأما الفهم فهو صريح في سابقة الجهل . وأما اليقين فهو مأخوذ من يقن الماء في الحوض إذا إجتمع فيه ، فاليقين اسم لعلم كان في أول الأمر إعتقاداً ضعيفاً ثم اجتمعت الدلائل فتأكد الاعتقاد وصار علماً ، وأما العقل فهو مأخوذ من عقال الناقة وهو العلم المانع عن فعل ما لا ينبغي ، وهذا إنما يتحقق في حق من تدعوه الدواعي إلى فعل ما لا ينبغي . وأما الفطنة فهي عبارة عن سرعة إدراك ما يراد تفويضه على السامع وسرعة الادراك مسبوقة بالجهل . وأما الطب فهو علم مأخوذ من التجارب ولهذا لا يقال فلان طبيب بالهندسة والحساب ، كما يقال عالم بالهندسة والحساب ، فثبت أن المنع من إطلاق هذه الألفاظ إنما كان لأنها توهم أموراً يمتنع ثبوتها في حق الله تعالى .

فإن قال قائل : فلفظ الكبير والخداع والكيد والاستهزاء[2] يوهم أموراً يمتنع ثبوتها في حق الله تعالى ، فكيف ورد الإذن بإطلاقها في حقه سبحانه .

---

(١) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة . مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) مثل قوله تعالى في الكيد « إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً » .

فالجواب : أن الألفاظ الدالة على الصفات على ثلاثة أقسام : منها ما يدل على صفات ثابتة في حق الله تعالى قطعاً ، ومنها ما يدل قطعاً على أمور يمتنع ثبوتها في حق الله تعالى ولا يجوز إطلاقها عليه ، ومنها أمور ثابتة في حق الله تعالى ولكنها مقرونة بكيفيات يمتنع ثبوتها في حق الله تعالى كالمكر والخداع . والقسم الأول ينقسم إلى ثلاثة أقسام : أحدها : ما يجوز ذكره مفرداً أو مضافاً كقولنا إنه سبحانه موجود وشيء وأزلي وقديم. وثانيها : ما يجوز ذكره مفرداً ولا يجوز ذكره مضافاً إلى بعض الأشياء ، فإنه يجوز أن يقال يا خالق يا ملك ، ولا يجوز أن يقال يا خالق القردة والخنازير والخنافس وإن كان ذلك حقاً في نفس الأمر ، بل ينبغي أن يقال يا خالق السموات والأرض . وثالثها : ما يجوز ذكره مضافاً ولا يجوز ذكره مفرداً ، فإنه لا يجوز أن يقال يا منشىء يا منزل يا رامي ، ولقد قال سبحانه : ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾[1] وقال : ﴿ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾[2] وقال : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[3] وأيضاً لا يجوز أن يقال يا محرك يا مسكن ، ويجوز أن يقال يا محرك السموات ويا مسكن الأرض ، وبالجملة فالألفاظ المستعملة في حق الله سبحانه في صفاته كما يعتبر فيها كونها حقة في نفس الأمر يعتبر فيها رعاية الأدب والتعظيم . وأما القسم الثاني وهو الألفاظ التي لا تكون معانيها ثابتة في حق الله سبحانه بوجه من الوجوه فلا يجوز إطلاقها في حق الله تعالى ، فإن ورد السمع بها وجب تأويلها كلفظ النزول والصورة والمجيء[4] وأمثالها . وأما القسم الثالث : وهو الذي يكون المسمى مركباً من أمر ثابت في حق الله تعالى ومن كيفية يمتنع ثبوتها لله تعالى فمثل هذا اللفظ لا يجوز إطلاقه عليه سبحانه ، فإن ورد التوقيف به أطلقناه في

---

(١) الواقعة : ٧٢ .

(٢) الواقعة : ٦٩ .

(٣) الأنفال : ١٧ .

(٤) النزول كقوله تعالى في الحديث القدسي : ﴿ ينزل ربنا إلى السماء ﴾ . والصورة « إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته » . والمجيء كقوله تعالى في سورة الفجر الآية ٢٢ . ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾.

حق الله تعالى بعين ذلك اللفظ ، فأما سائر الألفاظ المشتقة منه فلا يجوز إطلاقها في حق الله تعالى ، فنقول ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾[1] ونقول ﴿ يستهزىء بهم ﴾[2] ولا يقال البتة يا ماكر يا خادع يا مستهزىء ، فهذا هو القانون الكلي المضبوط في هذا الباب .

ولما أجبنا عن دليل المتقدمين فلنرجع إلى تصحيح القول المختار وهو الذي ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله فنقول : الدليل على أنه لا يجوز وضع الاسم لله تعالى أنّا أجمعنا على أنه لا يجوز لنا أن نسمي الرسول باسم ما سماه الله به ، ولا باسم ما سمى هو نفسه به فإذا لم يجزِ ذلك في حق الرسول بل في حق أحد من آحاد الناس فهو في حق الله تعالى أولى .

فإن قيل : أليس أن العجم يسمون الله تعالى بقولهم « خداي » والترك بقولهم « تنكري » وأجمعت الأمة على أنهم لا ينعون من هذه الألفاظ مع أن التوقيف ما ورد بها .

قلنا : مقتضى الدليل أنه لا يجوز ذلك إلا أن الإجماع دل على جوازه فيبقى ما عداه على الأصل ، وأما بيان أن الوصف لا يتوقف على التوقيف فهو أن مدلول اللفظ لما كان ثابتاً في حق الله تعالى كان وصف الله تعالى به كلاماً صدقاً ، فوجب أن يجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام : « قولوا الحق ولو على أنفسكم » وأيضاً قياساً على سائر الأخبار الصادقة .

---

(١) آل عمران : ٥٤ .

(٢) البقرة : ١٥ .

الفصل الخامس

في تقسيم الأسماء

أعلم أن الأسماء إما أن تكون أسماء للذات أو لجزء من أجزاء الذات أو لأمر خارج عن الذات ، أما اسم الذات فإما أن يكون إسماً لشخص معين وهو اسم العلم ، أو لماهية كلية وهو اسم الجنس ، أما اسم العلم فهل يجوز ثبوته في حق الله سبحانه وتعالى : اختلفوا فيه ، فقال كثير من المتكلمين : إنه غير ثابت واحتجوا عليه بوجوه .

الأول : أسماء الاعلام قائمة مقام الاشارات ؛ فإذا قيل يا زيد فكأنه قال يا أنتَ ، ولما كانت الاشارة إلى الله ممتنعة كان اسم العلم في حقه ممتنعاً .

الحجة الثانية : أن المقصود من اسم العلم أن يتميز ذلك الشخص عما يشاركه في نوعه أو جنسه ، والباريء مقدس عن أن يكون تحت نوع أو جنس فيمتنع وصف العلم له .

الحجة الثالثة : المعلوم للخلق من الحق أمر كلي بدليل أن كل واحد من صفاته المعلومة فهو كلي ، فإذا قلنا الموجود فهو كلي وإذا قلنا الواحد فهو كلي وقس الباقي عليه ، وثبت في المعقولات أن تقييد الكلي بالكلي لا يخرجه عن الكلية ، فإذاً كل ما كان معلوماً للخلق من الحق سبحانه فهو كلي ، فأما ما هو من حيث إنه ذلك المعين فغير معلوم ، ووضع العلم إنما يكون لذلك المعين من حيث إنه ذلك المعين فإذا لم يكن ذلك المعين معلوماً

امتنع وضع العلم له ، ومن العلماء من قال إنه تعالى عالم بذاته المخصوصة ، ولا يمتنع أيضاً أن يشرف بعض عبيده بأن يخلق في قلبه علماً به من حيث هو هو ، وعلى هذا التقدير لا يبعد إثبات اسم العلم لله تعالى .

أما قوله أولاً إن اسم العلم قائم مقام الإشارة . فجوابه : إن الاشارة الحسية إلى الله تعالى ممتنعة ، أما الاشارة العقلية فلم قلتم أنها ممتنعة ؟

وأما قوله ثانياً : إن المقصود من ذكر العلم تمييزه عن غيره مما يشاركه في نوعه أو في جنسه . فجوابه : أن هذا مقصود أما أنه لا مقصود إلا هذا فغير مسلم .

وأماقوله ثالثاً : إن تعينه للخلق غير معلوم قبل رؤ يته . فجوابه قد تقدم .

أما القسم الثاني : وهو الاسم الدال على جزء من أجزاء الذات فهو كقولنا في الإنسان إنه جسم ، فإن كونه جسماً أحد أجزاء كونه إنساناً . فنقول : هذا في حق الله محال فإن هذا يقتضي أن تكون ذاته مركبة وكل مركب فهو ممكن وواجب الوجود يمتنع أن يكون مركباً .

وأما القسم الثالث : وهو الاسم الدال على أمر خارج عن الذات وهو القسم الذي سميناه بالصفات ، فنقول هذه الصفات إما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية إضافية أو سلبية ، وإما أن تتركب من هذه الأقسام الثلاثة وهي أربعة ، فإما أن تكون صفة حقيقية مع صفة إضافية ، أو صفة حقيقية مع صفة سلبية ، أو صفة إضافية مع صفة سلبية ، أو مجموع صفة حقيقية وسلبية وإضافية .

أما الحقيقية : فكقولنا إنه سبحانه وتعالى موجود وشيء وحي .

وأما الصفة الإضافية فقط فكقولنا : إنه سبحانه وتعالى معبود معلوم مذكور مشكور ، ومنه قولنا يا من هو المسبَّح بكل لسان يا من هو المعبود بكل مكان ، ومنه قولنا : إنه هو العلي العظيم فإنهما يدلان على أنه تعالى أزيد في الكمال والجلال من كل ما سواه ، وهذه إضافة محضة .

وأما الصفة السلبية فكقولنا : قدوس وسلام وغني وواحد ، فإن القدوس هو المسلوب عنه مشابهة جميع الممكنات ، والسلام هو المسلوب عنه العيوب ، والغني هو المسلوب عنه الحاجة ، والأحد هو المسلوب عنه الكثرة ، والواحد هو المسلوب عنه النظير .

وأما الصفة الحقيقية مع الإضافة فكقولنا عالم قادر مريد سميع بصير ؛ فإن العلم صفة قائمة بالذات ولها إضافة إلى المعلومات ، وكذا القدرة والارادة والسمع والبصر والكلام .

وأما الصفة الحقيقية مع السلب فكقولنا قديم أزلي فإن معناه أنه موجود لا يسبقه عدم فوجوده صفة حقيقية ، وقولنا لا يسبقه عدم سلب .

فإن قيل : لا يسبقه عدمٍ إشارة إلى نفي العدم السابق ونفى النفي ثبوت ، وهو نفي النفي فيكون ثبوتاً .

فالجواب : من الناس من قال القدم عبارة عن عدمِ نفي الحدوث والحدوث ليس عبارة عن العدم السابق بل عن كونه مسبوقاً بذلك العدم ، وهذه المسبوقية كيفية من كيفيات ذلك الوجود .

وأما الصفة الاضافية مع الصفة السلبية فكقولنا : أول وآخر فإن الاول هو الذي يسبق غيره ولا يسبقه غيره فكونه سابقاً على الغير إضافة وكونه بحيث لا يسبقه غيره سلب .

وأما الصفة الحقيقية مع الاضافة والسلب فكقولنا : الملك فإنه عبارة عن الموجود الذي يفتقر إليه غيره وهو يستغني عن غيره ؛ فالوجود صفة حقيقية وافتقار غيره إليه إضافية واستغناؤه عن غيره سلب .

وإذا عرفت هذا فنقول السلوب غير متناهية ، وكذلك الاضافات غير متناهية لأنه تعالى عالم بما لا نهاية له قادر على ما لا نهاية له ، خالق لجميع المحدثات ، مريد لكل الكائنات . ولا يمتنع أن يكون له سبحانه وتعالى بحسب كل واحد من السلوب وكل واحد من الاضافات تارة على الانفراد وتارة

على التركب اسم ، وعند هذا يظهر لك أنه لا نهاية لأسماء الله تعالى وصفاته .

ثم ههنا دقيقة : وهو أن العلم بالاضافة مشروط بحصول العلم بالمضافين ، وكل من كان علمه بأقسام معلومات الله ومقدوراته أكثر كان علمه بأسماء الله تعالى وصفاته أكثر ، وحينئذ يظهر أن هذا النوع من العلم بحر لا ساحل له ، وأن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وسكان الجنة والنار لو أنهم إشتغلوا بذكر جلال الله وشرح نعوت كبريائه من أول وقت خلق الخلق إلى آخر أبد الآباد ثم قابلوا ما ذكروه بما لم يذكروه وجدوا المذكور في مقابلة غير المذكور كالعدم بالنسبة إلى الوجود ، لأن كل ما ذكروه وإن كان كثيراً فهو متناه وما لم يذكروه فهو غير متناه ، والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي - والله أعلم .

التقسيم لصفات الله تعالى

قال الأصحاب : صفات الله تعالى على ثلاثة أقسام : صفات ذاتية وصفات معنوية وصفات فعلية ، أما الصفات الذاتية فالمراد منها الألقاب الدالة على الذات كالموجود والشيء والقديم ، وربما جعلوا الألفاظ الدالة على السلوب من هذا الباب كقولنا : واحد وغنى وقدوس ، وأما الصفات المعنوية فالمراد بها الألفاظ الدالة على معان قائمة بذات الله تعالى كقولنا عالم قادر حي . وأما الصفات الفعلية فالمراد بها الألفاظ الدالة على صدور أثر من الآثار عن قدرة الله تعالى . هذا حاصل ما قالوه .

وها هنا بحث : وهو أن كل معقول يشير العقل إليه فذلك المشار إليه إما ذات الشيء أو جزء داخل في ماهية الذات ، أو أمر خارج عن ماهية الذات ، والخارج عن الذات إما أن يكون صفة حقيقية أو اضافية أو سلبية ؛ أو ما تركب عن هذه الأمور ، إذا عرفت هذا فنقول : مراد المتكلمين من الصفة الذاتية لا بد وأن يكون أحد هذه الأقسام لا جائز أن يكون مرادهم نفس

الذات ، لأن الشيء الواحد لا يعقل جعله صفة لنفسه ، وأيضاً فعلى هذا التقدير تكون الصفات الذاتية لله تعالى ألفاظاً مترادفة ؛ لأن المفهوم من كل واحد منها هو الذات ، ومعلوم أن الكثرة في الألفاظ لا عبرة بها في هذا الباب . وأما إن كان مرادهم من الصفات الذاتية الأمور الداخلة في قوله الذات فهذا يقتضي كون الحقيقة مركبة ، وقد بينا أن ذلك محال . وأما إن كان مرادهم من الصفة الذاتية الأمر الخارج عن الذات فحينئذ نقول إن ذلك الأمر الخارج إما أن يكون صفة حقيقية أو إضافية أو سلبية ، ويجب أن يفسر قولهم الصفة الذاتية بأحد هذه الأقسام حتى يصير معقولاً .

واعلم أن من الناس من أثبت واسطة بين الموجود والمعدوم وسماها بالحال وزعم أن المراد بالصفات هو هذه الأحوال ثم قال الموجب لثبوت هذه الأحوال إما ذات الله تعالى إما إبتداء أو بواسطة أحوال أخرى وهو الصفات الذاتية ، وإما أن يكون الموجب لثبوت هذه الأحوال معاني موجودة قائمة بذات الله تعالى ، وهذا هو الصفات المعنوية كالعالم والقادر .

وأما الصفات الفعلية : فليست عبارة عن حالة ثابتة لذات الله تعالى ولا معنى قائم بذات الله تعالى بل هي عبارة عن مجرد صدور الآثار عنه ، ولا معنى للخالق إلا أنه وجد المخلوق منه بقدرته ، ولا معنى للرازق إلا أنه وصل الرزق منه إلى العبد بسبب إيصاله فهذا تمام البحث عن صفة الذات وصفة المعنى وصفة الفعل ، فأما إثبات الصفات المعنوية فقد تقدم الكلام فيه .

أما صفات الأفعال ففيها أيضاً غور شديد وبحث عظيم ، وتقريره : أنا إذا قلنا إن كذا مؤثر في كذا فكونه مؤثراً فيه إما أن يكون مفهوماً سلبياً أو ثبوتياً والأول باطل ، لأن صريح العقل يشهد بأن قولنا إن كذا ليس بمؤثر في كذا سلب محض وعدم صرف ، وقولنا إنه مؤثر في نقيض قولنا ليس بمؤثر فيه ورفع السلب ثبوت ، وأما إذا كان المؤثر فيه أمراً ثبوتياً فهذا المفهوم إما أن يقال إنه نفس ذات المؤثر أو ذات الأثر ، وإما أن يكون ثالثاً مغايراً لهما والقسمان الأولان باطلان لوجوه .

أحدها : أنه يمكننا أن نعقل ذات الله تعالى وذات السموات والأرض مع الشك في أن المؤثر في هذه السموات والأرض هو الله ، أو مخلوق من مخلوقاته ، أو شيء آخر واجب الوجود إلى أن يقوم البرهان على أن ذلك المؤثر ليس إلا الله سبحانه وتعالى ، والمعلوم مغاير للمشكوك .

وثانيها : أنه لا يمكن أن يكون كونه خالقاً هو نفس وجود المخلوق لوجوه .

الأول : أن الخالقية صفة لخالق فلو كان المفهوم منها هو نفس وجود المخلوق لزم كون المخلوق صفة للخالق وهو محال .

والثاني : أنّا متى سئلنا أن هذا المخلوق لم وجد ؟ أجبنا بأنه إنما وجد لأن الخالق خلقه ، فلو كان كون الخالق خالقاً عبارة عن عين وجود المخلوق لكان يرجع حاصل الكلام إلى أن نقول إنما وجد ذلك المخلوق لأنه وجد ذلك المخلوق ، فيكون الشيء قد وجد بنفسه والقول بذلك نفي للخالق والمخلوق وهو محال .

الثالث : أنّا لما عللنا وجود المخلوق بأن الخالق خلقه وجب أن يكون كون الخالق خالقاً مغايراً لوجود المخلوق لأن تعليل الشيء بنفسه محال . فثبت بمجموع ما ذكرنا أن المفهوم من كونه خالقاً أمر ثبوتي مغاير لذات الخالق ولذات المخلوق ، وثبت أن الخالق ليس نفس المخلوق .

ثم في هذا المقام اضطربت العقول فمنهم من قال هذا الخلق محدث ومنهم من قال إنه قديم ، والقائلون بأنه محدث منهم من قال يحدث ذلك الخلق في ذات الله تعالى وهم الكرامية ، ومنهم من قال يحدث ذلك الخلق في ذات الله لا في محل وهم قوم من قدماء المعتزلة ، فقيل لهؤلاء لو كان الخلق محدثاً لافتقر إلى خالق آخر والكلام في كيفية خلق ذلك كما في نفس ذلك الخلق فيلزم التسلسل وهو محال ، فبقي أن يكون ذلك الخلق قديماً ، وعند هذا جاء الاشكال العظيم من وجهين .

الأول : وهو أن الخالق لو كان قديماً لكان المخلوق قديماً فيلزم قدم العالم وهو محال . وإنما قلنا لو كان الخلق قديماً لكان المخلوق قديماً ؛ لأن قبل وجود المخلوق يصدق على القادر أنه بعد ما خلقه وما أخرجه بعد من العدم إلى الوجود ولكنه سيخلقه بعد ذلك ، وعند دخول المقدور في الوجود يصدق عليه أنه خلقه وأخرجه من العدم إلى الوجود ، فثبت أن المفهوم من الخلق لا يتقدر إلا عند وجود المخلوق ، فإذا كان الخلق قديماً لزم أن يكون المخلوق قديماً وهو محال لأن القدم نفي الأولية والمخلوقية إثبات الأولية والجمع بينهما محال .

الثاني : أن الخلق إذا كان صفة قديمة أزلية أبدية كان من لوازم الذات ، فالذات مستلزمة لصفة الخلق وصفة الخلق مستلزمة لوجود المخلوق ولازم اللازم لازم ، فإذاً وجود المخلوق من لوازم ذات الله تعالى بغير إختياره فلا يكون الله تعالى فاعلاً مختاراً بل موجباً بالذات وذلك صريح قول الفلاسفة وهو هدم الاسلام . فهذا منتهى البحث في هذه المسألة وهو بحث عميق .

والجواب : أن كون الشيء مؤثراً في غيره وإن كان مفهوماً مغايراً لذات الأثر وذات المؤثر ولكن لا وجود له خارج الذهن والدليل عليه أن المفهوم من كون الشيء لازماً للشيء وملزوماً له وحالاً فيه ومحلاً له مغاير لذات ذلك الشيء ، ثم هذا الزائد زائد لا وجود له في الأعيان وإلا لزم التسلسل ، وهذا الالزام أيضاً وارد في كون الأشياء متغايرة ومتماثلة ومختلفة ومتضادة وواجبة وممكنة وممتنعة فإن هذه الاعتبارات متغايرة في الأذهان مع أنه لا وجود لها في الأعيان ، فكذا ههنا . فهذا ما يليق بهذا الموضع ، ولنا في إشكالات زائدة ذكرناها في الكتب المبسوطة نرجو من فضل الله تعالى أن يوفقنا للبلوغ إلى الغاية فيها .

التقسيم الثالث : قال بعض المتكلمين صفات الله منها واجبة ومنها ممتنعة ومنها جائزة ، والصفات الواجبة منها ذاتية ومنها معنوية على ما شرحناها ، وأما الممتنعة فكقولنا : يمتنع كون الله جسماً وجوهراً ، ولقائل أن

يقول : صفات الله تعالى هي سلب هذه الأمور وسلب هذه الأمور عن الله واجب لا ممتنع . قالوا : وأما الجائزة فهي كون الله تعالى مرئياً . ولقائل أن يقول : المراد من كونه مرئياً إن كان كونه بحيث يصح أن يُرى فهذه الصحة صفة واجبة الثبوت لذات الله تعالى وإن كان المراد كونه مرئياً فليس المرئي لكونه مرئياً صفة ، كما أنه ليس المعلوم لكونه معلوماً صفة ، وإلا لزم حدوث الحوادث في ذات الله تعالى وهو محال .

الفصل السادس

فيما يدل على فضل ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته

ويدل عليه القرآن والأخبار والعقول ، أما القرآن فآيات إحداها قوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[1] واعلم أنه تعالى وصف أسماءه بالحسنى في أربع آيات أولها قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾[2] والثانية قوله تعالى في آخر سورة الاسراء : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[3] والثالثة قوله في طه ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[4] والرابعة قوله في سورة الحشر : ﴿ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ﴾[5] . واعلم أن الحسنى تأنيث الأحسن كالكبرى والصغرى .

وفي وصف الأسماء بالحسنى وجوه . الأول أنها دالة على معان حسنة لأن أكمل الصفات وأجلها وأعلاها هي صفات الله تعالى ، والثاني : المراد بالأسماء ها هنا الأوصاف الحسنة وهي الوصف بالوحدانية والجلال والعزة

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .
(٢) الأعراف : ١٨٠ .
(٣) الاسراء : ١١٠ .
(٤) طه : ٨ .
(٥) الحشر : ٢٤ .

والاحسان وإنتفاء شبه الخلق ، وأما قوله : ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾[1] فاعلم أن الالحاد في اللغة هو الزيغ والميل والذهاب عن سنن الصواب ، ومنه يسمى الملحد ملحداً لأنه مال عن طريق الحق ، ومنه اللحد في القبر ، إذا عرفت هذا فنقول الالحاد في أسماء الله تعالى يحتمل وجوهاً .

الأول : أن يوصف بما لا يجوز وصفه به كقول النصارى إنه جوهر وإنه أب المسيح ، وقول الكرامية إنه جسم ، أو يسلب عنه ما كان ثابتاً له كقول المعتزلة ليس لله علم وقدرة وحياة ، مع أنه أثبت العلم لنفسه في قوله : ﴿ أنزله بعلمه ﴾[2] ﴿ ولا تضع إلا بعلمه ﴾[3] ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾[4] ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾[5] .

والثاني : أن الالحاد في أسمائه مثل تسمية الأصنام بالآلهة .واشتقاقهم اللات من الله والعزى من العزيز ، ومن الآيات الدالة على فضل الذكر قوله ﴿ اذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾[6] كلفنا في هذه الآية بأمرين الذكر والشكر فقدم الذكر على الشكر لأن الذكر اشتغال به والشكر اشتغال بنعمته ، واعلم أن الذكر على ثلاثة أقسام : ذكر باللسان وبالقلب وبالجوارح ، فأما الذكر باللسان فهي الألفاظ الدالة على التحميد والتسبيح ، وأما الذكر بالقلب فعلى ثلاثة أنواع أحدها أن يتفكر الانسان في دلائل الذات والصفات . وثانيها : أن يتفكر الانسان في دلائل التكاليف من الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ويجتهد حتى يقف على حكمها وأسرارها ، وحينئذ يسهل عليه فعل الطاعات وترك المحظورات . وثالثها أن يتفكر الانسان في أسرار مخلوقات الله تعالى حتى تصير كل ذرة من تلك الذرات كالمرآة المجلوة

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .
(٢) النساء : ١٦٦ .
(٣) فاطر : ١١ .
(٤) لقمان : ٣٤ .
(٥) البقرة : ٢٥٥ .
(٦) البقرة : ١٥٢ .

المحاذية لعالم الغيب ، فإذا نظر العبد بعين عقله إليها وقع شعاع بصره الروحاني منها على عالم الجلال ، وهذا مقام لا غاية له وبحر لا ساحل له .
وأما ذكر الله تعالى بالجوارح فهي أن تصير الجوارح مستغرقة في الطاعات وخالية عن المنهيات وبهذا التفسير سمى الله تعالى الصلاة ذكراً فقال : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾[1] إذا عرفت ما ذكرناه علمت أن قوله تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ يتضمن الأمر بجميع الطاعات ، فأما قوله ﴿ أذكركم ﴾ فلا بد من حمله على إعطاء جميع الكرامات والخيرات ، فأولها الثواب الذي هو الغاية القصوى في طلب أرباب الشريعة ، ثم التعظيم الذي هو الغاية القصوى لطلب أرباب الطريقة ، ثم الرضوان الذي هو الغاية القصوى لطلب أرباب الحقيقة . وقوله في آخر سورة البقرة ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾[2] إشارة إلى هذه المراتب ، وقوله في آخر الواقعة ﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾[3] إشارة إليها .

واعلم أن الناس ذكروا عبارات في تفسير هذه الآية (١) اذكروني بالنعمة اذكركم بالرحمة (٢) اذكروني بالدعاء أذكركم بإعطاء الآلاء والنعماء، دليله قوله ﴿ادعوني استجب لكم﴾[4] (٣) اذكروني في الدنيا اذكركم في العقبي (٤) اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات (٥) اذكروني في الرخاء أذكركم في وقت الرجاء (٦) اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي (٧) اذكروني بالصدق والاخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص (٨) اذكروني بالربوبية في الفاتحة أذكركم بالرحمة والمعونة في الخاتمة (٩) اذكروني بالخوف والرجاء أذكركم بالأمن والعطاء (١٠) اذكروني بالصدق أذكركم بالرفق (١١) اذكروني بالتوبة أذكركم بغسل الحوبة (١٢) اذكروني بالانابة أذكركم بالاجابة (١٣) اذكروني بالندامة واشكروا لي بالسلامة أذكركم بالكرامة يوم القيامة وأحلكم

---

(١) الجمعة : ٩ .
(٢) البقرة : ٢٨٦ .
(٣) الواقعة : ٨٩ .
(٤) غافر : ٦٠ .

دار المقامة . (١٤) اذكروني بالمجاهدة أذكركم بالهداية لقوله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[١] (١٥) اذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة لقوله تعالى : ﴿ ولئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[٢] (١٦) اذكروني بالصبر أذكركم بأوفى الأجر لقوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٣] (١٧) اذكروني بالتوكل أذكركم بالكفاية لقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[٤] (١٨) اذكروني بالاحسان أذكركم بالرحمة لقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[٥] (١٩) اذكروني بالاستغفارْ أذكركم بالمغفرة لقوله تعالى : ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[٦] (٢٠) اذكروني بمعرفتي أذكركم بمغفرتي (٢١) اذكروني بالتذلل أذكركم بالتطول (٢٢) اذكروني في السراء أذكركم في الضراء (٢٣) اذكروني بالطاعة أذكركم عند الساعة .

واعلم أنه تعالى لما أمر بالذكر في هذه الآية بيّن في سائر الآيات كيفية الذكر . منها أن يكون الذكر كثيراً فقال : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[٧] فختم أفعال الخير بالذكر وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾[٨] روى عبد الله بن بشر المازني قال «جاء رجل إعرابي إلى النبي ﷺ فقال أي الناس أفضل فقال ﷺ طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ، فقال يا رسول الله أي الأعمال أفضل فقال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله » .

وثانيها : أنه تعالى بين كيفية الذكر فقال ﴿ الذين يذكرون الله قياماً

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .
(٢) إبراهيم : ٧ .
(٣) الزمر : ١٠ .
(٤) الطلاق : ٣ .
(٥) الأعراف : ٥٦ .
(٦) النساء : ١١٠ .
(٧) الأحزاب : ٣٥ .
(٨) الأحزاب : ٤١ .

وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾[1] أي في الليل والنهار والبر والبحر والسفر والحضر والغنى والفقر والصحة والمرض فلم يبق لابن آدم حال رابعة . وقال أيضاً : ﴿ فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾[2] قال بعض المحققين إن الله تعالى لم يفرض على أحد من عباده فريضة إلا جعل الله له حداً معلوماً تنتهي إليه ، وعذر أهلها في سائر الأحوال ، إلا الذكر فإنه لم يجعل له حداً معلوماً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا من كان مغلوباً على عقله .

وثالثها : قال ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾[3] والعلماء ذكروا في هذا التشبيه وجوهاً الأول : كأنه يقول علمت من تقصيركم أنكم لا تذكروني كذكركم أولادكم فاذكروني كذكركم اباءكم . الثاني : إن ذكر الانسان أباه يكون بالتعظيم وذكر الولد يكون بالشفقة ، واللائق بحضرة الله هو التعظيم لا الشفقة . الثالث : أنت جئت من الأب في الظاهر ومن قدرتي في الحقيقة فأنت تحبني كما تحب أباك وأنا أحبك كما يحب الولد وإن كنت منزهاً عن الصاحبة والولد . الرابع : اذكروا الله كذكركم آباءكم أي بالوحدانية ، لأن الابن لو نسب إلى غير الوالدين لاستنكف وتأبى ، فلا تجعل لنفسك آلهة كثيرة واستح من إثبات الشركاء . والخامس : تذكر أباك للاستعانة به في المهمات ، فاذكروني كما يذكر الطفل أباه عند نزول المهمات . السادس : قال ابن عباس إذا ذُكر أبوك بسوء تغضب ، فكذا إذا ذكر الله بسوء يجب أن تغضب. السابع : أول ما يتكلم الصبي بقوله يا أبي فكذا يجب أن يكون ذكر الله تعالى في أول كلامك. الثامن: أنك تكون أبداً رطب اللسان بمناقب الأب ، فكذلك يجب أن تكون أبداً رطب اللسان بتسبيح الله تعالى وتمجيده .

ورابعها : ذكر في آيات أخرى حكمة الذكر وهي من وجهين أحدهما

---

(١) آل عمران : ١٩١ .
(٢) النساء : ١٠٣ .
(٣) البقرة : ٢٠٠ .

قوله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] وفي تفسير هذه الآية وجهان أحدهما أن ما سوى الحق ممكن لذاته والممكن لذاته يحتاج إلى غيره فالممكن لذاته واقف عند نفسه بل واقف بغيره ولغيره ، فلا جرم ما دمت تنظر إلى الممكن من حيث هو هو إمتنع وقوفك ، أما الواجب لذاته فإنه مقطع الحاجات فامتنع الانتقال منه إلى غيره ، فالطلبات تنقطع عند فضله والحاجات تزول عند التعلق به ، فلهذا قال ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾. الثاني : أن وجهات حاجات العبد غير متناهية والمخلوقات متناهية والمتناهى لا نسبة له إلى غير المتناهى ، فإذاً حاجة العبد لا تزول بمجموع المخلوقات ، بل لا بد في مقابلة حاجاته التي لا نهاية لها من كرم وقدرة لا نهاية لهما وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى ، فلهذا قال ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾.

الحكمة الثانية للذكر : قوله تعالى ﴿ إن الذين إتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[2] ففائدة الذكر إزالة الظلمة البشرية ، وذلك لأن ما سوى الحق ممكن لذاته والممكن لذاته إذا ترك من حيث هو هو بقي على العدم والعدم منبع الظلمة ، فكل ما سوى الله مظلم في ذاته ، والحق واجب الوجود لذاته ، فحضرته منبع الأنوار ، فلا جرم كان الاشتغال بحضرة القدس وجناب الجلال يفيد وصول أنوار عالم الربوبية إلى باطن القلب فتزول ظلمات البشرية عن القلب والروح .

واعلم أنه تعالى كما بيّن منافع الذكر بيّن أيضاً مفاسد الاعراض عن الذكر وهي أمور أربعة . الأول : قوله ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾[3] وهذه الآيات صريحة في أن ذكر الله بالنسبة إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى الحدقة

---

(١) الرعد : ٢٨ .
(٢) الأعراف : ٢٧ .
(٣) طه : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

المعروفة ، والثاني قال ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾(١) . وتحقيقه أن الشهوة والغضب والوهم والخيال كلها تدعو الانسان إلى الاشتغال بالجسمانيات وذلك ضد الاشتغال بخدمة الله تعالى ، والشيء كلما كان إلى أحد الضدين أقرب كان عن الضد الآخر أبعد ، فهذه القوى لما كانت داعية إلى الجسمانيات والقرب من الجسمانيات بعد عن الروحانيات فهذا البعد هو المعنيُّ من قوله : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ الثالث قوله تعالى ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾(٢) الرابع قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾(٣) . ومما يدل على أن الذكر في غاية الشرف أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرح علو درجة الملائكة في مقام العبودية مدحهم بالذكر فقال ﴿ استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾(٤) وقال تعالى ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾(٥) وقال أيضاً ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾(٦) وقال ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ﴾(٧) وقال ﴿ ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾(٨) هذا في حق الملائكة ، وأما في حق البشر فقال ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾(٩) وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك

---

(١) الزخرف : ٣٦ .
(٢) الجن : ١٧ .
(٣) المنافقون : ٩ .
(٤) فصلت : ٣٨ .
(٥) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ .
(٦) الأعراف : ٢٠٦ .
(٧) الزمر : ٧٥ .
(٨) غافر : ٧ .
(٩) النور : ٣٦ ، ٣٧ .

بالعشي والإبكار ﴾[1] وتمام الكلام في آيات التسبيح وفوائدها مذكور في أسرار التنزيل .

وأما الآثار[2] فأحدها ما روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنهم قال قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه ، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » وثانيها : قال عليه الصلاة والسلام « إذا ذكر العبد ربه كتب الله له ذلك في صحيفته ثم يعارض الملائكة يوم الخميس فيريهم الله ذكر عبده له بقلبه ، فتقول الملائكة ربنا كل عمل هذا العبد أحصيناه أما هذا فلا نعرفه ، فيقول الله تعالى إن عبدي ذكرني بقلبه فأثبته في صحيفته » فذلك قوله تعالى ﴿ إنّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[3] وثالثها قوله عليه الصلاة والسلام « ذكر الله علم الايمان وحصن من الشيطان وبراءة من النفاق وحرز من النار » ورابعها قوله عليه الصلاة والسلام « ما من عبد يضع جنبه على الفراش ويذكر الله إلا كتب ذاكراً إلى أن يستيقظ » وخامسها روى عن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « يا رب وددت أن أعلم من تحب من عبادك فأحبه ، فقال إذا رأيت عبدي يكثر ذكري فأنا أحبه ، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني فأنا أبغضه » وسادسها : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « سبق المفـردون ، قيل ومن المفـردون قال المشتهرون بذكر الله يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً ». وسابعها : عن أبي الدرداء عن النبي عليه الصلاة والسلام « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها وأرضاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم قالوا بلى وما ذاك يا نبي الله قال ذكر الله » وثامنها : قال عليه الصلاة والسلام « من عجز عن الليل أن يكابده وعن المال أن ينفقه وعن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله » . وتاسعها : روي

---

(١) غافر : ٥٥ .

(٢) هكذا في الأصل . وربما كان الأصح أن يقول : وأما السنة . لأنه سيذكر الآثار بعد قليل .

(٣) الجاثية : ٢٩ .

أن موسى عليه السلام قال يا رب كيف يمكنني أن أعرف من أحببت ممن أبغضت ؟ قال يا موسى إذا أحببت عبداً جعلت فيه علامتين قال يا رب وما هما ؟ قال ألهمته ذكرى لكي أذكره في ملكوت السماء ، وعصمته من محارمي لئلا يحل عليه عقابي وسخطي . وعاشرها : عن عبد الله بن بشر المازني قال « جاء اعرابي إلى النبي ﷺ فقال أي الناس خير ؟ فقال طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ، فقال يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فقال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله ».

وأما الآثار فأحدها قال كعب : نجد في كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم السلام أن الله تعالى يقول : من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين . قلت : والبرهان العقلي يصدق ذلك وبيانه من وجهين : الأول : أن من كان مشغولاً بذكر الله فقد أعطى الاستغراق في معرفة الله تعالى والاعراض عن غير الله تعالى ، ومن كان مشغولاً بالسؤال أعطى استغراقاً في حب غير الله والاعراض عن الله ، ولا شك أنه لا نسبة للأول إلى الثاني ، الوجه الثاني : أن الخليل عليه الصلاة والسلام كانت له حالتان حالة البداية وحالة النهاية ، أما حالة البداية فهي أنه لما أراد السؤال قدم الثناء على السؤال فقال : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ﴾[1] فهذه الأربعة كلها ثناء على الله ، ثم مزج السؤال بالثناء فقال ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾[2] ثم صرح بعده بالسؤال فقال ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾[3] ولما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك وكان النبي ﷺ مأموراً بمتابعته في قوله ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾[4] لا جرم أنزل الله تعالى سورة الفاتحة على هذا الترتيب ، وذلك لأن هذه السورة هي معراج المتعبدين فقال ﴿ الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم

---

(١) الشعراء : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .
(٢) الشعراء : ٨٢ .
(٣) الشعراء : ٨٣ .
(٤) النحل : ١٢٣ .

الدين ﴾[1] وهذا كله ثناء محض ثم قال ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[2] وهذا كله ثناء ممزوج بالسؤال ثم قال : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾[3] إلى آخر السورة ، وهو سؤال محض ، فهذا هو الاشارة إلى بداية حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وأما نهاية حاله فاعلم أنه قد اقتصر على الذكر وترك الطلب إلا على سبيل الرمز ، فقال حين رمي في المنجنيق إلى النار حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فهذا نهاية حال الخليل عليه الصلاة والسلام . وأما الحبيب صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه جعل نهاية إبراهيم عليه الصلاة والسلام بَداية لحالة نفسه فقال : ﴿ أعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ﴾ وفي هذه الكلمات مباحثات . أحدها : أن الألفاظ الثلاثة الأول أثنية ممزوجة بالطلب ، ومتى كان الانسان في مقام الطلب كان مشغولاً بنفسه ، فعزل نفسه وانقطع نظره عن نفسه فقال « لا أحصي ثناء عليك » ثم لما صار فانياً عما سوى الله وصار باقياً في الله قال « أنت كما أثنيت على نفسك » . وثانيها : قال بعضهم إنه عليه الصلاة والسلام إنما ذكر هذه الكلمات ليلة المعراج بين الجنة والنار فقال لا التفت إلى الجنة فإنها لو كانت نافعة بنفسها لم يقع لآدم فيها زلة ، ولا التفت إلى النار إذ لو كانت محرقة بذاتها لما صارت برداً وسلاماً على إبراهيم ، ولكن أترك جنتك وأتمسك بعفوك وأترك النار وأخاف عقابك . بالفارسية :

سوزندة آتش نيست خشم تو أست
نوازندة بهشت نيست رضاي تو أست
أكربر ضادر آتش أفكني بوستاد كردد
واكر بخشم ببهشت أفكني زندان شود
فلما أحس أن الجنة قائمة برضا المولى ، وأن النار

---

(1) الفاتحة : ٢ ، ٣ ، ٤ .
(2) الفاتحة : ٥ .
(3) الفاتحة : ٦ .

قائمة بسخط المولى ، أعرض عن الجنة والنار ورجع إلى صفة الملك الجبار ، ثم وقع في قلبه أنه كما أن قيام الجنة برضاه وقيام النار بسخطه ، فكذلك الرضا والسخط صفتان والصفة قيامها وقوامها بالموصوف ، فترقى عن الصفة إلى الموصوف فقال : « أعوذ بك منك » وفيه لطائف . الأولى : معناه لو كان ها هنا غيرك لاستعذت به خوفاً منك لكنه ليس في الوجود إلا أنت فلا استعذت منك إلا بك . الثانية : أن الشكاية على ثلاثة أوجه : الشكاية من الحبيب إلى غير الحبيب وذلك يقتضي البراءة من الحبيب والشكاية من غير الحبيب إلى الحبيب وهي تقتضي التشريك في المحبة ، أما الشكاية من الحبيب إلى الحبيب فهو عين التفريد والتوحيد ، ثم هذه الشكاية ظاهرها شكاية وباطنها شكر ؛ لأن معنى هذه الشكاية أنه ليس لي بد منك وليس لي أحد سواك ، ولهذا قال أيوب عليه الصلاة والسلام ﴿ أني مسنى الضر ﴾[1] ثم إن الحق سبحانه قال ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد ﴾[2] كأنه قيل إن كان قد شكا منا إلى غيرنا صار هذا قدحاً في كونه صابراً لكنه شكا منا إلينا فبقى صابراً كما كان ، فإنه لم يقل يا أيها الناس إني مسنى الضر ، بل نادى ربه أني مسنى الضر ، فعرض عجزه على قدرة مولاه وذله على عزته وحاجته على عناء ، والثالث : قال أعوذ بك منك ، والباء حرف الوصل ومن لابتداء الحركة والانفصال ، فكأنه عليه الصلاة والسلام استعاذ بالوصال عن الفراق ، وصار التقدير منهما إن عذبتني فلا تعذبني بذل الفراق .

ثم إنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر هذه الكلمات فكأنه قيل له هذه الأثنية وإن كانت عالية الدرجة لكنها غير **لائقة** بك من وجوه . الأول : إن كلها يدل على طلب حصة النفس . والثاني : إنه إن كان التقدير هو الوصال فأي فائدة في السؤال ، وإن كان التقدير هو الفراق فأي فائدة لهذا السؤال ؟! والثالث إنا عصمناك قبل وجودك عن ذل الفراق والحجاب فلما عصمناك من هذه المحنة قبل السؤال فما فائدة هذا السؤال ، فعند هذا قال لا **أحصي** ثناء

---

(١) الأنبياء : ٨٣ .

(٢) ص : ٤٤ .

عليك ، وهذا إعتراف بأن علم الخلق في حضرته جهل وقدرتهم عجز وفصاحتهم : عيّ ، وكأنه قيل له مرة أخرى أنت في المقام الأول كنت مشتغلاً بقدرتك على الاستعاذة وفي هذا المقام صرت مشتغلاً بعجزك عن الاستعاذة ، فأنت في الحالين مشغول بصفاتك .

وما لم ينقطع نظر الرجل عما سوى الله تعالى لا يصل إلى الله تعالى ، فعند هذا قال ﴿ أنت كما أثنيت على نفسك ﴾ فقوله ﴿ **لا أحصي** ﴾ **نفي** وقوله ﴿ أنت كما أثنيت على نفسك ﴾ إثبات ، وهذا الأمر لا يتم إلا بالنفي والاثبات ، ثم عبر عن ذلك النفي بكلمة « لا » وعن ذلك الاثبات بكلمة « إلا » فصار المجموع قوله ﴿ لا إله إلا الله ﴾ فصار هذا معراجاً لعامة العالمين ، كما أن الأول معراج لسيد المرسلين . ولنرجع إلى الآثار الدالة على فضيلة الذكر .

الثاني : قال الضحاك بن قيس : اذكره في الرخاء يذكرك في الشدة ، فإن يونس عليه السلام لما ذكره حين وقع في البلاء صار سجنه مفتوحاً وذكره مقبولاً لأجل أنه كان ذاكراً قبل زمان البلاء ، بدليل قوله سبحانه وتعالى ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾[(١)] وأما فرعون فإنه ما ذكره إلا عند نزول البلاء وهو وقت الغرق ، فلا جرم ما صار مقبولاً بدليل قوله ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[(٢)] .

الثالث : قال بعض المشايخ للذكر خواص أربع . أحدها : الدوام ، قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾[(٣)] . والثاني كونه كبيراً قال الله تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[(٤)] . والثالث الذكر بالذكر قال الله تعالى ﴿ اذكروني أذكركم ﴾[(٥)] والرابع كثرته قال الله تعالى ﴿ والذاكرين الله كثيراً ﴾[(٦)] .

---

(١) الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٢) يونس : ٩١ .
(٣) آل عمران : ١٩١ .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .
(٥) البقرة : ١٥٢ .
(٦) الأحزاب : ٣٥ .

قال بعضهم : إن الله تعالى سمي أربعة أشياء أكبر : الجنة قال ﴿ والآخرة أكبر درجات ﴾[١] والعذاب قال تعالى ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر ﴾[٢] والرضوان قال تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[٣] والذكر قال تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[٤] ثم نقول الجنة والنار من أفعال الله تعالى ، والرضوان والذكر من صفات الله ، ولا شك أن صفة الله تعالى تكون أعظم من فعله وخلقه .

الخامس : علق أربعة بأربعة الوفاء بالوفاء ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾[٥] . والفسحة بالفسحة ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾[٦] والمحبة بالمحبة ﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[٧] والذكر بالذكر ﴿ اذكروني أذكركم ﴾[٨] .

السادس : قيل الذكر على سبعة أنواع ، ذكر العينين بالبكاء ، وذكر الأذنين بالاصغاء ، وذكر اللسان بالحمد والثناء ، وذكر اليدين بالبذل والعطاء ، وذكر البدن بالجهد والوفاء ، وذكر القلب بالخوف والرجاء ، وذكر الروح بالتسليم والرضاء .

السابع : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الذكر بين الذكرين ، والاسلام بين السيفين ، والذنب بين فرضين . تفسيره أنه لا يقدر العبد على ذكر الله تعالى ما لم يذكره الله تعالى بالتوفيق عليه . ثم العبد إذا ذكر الرب تعالى فالرب تعالى يذكره مرة أخرى بالمغفرة ، وقوله الاسلام بين السيفين أي يقاتل الكافر حتى يسلم فإذا أسلم وأراد أن يرجع عن الاسلام خوف بالقتل ، وقوله والذنب بين فرضين أي فرض عليك أن لا تذنب فإذا أذنبت فرض عليك

---

(١) الاسراء : ٢١ .
(٢) الزمر : ٢٦ .
(٣) التوبة : ٧٢ .
(٤) العنكبوت : ٤٥ .
(٥) البقرة : ٤٠ .
(٦) المجادلة : ١١ .
(٧) آل عمران : ٣١ .
(٨) البقرة : ١٥٢ .

أن تتوب ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾[١] .

الثامن : قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كفى بي عزا أن أكون لك عبداً وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً ، إلهي وجدتك إلهاً كما أردت فاجعلني عبداً كما أردت ، ومن مناجاة يحيى بن معاذ الرازي : هذا سروري بك في دار الغربة فكيف سروري بك في دار القربة ، هذا سروري بك في دار الخدمة فكيف سروري بك في دار النعمة ، إلهي لا يطيب الليل إلا بمناجاتك وطاعتك ، ولا النهار إلا بالمواظبة على خدمتك وعبوديتك ، ولا الدنيا إلا بذكرك ، ولا الآخرة إلا ببرك . إلهي كيف أحزن وقد عرفتك ، وكيف لا أحزن وقد عصيتك ، إلهي كيف أدعوك وأنا الخاطىء اللئيم ، وكيف لا أدعوك وأنت الرحيم الكريم .

التاسع : قيل حق على الانسان أن لا يفتخر إلا بربه فإن بعض الناس يفتخرون بعبيد أمثالهم ، فيقول أنا عبد فلان وصاحب فلان وصاحب دوابه ومتعهد لعياله ، ثم يوم القيامة يفر بعضهم من بعض كما قال تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين إتبعوا ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[٣] ولكن أيها المسكين كن مواظباً على ذكر الله تعالى ، فإن كل أحد يوم القيامة يقول نفسي نفسي ، والجنة تقول أهلي أهلي ،والنار تقول حقي حقي ، والعبد يقول ربي ربي ، والرب يقول عبدي عبدي .

العاشر : قال بعضهم : الناس يقولون الخباز لا يبيع الخبز بمجرد الكلام ، والمولى يقول أنا لا أبيع الفردوس إلا بمجرد الكلام والدليل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ﴾[٤] وقال تعالى ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[٥] .

---

(١) التحريم : ٨ .
(٢) البقرة : ١٦٦ .
(٣) الزخرف : ٣٦ .
(٤) الكلمتان « سبحان الله والحمد لله ».
(٥) الأحزاب : ٣٥ .

الشواهد العقلية في فضل الذكر

إنه تعالى خلق الانسان فركب فيه قوة عقلية ملكية ، وقوة وهمية شيطانية وقوة بهيمية شهوانية ، وقوة غضبية سبعية . ثم إن الله سبحانه ألهمه معرفة الخير والشر فقال ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾[1] وأعطاها آلات تقوى بها على إدراك المصالح والمفاسد فقال ﴿ وهديناه النجدين ﴾[2] وأقدره على الخير والشر فقال ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[3] ورفع عنه الحرج فقال ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[4] وما كلفه إلا بقدر الوسع فقال ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[5] وما كلفه ما لا طاقة له به فقال ﴿ ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾[6] وإنما فعل كل ذلك إبتلاء وإمتحاناً كما قال ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾[7] وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾[8] ثم عم هذا الحكم في حق الكل فقال ﴿ وما خلقت الجنّ والانس إلا ليعبدون ﴾[9] ثم بين كيفية ذلك التكليف فقال ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾[10] إلا أنه سبحانه لما خلق الانسان محتاجاً إلى التصرف في أمور معاشه ومصالح حياته غير قادر على المواظبة على العبادات في جميع الأوقات ، فلا جرم ألزمه وظائف العبادات في أوقات مخصوصة على وجه التخفيف والسهولة كما قال تعالى ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً ﴾[11] وقال ﴿ ويريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[12] .

---

(١) الشمس : ٨ .
(٢) البلد : ١٠ .
(٣) الكهف : ٢٩ .
(٤) الحج : ٧٨ .
(٥) البقرة : ٢٨٦ .
(٦) البقرة : ٢٨٦ .
(٧) الانسان : ٢ .
(٨) محمد : ٣١ .
(٩) الذاريات : ٥٦ .
(١٠) البينة : ٥ .
(١١) النساء : ٢٨ .
(١٢) البقرة : ١٨٥ .

ثم إنه سبحانه جعل بدن الانسان مقسوماً ثلاثة أقسام . أحدها : قلبه الذي هو رئيس جوارحه وملكها وهو محل العقل والفهم . والثاني : لسانه الذي يتلو القلب في الرياسة ، وجعل آلة العبارة عما في الضمير ، والثالث : سائر الأعضاء ، فإذا تعاونت هذه الأعضاء الثلاثة على فعل واحد تم ذلك الفعل وكمل وبلغ مبلغه العظيم في الكمال والقوة ، فجعل سبحانه لكل واحد من هذه الأمور الثلاثة نوعاً معيناً من الطاعة والعبادة يليق به ، فجعل الفكر للقلب ، والذكر للسان ، والسكنات والحركات للأعضاء والجوارح ، ومدح هذه الأقسام الثلاثة في محكم تنزيله . أما الفكر فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾[1] وأما مدح الذكر فالآيات التي تلوناها قبل ذلك ، وأما مدح أعمال الجوارح والأعضاء ففي آيات منها قوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[2] وقال ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾[3] وقال ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ - إلى آخر الآيات[4] وكل ذلك في بيان فضل أعمال الجوارح والأعضاء ، وظهر من مجموع ما ذكرنا فضيلة الذكر .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .
(٢) الأحزاب : ١١١ .
(٣) السجدة : ١٦ .
(٤) المؤمنون : ٢ ، ٣ .

الفصل السابع

في كمال بيان أن الفكر أفضل أم الذكر

اعلم أن الفكر أصل والذكر ثمرته ، وكل واحد منهما أفضل من الآخر من وجه دون وجه ، وقد اختلفوا فيه ؛ فمن العلماء من قال الفكر أفضل واحتج عليه بوجوه .

الحجة الأولى : الفكر عمل القلب والروح ، والذكر عمل اللسان ، والقلب والروح أفضل من الجسم ، فالفكر أفضل من الذكر .

الحجة الثانية : ضد الفكر هو الجهل ، والجاهل بالله كافر ، وقد يحصل الفوز برحمة الله بدون الذكر ، فإن من عرف الله بالدليل ولم يجد مهلة للذكر كان من أهل الجنة ، بل الانسان قد يبلغ في آخر الأمر إلى حيث يكون ترك الذكر له أفضل ، قال عليه الصلاة والسلام : « من عرف الله كل لسانه » .

الحجة الثالثة : من كان ناطق العقل أبكم اللسان كان من الفائزين ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « إن سين بلال عند الله شين » ، أما من كان ناطق اللسان أبكم العقل كان من المنافقين ، فالفكر أفضل من الذكر .

الحجة الرابعة : ترك الفكر كفر وترك الذكر معصية والكفر أقبح من المعصية ، فكان الفكر أفضل .

الحجة الخامسة : قوله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى

جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾[1] فجعل الذكر فاتحة درجات الصديقين حيث قال ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ﴾ وجعل الفكر خاتمة أمرهم حيث قال ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ والغاية في كل شيء أفضل من المبدأ ، فالفكر أفضل من الذكر .

الحجة السادسة : الذكر طاعة عظيمة ومع كونها طاعة عظيمة فهي وسيلة إلى المعرفة التي هي أعظم الطاعات ، إذ لولا الفكر لما تميز الحق عن الباطل ، والذكر وإن كان في نفسه عبادة لكنه ليس وسيلة إلى عبادة أخرى ، فوجب أن يكون الفكر أفضل من الذكر ؛ لأن فيه طرد الشياطين واحترازاً عن الوسواس واشتغالاً بالحق واعراضاً عما سواه ، وهذه منافع في غاية الجلالة . قلنا كل ذلك في الفكر مع زيادة ما ذكرناه .

الحجة السابعة : الفكر طلب نفساني لوجدان المطلوب وهو فعل شاق ، والذكر ليس كذلك ؛ فإذا كان الفكر أشق كان أكثر ثواباً بالنص .

فإن قيل : الفكر طلب المفقود والذكر استيفاء الموجود ، والفكر يشبه علاج المرض والذكر يشبه استيفاء الصحة ، ولا شك أن الثاني أفضل .

قلنا : الفكر يفيد تحصيل الزوائد إلى ما لا نهاية له والذكر ليس كذلك .

الحجة الثامنة : الذكر باللسان إن لم تحصل معه المعرفة بالقلب فهو ساقط وإن حصلت المعرفة معه فتلك المعرفة لا تحصل إلا بالفكر ، فالذكر إنما يكمل بالفكر والفكر غني في كمال حاله عن الذكر ؛ فالفكر أفضل من الذكر .

الحجة التاسعة : إن صاحب الفكر أبداً يكون في الترقي من درجة إلى درجة أعلى منها ، وصاحب الذكر يكون كالواقف ، فالفكر أفضل من الذكر .

فإن قيل : صاحب الفكر وإن تزايدت درجاته إلا أنه يكون ضعيفاً في كل واحد منها لأجل أن القوة إنما تحصل بالثبات ، وأما صاحب الذكر فإنه

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

وإن كانت درجاته أقل إلا أنه يكون أكثر رسوخاً .

قلنا : التزايد الحاصل بسبب الفكر سبب للقوة والكمال ، لأن كل درجة تحصل إذا كانت مقوية لما كانت حاصلة قبل ذلك لم يزل التأكيد والتشديد في التزايد .

الحجة العاشرة : نقل أنه عليه الصلاة والسلام كان دائم الفكر ولم ينقل أنه كان دائم الذكر ؛ فالفكر أفضل .

وأما القائلون بتفضيل الذكر فقد احتجوا بوجوه .

الحجة الأولى : أهل الجنة ليس لهم فكر ولهم ذكر فوجب أن يكون الذكر أفضل من الفكر ، وإنما قلنا إن أهل الجنة ليس لهم فكر لوجوه : الأول أن المعارف في الجنة ضرورية ، الثاني أن الفكر تعب ونصب وأهل الجنة لا ينالهم فيها نصب . الثالث : أنهم إذا أرادوا العلم بشيء حصل لهم ذلك العلم لقوله تعالى ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾[1] . الرابع : أن الناظر طالب والطالب فاقد للمطلوب ، وفقدان المطلوب حجاب والحجاب صفة الكفار لا صفة المؤمنين ؛ كما قال تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ الخامس أن فقدان المطلوب يوجب الغم والله تعالى شهد أنهم ليس بهم غم ، قال تعالى حكاية عنهم ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المُقامة من فضله ﴾[2] فدل على أن أهل الجنة ليس لهم فكر ، وثبت أن لهم ذكراً ، فوجب أن يكون الذكر أفضل من الفكر .

الحجة الثانية : أن آخر مراتب النبي ﷺ في التصاعد والتزايد في المعراج هو أنه صار مأموراً بالذكر فإنه لما قال له إثن عليَّ فقال « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ولم يؤمر بالفكر ألبتة فوجب أن يكون الذكر أفضل من الفكر .

الحجة الثالثة : أن السيَّار في آخر سيره يستغني عن الفكر بل العلوم

---

(١) الأنبياء : ١٠٢ .

(٢) فاطر : ٣٤ ، ٣٥ .

تتجلى في قلبه من عالم أنوار الربوبية كما قال في خضر وموسى عليهما الصلاة والسلام ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾[1] وقال في حق محمد ﷺ ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾[2] والسيار البتة لا يستغني عن الذكر قال تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾[3] وقال لمحمد ﷺ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[4] وقال ﴿ وربك فكبر ﴾[5] وقال ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾[6] .

الحجة الرابعة : ذكر الله تعالى أن آخر مراتب أهل الجنة في تزايد درجاتهم ليس إلا الذكر فقال ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[7] وهذا يدل على أن الذكر أفضل الأعمال وإلا لم يقع الختم عليه .

الحجة الخامسة : الفكر مقام يشترك فيه الصدِّيق والزنديق والموفق والمنافق والغائب والحاضر . أما الذكر فمقام الأولياء العارفين والمقربين فوجب أن يكون الذكر أفضل من الفكر .

الحجة السادسة : الفكر لا يكون إلا في المخلوقات ، لأن الفكر انتقال من شيء إلى شيء وذلك يستدعي لا محالة منتقلاً عنه ومنتقلاً إليه ، وذلك في الواحد الحق محال . أما الذكر فلا يحصل كماله إلا في الواحد الحق لأن الذكر لا يكمل إلا إذا كان الذكر واحداً لأنه إذا كثر المذكور كان الاشتغال بذكر كل واحد مانعاً من الاشتغال بذكر الآخر . ومن وجه آخر : وهو أن الفكر لما اقتضى الانتقال من شيء إلى شيء لم يحصل فيه الرسوخ البتة ، وأما الذكر فلما كان الثبات حاصلاً فيه كان لا جرم حصل الرسوخ فيه وهوالمراد والله أعلم بقوله : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[8] .

---

(١) الكهف : ٦٥ .
(٢) النساء : ١١٣ .
(٣) طه : ١٤ .
(٤) الأعلى : ٢ .
(٥) المدثر : ٣ .
(٦) الحجر : ٩٨ .
(٧) يونس : ١٠ .
(٨) الرعد : ٢٨ .

الحجة السابعة : أن الفكر مقام الغيبة من الله ، لأن الفكر طلب ولو كان المطلوب حاضراً لامتنع طلبه ، لأن طلب الحاضر محال وأما الذكر فإنه يتناول الحاضر والغائب لأنه قد يذكر للحاضر ومقام الحضور أشرف من مقام الغيبة .

الحجة الثامنة : الفكر فيه خطر ؛ لأن حال المتفكر تشبه حال السفينة الواقفة في لجة البحر عند اضطراب الرياح والأمواج ، وذلك لأن الفكر قد يفضي إلى الشبهة وقد يفضي إلى الحجة ، ولهذا كان أصحاب الأفكار كثيراً ما يقعون في أنواع الأباطيل وأنواع الكفر والالحاد ، وأما الذكر فلا خطر فيه لأن الانسان عند الذكر يكون مستقر القلب على عبودية الله تعالى مستنير الروح بأنوار معرفته ، فالوسواس زائل عن قلبه والشبهات غير مختلطة بمعرفته والشياطين يبعدون عنه . بدليل قوله تعالى ﴿ إن الذين إتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[٢] ولذلك لا ترى أحداً من أصحاب الذكر وقع في بدعة أو ضلالة .

الحجة التاسعة : الفكر يقتضي توزع النظر وتكثر الاعتبارات فإنه ما لم ينظر في الحوادث الكثيرة لم يجد الدليل ، وأما الذكر فإنه إلى التوحيد أقرب ، لأن اللسان مشغول بالواحد والقلب متوجه إلى الواحد ، ولا شك أن أجل درجات العبودية هو التوحيد .

الحجة العاشرة قوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[٣] فإن قيل المراد أن ذكر الله للعبد أكبر . قلنا : هب أنه كذلك ولكن ذكر العبد ربه يستلزم ذكر الرب للعبد : قال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾[١] وهذا المعنى غير حاصل فوجب أن يكون الذكر أشرف .

الحجة الحادية عشرة : الترغيبات الواردة في الذكر أكثر قال الله

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .
(٢) العنكبوت : ٤٥ .
(٣) البقرة : ١٥٢ .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾[1] ولم يقل في شيء من الآيات تفكروا فكراً كثيراً ، وقال ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾[2] ولم يقل والمتفكرين والمتفكرات .

الحجة الثانية عشرة : إن الله أمر بذكره فقال ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ وقال ﴿ اذكروني أذكركم ﴾[3] ونهى عن الفكر في الله فقال عليه الصلاة والسلام « تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله » وهذا يدل على أن صاحب الذكر مشغول بالحق وصاحب الفكر مشغول بما سواه ؛ فيكون الذكر أفضل .

الحجة الثالثة عشرة : الذكر توصل بالحق إلى الحق والفكر توصل بالخلق إلى الحق ، وبعبارة أخرى الفكر ذهاب إلى الله والذكر حضور مع الله ، بعبارة أخرى : الفكر طلب من الروح والعقل للنصيب ، والذكر إعراض عن النصيب وإقبال بالكلية على الله ، وبعبارة أخرى الفكر أن يدخل في حجرة العقل ليتوصل إلى الله ، والذكر إخلاء القلب عما سوى الله تعالى حتى يستغرقه سلطان جلال الله .

الحجة الرابعة عشرة : الفكر ملاحظة غير المحبوب وهو الرحمة بالكلية ، والذكر إعراض عن غير المحبوب وهو إقبال بالكلية على المحبوب وهو ترك الرحمة بالكلية .

الحجة الخامسة عشرة : منصب النبوة أعلى المناصب وإنه لا ينال إلا بالذكر قال تعالى ﴿ قم فانذر ، وربك فكبر ﴾[4] وقال ﴿ بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾[5].

الحجة السادسة عشرة : قال الله سبحانه ﴿ الرحمن . علم القرآن .

---

(١) الأحزاب : ٤١ .
(٢) الأحزاب : ٣٥ .
(٣) البقرة : ٥٢ .
(٤) المدثر : ٣ ، ٤ .
(٥) المائدة : ٦٧ .

خلق الانسان . علمه بالبيان ﴾[1] ابتدأ في ذكر فضائل الانسان بالعلم وهو قوله : علم القرآن ، وختم فضائله بالبيان والذكر وهو قوله علمه البيان ، فكانت الفكرة والعلم كآدم عليه الصلاة والسلام ، وكان البيان كمحمد ﷺ .

الحجة السابعة عشرة : قال بعض الحكماء مراتب الادراك ثلاث . إما أن يدرك ولا يدرك أنه يدرك وهو حال النبات ، وإما أن يدرك ويدرك أنه يدرك ولكنه لا يمكنه أن يفهم غيره شيئاً وهو الحيوان ، وإما أن يدرك ويدرك أنه يدرك ويمكنه أن يفهم غيره ما أدركه وعلمه وذلك هو الانسان ، ولا شك أن كونه يفهم غيره ما علمه هو النطق والبيان فإذا النطق هو الأمر الذي به تميز الانسانية وهو فصله المقوم وصورته الذاتية ، وأما أصل الفهم فهو قدر مشترك بينه وبين غيره فثبت أن الذكر أفضل من الفكر .

الحجة الثامنة عشرة : من تفكر في صفات المدح لملك فإنه لا يستحق بذلك صلة ولا إكراماً أما من ذكرها باللسان فإنه هو يستوجب الصلة والكرامة ، والانسان إذا كان عالماً بصفات الله وأسمائه ثم لم يذكرها كان حاله قريباً من الكفر ، أما إذا ذكرها كان مستوجباً للثواب والثناء والفوز بالدرجات العالية عند الله ، فثبت أن الذكر أفضل من الفكر .

الحجة التاسعة عشرة : الذكر ظاهر والفكر خفي والعبادة الظاهرة أشرف من العبادة الخفية لأن العبادة الظاهرة قد تصير مرغبة في أن يقتدي بها ويأتي بها أو بمثلها . فإن قالوا : العبادة الظاهرة قد يشوبها الرياء والخفية ليست كذلك . قلنا : هذه الحالة إنما تكون في حق المبتدئين ، أما في حق أولياء الله تعالى فالعبادة الظاهرة في حقهم أفضل .

الحجة العشرون : الفكر إنما يكون في الدليل ليتوصل منه إلى المدلول ، والفكر في الدليل اشتغال بالدليل ، وقال الله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[2] فهذا يقتضي الفرار عن كل ما سوى الله تعالى

---

(١) الرحمن : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٢) الأنعام : ٩١ .

فيدخل فيه الاعراض عن الدليل . وقال تعالى ﴿ ففروا إلى الله ﴾[1] وهذا يقتضي الفرار عن كل ما سوى الله فيدخل فيه الدليل ، وقال تعالى ﴿ اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ﴾[2] وكل دليل فإنه لا بد فيه من مقدمتين وهما كالنعلين للعقل السيَّار إلى الله ، فمعنى الآية والله أعلم : أنك لما وصلت إلى المدلول فاترك الاشتغال بالدليل ، وأيضاً قال تعالى ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾[3] فبقدر ما يشتغل بغير الله يكون محروماً من الله ، والمفكر مشغول بالدليل فيكون محروماً عن المدلول ، وأما الذاكر فإنه مشتغل بالمدلول مقبل على معرفته معرض عماسواه ، فكان الذكر أفضل من الفكر .

الحجة الحادية والعشرون : أنه سبحانه وتعالى لما وصف المقربين من عباده وصفهم بالذكر والتسبيح أكثر مما وصفهم فقال في وصفه الملائكة ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾[4] وقال ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[5] وقال حكاية عنهم ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾[6] وحكى عن جملة الملائكة ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾[7] وحكي عن ذي النون أنه قال في الظلمات ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾[8] وقال الكليم[9] ﴿ سبحانك إني تبت إليك ﴾[10] وقال للحبيب[11] ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل

---

(١) الذاريات : ٥٠ .
(٢) طه : ١٢ .
(٣) الأحزاب : ٤ .
(٤) فصلت : ٣٨ .
(٥) الأنبياء : ١٩ ، ٢٠ .
(٦) سبأ : ٤١ .
(٧) البقرة : ٣٢ .
(٨) الأنبياء : ٨٧ .
(١٠) الأعراف : ١٤٣ .
(١١) هو نبينا محمد ﷺ .

غروبها ﴾[1] وقال له أيضاً ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[2] وقال في أول ما أنزل عليه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ﴾ [3] وحكى عن المؤمنين أنهم قالوا . ﴿ سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [4] ثم ذكر عن السموات والأرض أنها كلها مسبحة فقال ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ [5] ثم بيّن أن كل المخلوقات مسبحة خاضعة خاشعة فقال ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ [6] فهذه المبالغة العظيمة واردة في كتاب الله تعالى في تعظيم حال الذكر ، ولا رأينا مثلها في الفكر ، فعلمنا أن الذكر أفضل .

---

(١) طه : ١٣٠ .
(٢) الأعلى : ١ .
(٣) العلق : ١ ، ٢ .
(٤) آل عمران : ١٩١ .
(٥) سبأ : ١٠ .
(٦) الاسراء : ٤٤ .

الفَصل الثامن

في تفسير الخبر الوارد في فضل الأسماء التسعة والتسعين

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » هذا هو القدر المروي في الصحيح وفي سائر الروايات ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر » ثم ذكر الأسماء التسعة والتسعين على التفصيل المشهور . وفي هذا الحديث مباحث .

السؤال الأول : اعلم أنه طعن أبو زيد البلخي في هذا الحديث فقال أما الرواية المجملة التي هي أقوى الروايات فهي مدفوعة ضعيفة ، ويدل عليه أن من أعجب الأمور أن يذكر رسول الله ﷺ كلمات تشتمل على مثل هذه الفضيلة ثم لا يبين لهم تفصيل تلك الكلمات ، وذلك لأن الحديث صحيح في أن من أحصاها دخل الجنة ، ومعلوم أن رغبة الخلق في تحصيل هذا المقصود في الغاية ، ومن الممتنع أن لا يطالبوه بشرح تلك الأسماء وإذا طالبوه بها امتنع أن لا يذكرها لهم ، فدل هذا على أن هذه الرواية العارية عن تفصيل تلك الأسماء ضعيفة ـ والله أعلم .

والجواب : لم لا يجوز أن يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك المجمل ولا يبين لهم تفصيل تلك الأسماء ، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام

إذا لم يبينها لهم صار ذلك داعياً للخلق إلى المواظبة على ذكر جميع أسمائه وصفاته تعالى ، رجاء أنهم ربما فازوا بذكر تلك الأسماء التي من أحصاها دخل الجنة ، ومثاله أن الله تعالى عظم أمر الصلاة الوسطى ثم إنه أخفاها في الصلوات ، وعظم ليلة القدر ثم إنه أخفاها في ليالي رمضان ، وأخفى رضاه في الطاعات ، وأخفى سخطه في المعاصي ، وأخفى وليه فيما بين الخلق ، وأخفى وقت الموت ، وأخفى وقت القيامة . والمقصود من إخفاء هذه الأمور أن يكون الرجل آتياً بكل العبادات في كل الأوقات على سبيل التعظيم ، ومتحرزاً عن المساهلات والمسامحات في أداء الطاعات ، فجاز أن يكون الأمر في هذه الصورة أيضاً كذلك .

السؤال الثاني : قوله إن لله تسعة وتسعين اسماً ، يقتضي حصر أسمائه في هذا العدد ؛ فإن كان المراد من الأسماء الأسماء لا الصفات فهذه التسعة والتسعون كلها صفات وليس فيها شيء من الأسماء سوى قولنا : الله ، فإنهم اختلفوا هل هو اسم أو صفة ، وإن كان المراد من الأسماء لفظ كل ما يطلق في حق الله تعالى سواء كان اسماً أو صفة فهو أيضاً مشكل ، لأنا بينا بالدلائل العقلية أن صفاته غير متناهية .

الجواب : أن تخصيص العدد بالذكر ليس فيه نفي الزائد عليه ، ويحتمل أن يكون سبب التخصيص أمرين أحدهما : لعل هذه الأسماء أعظم وأجل من غيرها والثاني : أن لا يكون قوله إن لله تسعة وتسعين اسماً كلاماً تاماً ، بل يكون مجموع قوله إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة كلاماً واحداً ، وذلك بمنزلة قولك إن لزيد ألف درهم أعدها للصدقة ، وهذا لا يدل على أنه ليس له من الدراهم أكثر من الألف ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . . . . » .

السؤ ال الثالث : إنه من البعيد أن تكون الأسماء تسعة وتسعين لا يمكن جلبها مائة .

الجواب من وجوه الأول : أنه سبحانه وتعالى خصص كل صلاة بعدد وإن كنا لا نطلع على حكمة تلك المقادير ، فكذا هنا وجب على المسلم أن يعتقد في هذه التقديرات حكماً بالغة وإن كان عقله لا يصل إلى تفاصيلها ، ولنذكر من هذا الباب أمثلة :

الأول : رأينا السنة في صلاة الصبح مقدمة على الفريضة وفي صلاة العشاء مؤخرة عن الفريضة ، فالجاهل ربما يعجب من هذا والمقلد يقبل ذلك على سبيل التقليد ، والعارف يعرف بالبرهان أن هذا هو الترتيب اللائق بالحكمة وذلك لأن النوم مانع من أداء العبادة على سبيل الكمال ، فالانسان إذا قام من منامه واشتغل بأداء الصلاة بقي معه شيء من آثار النوم ، ثم إنها بعد ذلك تزول بالكلية فلهذا قدمت السنة على الفرض ، حتى إن وقع خلل بسبب بقية النوم كان ذلك الخلل واقعاً في السنة لا في الفريضة . أما في العشاء فالرجل يكون قد تعب في النهار كله فيغلبه النوم وتلك الغلبة لا تزال تتزايد عليه ساعة بعد ساعة ، فها هنا قدمت الفريضة على السنة حتى إذا وقع خلل بسبب النوم يقع في السنة لا في الفريضة .

المثال الثاني : قال الله سبحانه وتعالى في صفة الزبانية ﴿ عليهاتسعة عشر ﴾[1] والكفار يعجبون من هذا العدد المخصوص ، والعلماء ذكروا فيه وجوهاً . أحدها : أن اليوم بليلته أربع وعشرون ساعة خمس منها مشغولة بالصلوات الخمس بقيت تسع عشرة ساعة خلت عن ذكر الله فلا جرم كان عدد الزبانية بعدد هذه الساعات . وثانيها : أن أبواب جهنم سبعة قال الله تعالى ﴿ لها سبعة أبواب ﴾[2] ثم قال العلماء ستة منها للكفار وواحد للفساق ، وأركان الايمان ثلاثة : إقرار واعتقاد وعمل ، فالكفار تركوا هذه

---

(١) المدثر : ٣٠ .
(٢) الحجر : ٤٤ .

الثلاثة فلهم بسبب تركهم لهذه الثلاثة الأركان ، ثلاثة من الزبانية على كل واحد من الأبواب الستة ، فكان المجموع ثمانية عشر وأما الباب الواحد للفساق فهم قد أتوا بالاقرار والاعتقاد وما أتوا بالعمل فلم تكن زبانيتهم إلا واحداً : ، فثمانية عشر للكفار وواحد للفساق والمجموع تسعة عشر .

وثالثها : أن عدد الزبانية في الآخرة بحسب عدد القوى الجسمانية المانعة من معرفة الله خدمته للنفس الناطقة ، وتلك القوى تسع عشرة ، خمس هي الحواس الظاهرة ، وخمس أخرى هي الحواس الباطنة ، وإثنتان أخريان وهما الشهوة والغضب ، وسبع هي القوى الطبيعية وهي : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة ، فمجموع هذه القوى تسع عشرة وهي الزبانية الواقفة على باب جهنم البدن ، وعلى وفق هذه العدة زبانية جهنم الآخرة .

المثال الثالث : روي عن رسول الله ﷺ أنه قال ﴿ من قال سبحان الله فثوابه عشرة ، ومن قال الحمد لله فثوابه عشرون ، ومن قال لا إله إلا الله فثوابه ثلاثون ، ومن قال الله أكبر فثوابه أربعون ﴾ . والعلماء عرفوا أن الأمر كذلك بالبرهان العقلي ، وذلك لأنه لا ثواب أعلى وأشرف من معرفة الله والاستغراق في محبته وخدمته ؛ فإذا قال العبد سبحان الله فقد عرف الله بالتنزيه والتقديس عما لا ينبغي ، فهذه المعرفة لها قدر من السعادة والغبطة ، فإذا قال الحمد لله فقد عرف أن الحق كما أنه كامل في ذاته فهو مكمل لغيره وليس في الوجود شيء إلا ذاته ، وكذلك كل كمال يحصل لشيء سواه ، فإنما يحصل ذلك الكمال منه ومن إحسانه فهنا تضاعفت له درجة المعرفة ، فلا جرم تضاعفت درجة الثواب ، فإذا قال العبد لا إله إلا الله ، فقد عرف العبد أنه سبحانه كامل في ذاته مكمل لغيره وليس في الوجود شيء بهذه الصفة إلا هذا الموجود ، فعند هذا يشتد إفتقاره إلى رحمة الله ويكمل تعلقه بذيل إحسانه وكرمه ، فهنا صارت المعرفة ثلاثة أضعاف ما كان فلا جرم صار الثواب ثلاثة أضعاف ما كان . فإذا قال الله أكبر فهنا عرف العبد أنه وإن اطلع على نور جلاله وكبريائه فهو سبحانه أكبر وأكمل وأعظم من أن يتقد نور جلاله

وعزته بمكيال الخيال ومقياس القياس ، فهنا صارت المعرفة أربعة أضعاف ما كانت . فثبت بهذه الأمثلة أنه ليس كل ما لا يصل إليه عقل البشر وجب أن يكون ، فيجل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد وأن يطلع عليه إلا واحداً بعد واحد ، فكذا هنا تقرير هذه الأسماء بهذا العدد إنما كان بحكمة خفية استأثر بمعرفتها بها علام الغيوب .

والجواب الثاني : وهو الذي عول عليه أبو خلف محمد بن عبد الملك السلمي الطبري في كتابه في شرح أسماء الله تعالى قال : « إنما خصص الله تعالى أسماءه بهذا العدد تنبيهاً على أن أسماء الله تعالى لا تؤخذ قياساً بل لا بد فيها من التوقيف » وهذا جواب حسن .

والجواب الثالث : أن السبب في كون هذه الأسماء مائة إلا واحداً ما ذكره رسول الله ﷺ وهو أن العدد وتر والوتر أشرف من الشفع ، وإنما قلنا إن الوتر أشرف من الشفع لوجوه .

الحجة الأولى : أن الفردانية صفة للحق سبحانه وتعالى والشفعية صفة الخلق : قال الله تعالى ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾[1] وصفة الخالق أشرف من صفة الخلق .

الحجة الثانية : إن كل شفع فهو محتاج إلى الواحد وهو الوتر ، والوتر يستغني عن الشفع فإن الواحد غني عن العدد ، فثبت أن الوتر أشرف من الشفع .

الحجة الثالثة : أن الوتر يحصل فيه الشفع والوتر ؛ فإن كل عدد وتر إذا قسم بقسمين فأما أن يكون كل واحد منهما شفعاً وإما يكون كل واحد منهما وتراً والمشتمل على القسمين أشرف مما يكون مشتملاً على قسم واحد ؛ فثبت أن الوتر أشرف من الشفع .

الحجة الرابعة : أن الوتر لا يقبل القسمة على النصف والشفع يقبلها ،

---

(١) الذاريات : ٤٩ .

وقبول القسمة ضعف وعدم قبولها قوة ، فثبت أن الوتر أفضل من الشفع .

الحجة الخامسة : إن جميع الأعداد إنما تتكون من الواحد وذلك لأن الواحد إذا ضم إليه واحد آخر حصل الاثنان ، وإذا ضم إليها واحد حصل الثلاثة وهلم جرا ، فثبت أن الواحد علة لجميع الأعداد والواحد وتر ، فثبت أن الوتر علة لكل ما سواه من الأعداد .

الحجة السادسة : أن الوتر غالب على الشفع ، وذلك لأنه إذا ضم الوتر إلى الشفع كان المجموع الحاصل وتراً ، وهذا يدل على أن قوة الوتر غالبة على قوة الشفع ، والغالب أشرف ؛ فكان الوتر أشرف .

الحجة السابعة : الوحدة لازمة لجميع مراتب الأعداد ، فإن كل مرتبة من مراتب الأعداد إذا أخذت من حيث إنها هي هي ، كانت واحدة بذلك الاعتبار والواحدة وتر ، فالوترية لازمة لجميع مراتب الأعداد ، والزوجية ليست كذلك فكان الوتر أشرف ، فثبت بهذه الوجوه أن الوتر أشرف من الشفع .

السؤال الرابع : لم قال تسعة وتسعين مائة إلا واحداً وما الفائدة في هذا التكرار .

الجواب : في هذا التكرار فوائد أحدها : التأكيد كقوله تعالى ﴿ ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾[1] وقوله ﴿ لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ﴾[2] وثانيها : أن تكون فائدة ذلك أن يكون أبعد عن الخطأ وأسلم من التصحيف لأن تسعة وتسعين تشبه في الخط سبعة وسبعين وتسعة وسبعين وسبعة وتسعين[3] فأزال هذا الاشتباه بقوله مائة إلا واحداً .

السؤال الخامس : وهذا السؤال متوجه على الرواية المشتملة على تفصيل هذه الأسماء ـ قالوا هذه الرواية ضعيفة ، ويدل عليه وجوه أحدها : أن

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

(٢) النحل : ٥٤ .

(٣) المعروف أن الحروف في أول أمرها لم تكن معجمة . أي كانت خالية مما نسميه الآن بالنقط .

هذا التفصيل غير مذكور في الصحيحين والمحدثون طعنوا في رواة هذه الرواية ، فذكر أحمد والبيهقي أن في رواة هذا الحديث ضعفاً ، وذكر أبو عيسى الترمذي في مسنده شيئاً من ذلك . وثانيها : إضطراب الرواية عن أبي هريرة في هذا المعنى فإن عنه روايتين مشهورتين وبينهما تباين ظاهر . وثالثها : أن قالوا الأسماء المنقولة في هذه الرواية غير مشتملة على ذكر الرب ، والقرآن نطق به ، وكذا لفظ الشيء ولفظ الحنان والمنان ، وقد وردت الأخبار الصحيحة بذلك ، وظاهر لفظ الحديث يوهم حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد المذكور ، ورابعها : أن الترتيب واجب الرعاية في كل شيء بحسب الامكان ، وترتيب أبي هريرة رضي الله عنه غير مشتمل على الترتيب الحسن ، وذلك لأن الترتيب المعتبر في ذكر صفات الله تعالى يمكن وقوعه على وجوه :

النوع الأول : الترتيب المعتبر بحسب استحقاق الوجود ، وذلك لأن الذات أصل للصفات ، وأما الصفات ، فصفات الذات مقدمة على صفات الأفعال ، وذلك لأن صفات الذات مبدأ لصفات الأفعال والمبدأ مقدم على الأثر ، ثم إن صفات الذات بعضها شرط وبعضها مشروط والشرط مقدم على المشروط ، فالترتيب المعتبر بحسب هذا الوجه أن يبدأ بأسماء الذات ثم بأسماء الحياة ثم بأسماء العلم والقدرة وسائر الصفات ، ثم بأسماء هذه الصفات وآثارها وهي الخالق والرازق والمبدىء والمعيد ، ومعلوم أن هذا النوع من الترتيب غير حاصل في رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، بل فيه ما وقع على العكس ، فإنه ذكر المحي والمميت أولاً ثم ذكر بعده أنه الحي ، ومعلوم أن العكس أولى ، ألا ترى أنه ذكر الغني أولاً ثم أردفه بالمغني فعلى هذا القياس كان يجب أن يذكر الحي أولاً ثم يذكر بعده المحيي .

النوع الثاني من الترتيب : إن هذا بحسب معرفتنا لهذه الصفات فنقول : اختلف المتكلمون في أن أول العلم بالله ما هو ، والصحيح أن ذلك هو العلم بكونه مؤثراً في وجود المحدثات ، لأنّا إذا عرفنا أن العالم ممكن أو محدث علمنا أنه لا بد له من مؤثر ، فأول ما نعلم من الله كونه مؤثراً ، ثم

نقول المؤثر قسمان أحدهما على سبيل الايجاب والثاني على سبيل الاختبار ، والأول باطل ، وإلا لزم من قدم الله تعالى قدم العالم ، ومن حدوث العالم حدوث الله تعالى وهذان باطلان ، فثبت أن تأثير الله تعالى في وجود العالم على سبيل الاختيار ، فإذا أول ما نعلمه من الله تعالى كونه مؤثراً ثم بعد ذلك كونه قادراً ، ثم نعلم من كون أفعاله واقعة على وصف سبيل الاحكام والاتقان كونه عالماً ، ثم نعلم من تخصيص أفعاله بأوقات معينة وصفات معينة كونه مريداً ، ثم نستدل بكونه عالماً مريداً قادراً على كونه حياً ، ثم نستدل بوجود هذه الصفات على كونه منزهاً عن مشابهة الجواهر والأعراض والأجسام .

إذا عرفت هذا فنقول : الترتيب المعتبر بحسب هذا الوجه أن يبدأ بذكر صفات الأفعال مثل الخالق والباريء والمصور ، ثم يذكر بعد ذلك صفات الذات وهي القادر والمقتدر والعالم والعلام والعليم ، وكذا القول في بقية الصفات . ثم يذكر بعد ذلك الأسماء الدالة على الذات فهذا هو الترتيب الحسن بحسن هذا الاعتبار . ومعلوم أن الترتيب الوارد في رواية أبي هريرة ليس كذلك .

النوع الثالث من الترتيب : إن ما حصل من أسماء الله تعالى وصفاته على سبيل الاتفاق في كل دين وملة أحق بالتقديم من المختلف فيه وترتيب أبي هريرة رضي الله عنه ليس كذلك .

النوع الرابع : الناس اتفقوا على أن بعض أسماء الله تعالى أعظم من بعض والترتيب المعتبر بحسب هذا الوجه أن يقدم ما هو أعظم فالأعظم على الترتيب ، ورواية أبي هريرة رضي الله عنه وإن إشتملت في أولها على هذا الترتيب من حيث إنه بدأ بذكر الله تعالى ثم بالرحمن إلا أن هذا الوجه من الترتيب لم يبق مرعياً بعد ذلك . فهذه هي الوجوه المعقولة في الترتيب وأن شيئاً منها ما كان مرعياً في رواية أبي هريرة رضي الله عنه وذلك يدل على ضعف هذه الرواية .

الجواب : إن كثيراً من العلماء سلموا أن هذه الرواية المشتملة على

ذكر الأسماء ليست في غاية القوة ، إلا أن هذه الأسماء والصفات لما كان أكثرها مما نطق به القرآن والأحاديث الصحيحة ودل العقل على ثبوت مدلولاتها بأسرها في حق الله تعالى كان الأولى قبول هذا الخبر . وأما رعاية الترتيب فقد ذكرنا أن لله تعالى في أمثال هذه الأمور حكماً خفية لا إطلاع لنا عليها فوجب التسليم والتصديق .

السؤال السادس : هو ما معنى الاحصاء في قوله ﴿ من أحصاها ﴾ .

والجواب : أن هذا لفظ يحتمل أربعة أوجه . أحدها : إن الاحصاء هنا بمعنى العد يريد أنه يعدها فيدعو ربه بها لقوله سبحانه وتعالى ﴿ أحصى كل شيء عدداً ﴾[1] واعترض أبو زيد البلخي على هذا الوجه فقال : إن الله سبحانه وتعالى جعل استحقاق الجنة مشروطاً ببذل النفس والمال قال ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[2] وقال في آية أخرى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾[3] فالجنة لا تستحق إلا ببذل النفس والمال ، فكيف يجوز الفوز بها بسبب إحصاء ألفاظ يعدها الانسان عداً في أقل زمان وأقصر مدة ؟!

الوجه الثاني : أن يحمل لفظ الاحصاء على الاحصاء باللسان مقروناً بالاحصاء بالعقل فإذا وصف العبد ربه بأنه الملك استحضر في عقله أقسام مُلك الله تعالى وملكوته وإذا قال القدوس استحضر في عقله كونه مقدساً في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه عن كل ما لا ينبغي ، وعلى هذا فقس إحصاء سائر الأسماء .

الوجه الثالث في تفسير الاحصاء : أن يكون بمعنى الطاقة قال تعالى ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾[4] أي لن تطيقوه ، وقال عليه الصلاة والسلام

---

(١) الجن : ٢٧ .
(٢) التوبة : ١١١ .
(٣) الكهف : ١٠٧ .
(٤) المزمل : ٢٠ .

﴿ استقيموا ولن **تحصوا** ﴾ أي لن تطيقوا كل الاستقامة ، والمعنى من أطاق رعاية حرمة هذه الأسماء أدخل الجنة والمراد من رعاية هذه الأسماء ما قال عليه الصلاة والسلام في سؤال جبرائيل عليه السلام عن الاحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فإذا قال العبد الرحمن الرحيم علم أنه لا يجد الرحمة إلا منه ، وإذا قال الملك علم أن كل الممكنات ملكه ، ثم إنه يعامل ربه كما يعامل العبد الذليل الملك العزيز ، وإذا قال الرزاق علم أنه سبحانه وتعالى هو المتكفل برزقه فيثق بوعده كما يثق بوعد الملك المجازي ، وإذا قال المنتقم يستشعر الخوف من نقمته ، وعلى هذا سائر الأسماء ، والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الثاني أن في الوجه الثاني المعتبر حصول العلم بمعنى تلك الصفة ، وفي الوجه الثالث المعتبر هو الاتيان بالعبودية على وجه يليق بمعرفة هذه الصفات .

الوجه الرابع : أنّا إذا أخذنا هذا الحديث على الوجه المروي في الصحيح وهي الرواية العارية عن تفصيل تلك الأسماء كان المراد بقوله من أحصاها أي من طلبها في القرآن وفي جملة الأحاديث الصحيحة وفي دلائل العقل حتى يلتقط منها تلك الأسماء التسعة والتسعين ، ومعلوم أن ذلك مما لا يمكن تحصيله إلا بعد تحصيل علوم الأصول والفروع حتى يقدر على التقاط هذه الأسماء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومعلوم أن من حصل هذه العلوم واجتهد حتى بلغ درجة يمكنه معها التقاط هذه الأسماء من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام فقد بلغ الغاية القصوى في العبودية .

الفصل التاسع

في حقيقة الدعاء

قال أبو سليمان الخطابي : الدعاء مصدر من قولك دعوت الشيء أدعوه دعاءً ثم أقاموا المصدر مقام الاسم تقول سمعت دعاء كما تقول سمعت صوتاً ، وقد يوضع المصدر موضع الاسم كقولهم رجل عدل ، وحقيقة الدعاء استدعاء العبد ربه العناية واستمداده إياه المعونة ، وحقيقته إظهار الافتقار إليه والاعتراف بالبراءة من الحول والقوة إلا له ، وهو سمة العبودية وإظهار الذلة البشرية ، وفيه معنى الثناء على الله تعالى وإضافة الجود والكرم إليه .

وأقول : من الجهال من قال الدعاء عديم الأثر لا فائدة فيه واحتج بوجوه . الشبهة الأولى : إن المطلوب بالدعاء إن كان معلوم الوقوع فلا حاج إلى الدعاء وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة في الدعاء : الشبهة الثانية : إن كان الحق أراد إيقاع ذلك المطلوب وقع من غير الدعاء وإن كان لم يرد إيجاده في الأزل لم يكن في الدعاء فائدة . ليس لقائل أن يقول الدعاء يرد ذلك الحكم، لأن فعل الخلق لا يمكن أن يغير صفة الحق، وربما عبر بعضهم عن ذلك بأن الأقدار سابقة والأقضية أزلية والدعاء لا يغير الأحكام الأزلية فلا فائدة في الدعاء . الشبهة الثالثة : أنه سبحانه وتعالى علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فأي حاجة بالداعي إلى هذا الدعاء ، ولهذا السبب فإن جبريل عليه السلام لما أمر الخليل عليه الصلاة والسلام بالدعاء

قال « حسبي من سؤالي علمه بحالي » ثم إن الخليل عليه الصلاة والسلام استوجب بترك الدعاء في ذلك المقام الدرجة عند الله تعالى ، فثبت أن ترك الدعاء أولى . الشبهة الرابعة : المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح الداعي فالجواد الحق لا يتركه والحكيم الحق لا يهمله ، وإن لم يكن من مصالحه لم يجز له بالاتفاق . الشبهة الخامسة : روى عن النبي ﷺ أنه قال « قدر الله المقادير قبل أن يخلق الخلق بكذا وكذا عاماً»، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «جرى القلم بما هو كائن» وقال عليه الصلاة والسلام «أربع فرغ منهن؛ العمر والرزق والخلق والخلق » فإذا ثبت أن هذه الأحوال مقدرة في الأزل فأي فائدة في الدعاء . الشبهة السادسة : قد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن أجلّ مقامات الصديقين وأعلاها الرضى بقضاء الله تعالى ، والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب وترجيح مراد النفس على مراد الله تعالى . الشبهة السابعة : الدعاء يشبه الأمر والنهي ويشبه تذكير الساهي والغافل ويشبه حمل البخيل على الجود والكرم وكل ذلك من العبد اللئيم في حضرة الرب الكريم سوء أدب . الشبهة الثامنة : قال ﷺ رواية عن الله سبحانه وتعالى «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » فثبت بهذه الوجوه أن الدعاء لا فائدة فيه .

وقال الجمهور الأعظم من العقلاء : الدعاء أعظم مقامات العبادة، ويدل عليه وجوه. الأول قوله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني﴾[1] وفيه لطائف أحدها : أنه أينما ورد لفظ السؤال في القرآن جاء عقيبه لفظة (قل) قال تعالى ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾[2] ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾[3] وفي هذا الوضع ترك لفظة قل كأنه سبحانه وتعالى يقول عبدي أنت إنما تحتاج إلى الوساطة في غير وقت الدعاء أما في مقام الدعاء فلا وساطة بيني وبينك فأنت العبد

---

(١) البقرة : ١٨٦ .
(٢) الأنفال : ١ .
(٣) البقرة : ٢٢٢ .

المحتاج وأنا الإله الغني ، فإذا سألت أعطيتك وإذا دعوت أجبتك . الثانية : أن قوله ﴿ وإذا سألك عبادي ﴾[1] فهذا يدل على أن العبد له ، وقوله : فإني قريب يدل على أن الرب للعبد . وثالثها : لم يقل والعبد قريب مني بل قال أنا منه قريب وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو لا بد وأن يكون في مركز العدم وحضيض الفناء ، فكيف يكون قريباً ؟! بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى ، والعبد لا يمكنه أن يقرب من الحق لكن الحق بفضله وكرمه يقرب إحسانه منه . فلهذا قال ﴿ فإني قريب ﴾ ورابعها : أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولاً بغير الله فإنه لا يكون دعاؤه خالصاً لوجه الله ، فإذا فني عن الكل وصار مستغرقاً في معرفة الأحد الحق امتنع أن يبقى بينه وبين الحق وساطة وذلك هو معنى القرب ، فلذلك قال سبحانه وتعالى ﴿ فإني قريب ﴾.

الحجة الثانية : قوله تعالى ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾[2] وفي هذه الآية كرامة عظيمة لأمتنا لأن بني إسرائيل فضلهم الله تفضيلاً عظيماً فقال في حقهم ﴿ وإني فضلتكم على العالمين ﴾[3] وقال أيضاً ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾[4] ثم مع هذه الدرجة العظيمة ﴿ قالوا يا موسى ادع ربك يبين لنا ما هي ﴾[5] وقال الحواريون مع غاية جلالتهم وقولهم ﴿ نحن أنصار الله ﴾[6] لعيسى عليه السلام ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾[7] ثم إنه رفع هذه الوساطة عن هذه الأمة وقال مخاطباً لهم ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ وقال ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾[8] فإن قيل قوله

---

(١) البقرة : ١٨٦ .
(٢) غافر : ٦٠ .
(٣) البقرة : ٤٧ ، ١٢٢ .
(٤) المائدة : ٢٠ .
(٥) البقرة : ٦٨ ، ٦٩ .
(٦) آل عمران : ٥٢ . والصف : ١٤٠ .
(٧) المائدة : ١١٢ .
(٨) النساء : ٣٢ .

﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وعد من الله تعالى فيلزم الوفاء به ولا يجوز وقوع الخلف فيه ، ثم إنّا نرى الداعي يدعو فلا يجيبه الرب تعالى ، وكذا هذا السؤال وارد على قوله تعالى ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾[1] فالجواب هذا وإن كان مطلقاً في اللفظ إلا أنه مقيد ، فإنه إنما يستجاب من الدعاء ما وافق القضاء ؛ وقد قيل أيضاً أن الداعي يُعوض من دعائه عوضاً ما ، فربما كان ذلك العوض هو الاسعاف بمطلوبه وذلك إذا وافق القضاء ، فإن لم يساعد القضاء فإنه يعطي الداعي سكينة في نفسه وإنشراحاً في صدره وصبراً يسهل معه تحمل ما يرد عليه من البلاء . وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « ما من مؤمن ينصب وجهه لله يسأله مسألة إلا أعطاه إياها إما عجلها له في الدنيا وإما أدخرها له في الآخرة » .

الحجة الثالثة : أنه تعالى لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به بل بين في آية أخرى أنه إذا لم يُسأل غضب ، قال تعالى ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾[2] وقال عليه الصلاة والسلام « لا ينبغي لأحدكم أن يقول اغفر لي إن شئت ولكن ليجزم المسألة فيقول اللهم اغفر لي » .

الحجة الرابعة : قوله عليه الصلاة والسلام « الدعاء مخ العبادة » وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « الدعاء هي العبادة» وقرأ ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾[3] قال أبو سليمان الخطابي وإنما أنث على نية الدعوة والمسألة أو الكلمة ونحوها وقوله « الدعاء هي العبادة » معناه أنه معظم العبادة كقولهم الناس بنو تميم ، والمال الابل ؛ يريدون أنهم أفضل الناس ، وأن الابل أفضل أنواع المال ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « الحج عرفة » .

---

(١) النمل : ٦٢ .
(٢) الأنعام : ٤٣ .
(٣) غافر : ٦٠ .

الحجة الخامسة : قوله تعالى ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخيفة ﴾[1] وقال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾[2] وبالجملة فالآيات في هذا الباب كثيرة ، ومن طعن في الدعاء فقد طعن في القرآن وأبطله .

والجواب عن الشبهة الأولى : أنها تقتضي أن لا يكون للعبد قدرة على فعل من الأفعال ، بل يقتضي أن لا يكون الإله سبحانه وتعالى قادراً على شيء أصلاً ، لأن ذلك الشيء إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى القدرة ، وإن كان معلوم اللاوقوع فلا تأثير للقدرة فيه ، ولما كان ذلك باطلاً فكذا القول فيما ذكرتم .

والجواب عن الشبهة الثانية : أنه ليس من المقصود من الدعاء الاعلام بل إظهار الذلة والانكسار والاعتراف بأن الكل من الله سبحانه وتعالى .

والجواب عن الشبهة الثالثة : أنه يجوز أن يصير ما ليس بمصلحة بدون الدعاء مصلحة بشرط وجود الدعاء ، وهذا هو الجواب عن بقية الشبهات .

---

(١) الأعراف : ٥٥ .

(٢) الفرقان : ٧٧ .

الفصل العاشر

في تفسير الإسم الأعظم لله سبحانه وتعالى

إختلف الناس فيه ، فقال قائلون ليس الاسم الأعظم لله اسماً معلوماً معيناً ، بل كل اسم يذكر العبد ربه حال ما يكون مستغرقاً في معرفة الله تعالى فينقطع الفكر والعقل عن كل ما سواه فذلك الاسم هو الاسم الأعظم ، واحتجوا عليه بوجوه . الأول : أن الاسم كلمة مركبة من حروف مخصوصة اصطلحوا على جعلها معرفة للمسمى ، فعلى هذا ، الاسم لا يكون له في ذاته شرف ومنقبة إنما شرفه ومنقبته بشرف المسمى ، وأشرف الموجودات وأكملها هو الله سبحانه وتعالى ، وكل اسم ذكر العبد ربه به على ما يكون عارفاً بعظمة الرب فذلك الاسم هو الاسم الأعظم .

الحجة الثانية : أنه تعالى فرد محض أحد محض منزه عن التركيب والتأليف فيستحيل أن يقال بعض أسمائه يدل على الجزء الأشرف من ذاته والآخر يدل على الجزء الذي ليس بالأشرف ، ولما كان هذا محالاً كان جميع أسمائه دالة على ذاته الموصوفة بالوحدانية الحقيقية والفردانية الحقيقية ، وإذا كان كذلك امتنع كون بعض أسمائه أعظم من بعض .

الحجة الثالثة : الآثار المروية في هذا الباب . منها ما روى أن واحداً سأل جعفر الصادق رضي الله عنه عن الاسم الاعظم فقال له قم واشرع في هذا الحوض واغتسل حتى اعلمك الاسم الأعظم ، فلما شرع في الماء

واغتسل وكان الزمان زمان الشتاء والماء في غاية البرد فلما أراد أن يخرج من جانب الماء أمر جعفر أصحابه حتى منعوه من الخروج عن الماء ، وكلما أراد أن يخرج ألقوه في ذلك الماء البارد فتضرع الرجل إليهم كثيراً فلم يقبلوا قوله فغلب على ظن ذلك الرجل أنهم يريدون قتله وإهلاكه فتضرع إلى الله تعالى في أن يخلصه منهم ، فلما سمعوا منه ذلك الدعاء أخرجوه من الماء وألبسوه الثياب وتركوه حتى عادت القوة إليه ، ثم قال لجعفر الصادق الآن علمني اسم الله الأعظم . فقال جعفر يا هذا إنك قد تعلمت الاسم الأعظم ودعوت الله به وأجابك ، فقال وكيف ذلك ؟! فقال جعفر إن كل اسم من أسمائه تعالى يكون في غاية العظمة إلا أن الانسان إذا ذكر اسم الله عند تعلق قلبه بغير الله لم ينتفع به ؛ وإذا ذكره عند انقطاع طمعه من غير الله كان ذلك الاسم الأعظم ، وأنت لما غلب على ظنك أنّا نقتلك لم يبق في قلبك تعويل إلا على فضل الله ، ففي تلك الحالة أي اسم ذكرته فإن ذلك الاسم هو الاسم الأعظم .

ومنها : أن رجلاً جاء إلى أبي يزيد وقال أخبرني عن اسم الله الأعظم . فقال أبو زيد اسم الله الأعظم ليس له حد محدود ولكن فرِّغ قلبك لوجه الله فإذا كنت كذلك فاذكر أي اسم شئت .

ومنها : ما روي عن الجنيد أنه جاءته امرأة وقالت ادع الله لي فإن ابني ضاع فقال اذهبي واصطبري فمضت ، ثم عادت وقالت مثل ذلك مرات والجنيد يقول اصبري ، فقالت مرة : عيل صبري وما بقيت لي طاقة فادع لي . فقال لها لجنيد إن كان كما قلت فاذهبي فقد رجع ابنك : فمضت ثم عادت تشكر الله فقيل للجنيد بم عرفت ذلك قال : قال الله تعالى ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾[1] واعلم أنه ظهر من هذا الكلام أن العبد كلما كان إنقطاع قلبه عن الخلق أتم كان الاسم الذي به يذكر الله عز وجل أعظم ، ولا شك أن العبد في آخر نفسه ينقطع أمله عن الخلق بالكلية فلم يبق في قلبه رجاء ولا خوف إلا من الله سبحانه وتعالى ، فلا جرم إذا ذكر العبد ربه في

---

(١) النمل : ٦٢ .

مثل ذلك الوقت بأي اسم كان ، فقد ذكره بأعظم الأسماء ، ومتى ذكر العبد ربه بأعظم الأسماء لزم في كرمه ورحمته وجوده أن يخص ذلك العبد بأعظم أنواع الجود والكرم ، وما ذاك إلا بأن يخلصه من دركات العذاب ويوصله إلى درجات الثواب ، فلهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ».

قال قائلون : الاسم الأعظم لله تعالى اسم معين ، والقائلون بهذا القول فريقان . منهم من قال إنه معلوم للخلق ، ومنهم من قال إنه غير معلوم للخلق . أما القائلون بأنه معلوم للخلق فقد اختلفوا فيه على أقوال . القول الأول أن الاسم الأعظم لله تعالى قولنا (هو) والقائلون بهذا القول إذا أرادوا المبالغة في الدعاء قالوا يا هو ، يا من لا هو إلا هو ، يا من به هوية كل هو ، واحتجوا على هذا القول بوجوه .

الحجة الاولى أن (هو) كناية عن فرد موجود على سبيل الغيبة والفردانية ، والوجود والغيبة عن كل الممكنات من الصفات الواجبة للحق سبحانه وتعالى الدالة على غاية العز والعلو والكبرياء ، أما الوجود فله بذاته ومن ذاته ولغيره من غيره ، وأما الفردانية فالفرد المطلق من كل الوجوه ليس إلا هو ، وأما الغيبة عن كل الممكنات فلأنه يستحيل أن يكون حالاً في غيره أو محلاً لغيره أو متصلاً بغيره أو منفصلاً عن غيره فإذاً لا مناسبة بينه وبين شيء من الممكنات أصلاً ، فثبت أن الصفات التي يدل عليها قولنا (هو) لا يليق إلا به سبحانه وتعالى ، فكانت هذه الكلمة أخص أسمائه سبحانه وتعالى .

الحجة الثانية : إن إفتقار الخلق إلى الخالق مقرر في العقول وكأنه بلغ في الظهور إلى غاية درجة العلوم الضرورية ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾[1] فقولنا (هو) إشارة إلى ذلك الوجود الذي شهدت فطر الخلائق وعقولهم بإفتقار كل الممكنات إليه . فكلمة (هو) دالة على أنه تعالى هو الباطن بماهيته وكنه صمديته ، وعلى أنه تعالى

---

(١) لقمان : ٢٥ ، والزمر : ٣٨ .

هو الظاهر بحسب دلائله ، فكان هذا الاسم أعظم الأسماء .

الحجة الثالثة : أن من أراد أن يعبر عن ملك عظيم قال (هو) وإن كان حاضراً فلا يقال أنت فعلت كذا ، بل هو فعل كذا ، فدل هذا على أن هذا اللفظ هو أعظم الكنايات ، واعلم أنه سيجىء الاستقصاء في تيسير لفظة (هو) إن شاء الله تعالى .

القول الثاني : إن أعظم الأسماء هو قولنا (الله) واحتج القائلون به على صحته من وجوه .

الأول أن هذا الاسم ما أطلق على غير الله تعالى فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير الله سبحانه وتعالى ، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾[1] وقال تعالى ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[2] معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله ، ولما كان هذا الاسم في الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه وجب أن يكون أشرف أسماء الله سبحانه وتعالى .

الحجة الثانية : إن هذا الاسم هو الاصل في اسماء الله سبحانه وتعالى وسائر الأسماء مضافة إليه ، قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[3] فأضاف سائر الأسماء إليه ، ولا محالة أن الموصوف أشرف من الصفة ، ولأنه يقال الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها أسماء الله تعالى ، ولا يقال الله اسم الرحمن الرحيم ، فدل هذا على أن هذا الاسم هو الأصل .

فإن قيل : لفظ الله قد جعل نعتا في قوله تعالى في أول سورة إبراهيم ﴿ إلى صراط العزيز الحميد . الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾[4].

---

(١) لقمان : ٢٥ . الزمر : ٣٨ .

(٢) مريم : ٦٥ .

(٣) الأعراف : ١٨٠ .

(٤) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

قلنا قرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعده ، والباقون بالجر عطفاً على قوله العزيز الحميد ، وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير تقديره صراط الله العزيز الحميد .

الحجةالثالثة : قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾[1] خص هذين الاسمين بالذكر وذلك يدل على أنهما أشرف من غيرهما ، ثم إن اسم الله أشرف من اسم الرحمن ، أما أولا فلأنه يقال قدمه في الذكر ، وأما ثانياً فلأن اسم الرحمن يدل على كمال الرحمة ولا يدل على كمال القهر والغلبة والعظمة والقدس والعزة ، وأما اسم الله فإنه يدل على كل ذلك ، فثبت أن اسم الله تعالى أشرف .

الحجة الرابعة : أن هذا الاسم من خاصيته أنه كلما سقط منه حرف كان الباقي اسماً لله تعالى فإنك إن أسقطت الهمزة بقي لله وإنه من صفات الله تعالى ﴿ ولله ملك السموات والأرض ﴾[2] ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ﴾[3] فإن أسقطت اللام الأولى بقي له وهو أيضاً من صفات الله تعالى ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾[4] وأيضاً ﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾[5] وإن أسقطت اللام الثانية بقي هو وهو أيضاً من أسماء الله تعالى قال تعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾[6] وقال ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾[7] وقال ﴿ هو يحيي ويميت ﴾[8] ومثل هذه الخاصية غير حاصلة في سائر الأسماء .

الحجة الخامسة : أن الكافر لو قال لا إله إلا هو لم يصح إسلامه ، لأن كلمة هو للاشارة فلعل الكافر أشار بهذا الكلام إلى معبوده الباطل ، وكذا

---

(١) الاسراء : ١١٠ .
(٢) آل عمران : ١٨٩ .
(٣) المنافقون : ٧ .
(٤) الشورى : ١٢ .
(٥) القصص : ٧٠ ، ٨٨ .
(٦) الاخلاص : ١ .
(٧) غافر : ٦٠ .
(٨) يونس : ٥٦ .

القول في سائر الصفات ، أما إذا قال لا إله إلا الله صح إسلامه فلهذا المعنى قال سبحانه تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » وكانت النجاة من الدركات موقوفة على هذا الاسم والفوز بالدرجات موقوفاً على هذا الاسم وصون النفس عن القتل والمال عن النهب والولد عن الأسر موقوفاً على هذا الاسم ، فوجب أن يكون هذا الاسم أشرف الأسماء .

الحجة السادسة : قال الله تعالى ﴿ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾[2] فإن الله أمر عبده بالاعراض عن كل ما سوى الله والاقبال بالكلية على عبادته . بأن يذكر هذا الاسم ، فدل على أن هذا الاسم أشرف الأسماء .

الحجة السابعة : هذا الاسم له خاصية غير حاصلة في سائر الأسماء ، وهي أن سائر الأسماء والصفات إذا دخل عليه النداء أسقط عنه الألف واللام ، ولهذا لا يجوز أن يقال يا الرحمن يا الرحيم ، بل يقال يا رحمن يا رحيم ، أما هذا الاسم فإنه يحتمل هذا المعنى فيصح أن يقال يا الله ، وذلك أن الألف واللام في هذا الاسم صار كالجزء الذاتي فلا جرم لا يسقطان حالة النداء ، وفيه إشارة لطيفة وذلك لأن الألف واللام للتعريف فعدم سقوطهما عن هذا الاسم يدل على أن هذه المعرفة لا تزول أبداً البتة ، وحصول المعرفة مع السلاطين من أعظم الوسائل إلى إجتلاب كرمهم ، فهذا يدل على أن نتائج كرمه لا تنقطع عن العبد في وقت من الأوقات .

الحجة الثامنة : الأصح عند أكثر العلماء أن كنه هذا الاسم لا سبيل للعقل إلى معرفة كيفية اشتقاقه ، وثبت أن كنه الحق سبحانه وتعالى لا سبيل للعقل إلى معرفته ، فكان لهذا الاسم زيادة مناسبة مع هذا المسمى من هذا

---

(١) محمد : ١٩ .
(٢) الأنعام : ٩١ .

الوجه ، وسائر الأسماء ليس كذلك ، فوجب أن يكون هذا الاسم أشرف الأسماء .

الحجة التاسعة : أن أول آية من القرآن هي قوله سبحانه وتعالى ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ على قول بعض العلماء ، وعلى قول الباقين هو قوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وهذا الاسم مذكور في كلتي هاتين الآيتين أولاً ، فكون هذا الاسم أول الأسماء المذكورة في كتاب الله تعالى يدل على أنه أشرف الأسماء ، وأيضاً كل الناس يقدمون هذا الاسم في الذكر على سائر الأسماء في الايمان فيقول بالله الطالب الغالب ، وفي الخطب يقولون الله الملك الرحيم الجواد الكريم وما يشبهه ، بل هذا المعنى يطرد في سائر اللغات ، فإن في كل لغة اسماً هو اسم الله تعالى على الخصوص ، فيذكرون ذلك الاسم ثم يتبعونه سائر الأسماء ، في الفارسية هو « ايزدو قولنا خداي » فهذا موضوع بإزاء قولنا الله في العربية والفارسيون يذكرون هذا اللفظ ابتداء ثم يتبعونه بالألفاظ الدالة على الصفات فيقولون « ايزد كردكاز نيكوكا » ويقولون « خداي وآفريدكار » أي يا خالق ، فهذا يدل على أن هذا الاسم أشرف الأسماء .

الحجة العاشرة : كما أن أول الأسماء المذكورة في القرآن هذا الاسم ، فذلك آخر الأسماء المذكورة فيه هو هذا الاسم قال تعالى ﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾[١] فلما كان المذكور في آخر القرآن وأوله[٢] هو هذا الاسم علمنا أن هذا الاسم أشرف الأسماء .

الحجة الحادية عشرة : أن لفظ الإله على قول كثير من العلماء مشتق من العبادة على ما سيأتي بيانه . وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون هذا الاسم أعظم الأسماء ، وذلك لأن العبادة غاية التواضع والخضوع وذلك لا يحسن إلا إذا كان المعبود في غاية الجلالة والعظمة ، فهذا الاسم لما كان

---

(١) الناس : ١ ، ٢ ، ٣ .
(٢) ليس المذكور من أول القرآن وآخره هـو ترتيب النـزول بل التـرتيب الموجـود بالمصحف فقط.

دالاً على كونه مستحقاً للعبادة وجب أن يكون دالاً على كمال عظمة الله وجلالته ، ولم يكن سائر الأسماء دالاً على هذا المعنى ، وهذا يدل على أن هذا الاسم أشرف الأسماء .

الحجة الثانية عشرة : أنّا قد ذكرنا أن الاسم أشرف من الصفة من وجهين : أحدهما : أن الاسم يدل على الذات والذات أشرف من الصفة : الثاني : إن الاسم مختص بالشيء لأن ذات الشيء لا تزول عنه وأما الصفة فقد تزول عن الشيء ، وقد تحصل أيضاً بغير ذلك الشيء . وأيضاً الصفة أشرف من الاسم من وجه آخر وهو أن الاسم لا يفيد إلا الذات المهمة والصفة تنبىء عن كيفيات الماهيات وتفيد معرفة حقائقها على التفصيل ، ولذلك فإن كل من أراد تعريف حقيقة فإنه لا يمكنه تعريفها إلا بذكر صفاتها وأحوالها .

إذا عرفت هذا فنقول : هذا اللفظ حصل فيه شرف الاسم وشرف الصفة ، أما شرف الاسم فلأننا بينا أن هذا الاسم مختص بالله سبحانه وتعالى على وجه لا يحصل لغيره البتة ، وأما شرف الصفة فلأن الأصح من مذهب القائلين بكونه من الأسماء المشتقة أنه مشتق من العبادة ، ولا شك أن معنى العبادة هو المقصود الأصلي من الخلق كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] وأيضاً فلا يحصل وصف العبودية إلا عند حصول جميع صفات الله ذي الجلال والإكرام والتنزيه عن مشابهة جميع الممكنات والاتصاف بالعلم التام والقدرة التامة ، ولما حصل لهذا الاسم أشرف خصال الأسماء وأشرف خصال الصفات ثبت أنه أعظم أسماء الله تعالى . هذا جملة ما يمكن تقريره في هذا الباب .

القول الثالث : هو أن أعظم الأسماء قولنا الحي القيوم ويدل عليه وجهان . الأول ما روي أن أبيّ بن كعب طلب من رسول الله ﷺ أن يعلمه الاسم الأعظم فقال هو في قوله ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[2] أو في

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) البقرة : ٥٥ . آل عمران : ٣ .

قوله ﴿ ألم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[1] قالوا وليس ذلك هو قولنا الله لا إله إلا هو لأن هذه الكلمة موجودة في آيات كثيرة فلما حضر الرسول الاسم الأعظم في هاتين علمنا أن ذلك هو الحي القيوم . الوجه الثاني أنّا سنبين إن شاء الله تعالى في تفسير الحي القيوم أن هذين الاسمين يدلان من صفات العظمة والكبرياء والألهية على ما لا يدل عليه سائر الأسماء وذلك يقتضي كون هذين الاسمين أعظم الأسماء .

القول الرابع : إن الاسم الأعظم هو قولنا ذو الجلال والاكرام ويدل عليه وجهان الأول قوله عليه الصلاة والسلام يا ذا الجلال والاكرام . والثاني هو أن هذه الكلمة دالة على جميع الصفات المعتبرة في الالهية ، أما الجلال فهو إشارة إلى السلوب وأما الاكرام فهو إشارة إلى الاضافات ، ومعلوم أن الصفات المعلومة للخلق محصورة في هذين القسمين ، وأيضاً فالجلال إشارة إلى كونه مقدساً عن غايات العقول ونهايات الأوهام، وذلك مشعر بغاية البعد ، والاكرام إشارة إلى صفات الرحمة والاحسان ، وذلك مشعر بغاية القرب ، فقولنا ذو الجلال والاكرام إشارة إلى كونه قريباً بعيداً ظاهراً باطناً .

القول الخامس : إن الاسم الأعظم مذكور في الحروف المذكورة في أوائل السور يروى عن عليّ عليه السلام أنه كان إذا صعب عليه أمر دعا وقال يا ﴿ كهيعص ﴾[2] يا ﴿ حم عسق ﴾[3] وكان سعيد بن جبير يقول هذه الحروف منها ما يهتدي إلى كيفية تركيبها مثل ﴿ الر ﴾[4] ﴿ حم ﴾[5] ﴿ ن ﴾[6] فإن مجموعها الرحمن ، ومنها ما لا يهتدي إلى كيفية تركيبها واسم الله الأعظم فيها .

---

(١) آل عمران : ٢ ، ٣ .
(٢) مريم : ١ .
(٣) الشورى : ١ .
(٤) الآية ١ من سورة يونس ومن سورة هود ويوسف وإبراهيم والحجر .
(٥) الآية ١ من سورة غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف .
(٦) القلم : ١ .

القول السادس : يروى عن زين العابدين عليه السلام أنه قال سألت الله أن يعلمني الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب فقيل لي في النوم قل « اللهم إني أسألك الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم » قال فما دعوت به إلا رأيت النُّجع ، وروى الأستاذ أبو القاسم القشيري في كتاب الرسالة حديثاً مسنداً عن أنس بن مالك قال « كان رجل على عهد رسول الله ﷺ يتجر من بلاد الشام إلى المدينة ومن المدينة إلى بلاد الشام ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله قال فبينما هو يجيء من الشام يقصد المدينة إذ عرض له لص على فرس فصاح بالتاجر فقال قف فوقف له التاجر ، وقال شأنك ومالي وخل سبيلي فقال اللص المال مالي وإنما أريد نفسك . فقال التاجر ما تعمل بنفسي ؟ خذ المال وخلي سبيلي ، فقال اللص كمقالته الأولى فقال التاجر انظرني حتى أتوضأ وأصلي وأدعو ربي فقال اللص . افعل ما تريد ، فقام التاجر وتوضأ وصلى أربع ركعات ثم رفع يديه إلى السماء وكان من دعائه أن قال يا ودود يا ودود يا ذا العرش المجيد يا مبدىء يا معيد يا فعال لما يريد أسألك بنور وجهك الذي ملأ أقطار عرشك وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء لا إله إلا أنت يا مغيث أغثني ثلاث مرات فلما فرغ من دعائه إذا بفارس على فرس أشهب عليه ثياب خضر وبيده حربة من نور فلما نظر اللص إليه ترك التاجر وأخذ الحربة ومر نحو الفارس فلما دنا منه شد الفارس على اللص فطعنه طعنة أسقطه عن فرسه ، ثم جاء إلى التاجر فقال له قم فاقتله فقال له التاجر من أنت فما قتلت أحداً ولا تطيب نفسي بقتله ، قال فرجع الفارس فقتله ثم جاء إلى التاجر وقال اعلم إني ملك في السماء الثالثة حين دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة فقلنا أمر حدث ، ثم دعوت الثانية ففتحت أبواب السماء ولها شرر كثير كشرر النار ، ثم دعوت الثالثة فهبط جبريل عليه السلام علينا وهو ينادي من لهذا المكروب فدعوت ربي أن يوليني قتله ، واعلم يا عبد الله أنه من دعا بدعائك هذا في كل كربة وفي كل شدة فرج الله عنه وأعانه فجاء التاجر غانماً سالماً إلى المدينة ودخل على النبي ﷺ وأخبره بالقصة وبالدعاء فقال النبي

عليه الصلاة والسلام لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دُعي بها أجاب وإذا سُئل بها أعطى ».

واعلم أن الناس يذكرون أسماء كثيرة تارة بالعبرانية وتارة بالسريانية وتارة بلغات أخر مجهولة ويزعمون أنها هي الاسم الأعظم ، والاستقصاء في شروحها يطول ، فهذا كله تفصيل مذاهب من يقول الاسم الأعظم لله معلوم للخلق .

القول الآخر : قول من يقول إنه غير معلوم للخلق وقد وردت الروايات الكثيرة بهذا المعنى ، ويقال : إن لله أربعة آلاف اسم ألف لا يعلمه إلا الله ، وألف لا يعلمه إلا الله والملائكة ، وألف لا يعلمه إلا الله والملائكة والأنبياء ، وأما الألف الرابع فإن المؤمنين يعلمونه فثلثمائة منه في التوراة وثلثمائة في الانجيل ، وثلثمائة في الزبور ومائة في القرآن تسعة وتسعون منها ظاهرة ، وواحد مكتوم ، من أحصاها دخل الجنة . قالوا وإنما جعل الاسم الأعظم مكتوماً ليصير ذلك سبباً لمواظبة الخلق على ذكر جميع الأسماء رجاء أنه ربما مر على لسانه ذلك الاسم أيضاً . ولهذا السبب أخفى الله الصلاة الوسطى في الصلوات وليلة القدر في الليالي .

وقال الحكيم الكبير أبو البركات البغدادي في كتاب المعتبر في تحقيق الكلام في الاسم الأعظم : « إن العارف قد يعرف الشيء بذاته كمن يدرك الحرارة بلمسه فإن مدركه هو نفس الحرارة ، وكمن يدرك اللون ببصره فإن مدركه هو نفس اللون ، وكذا القول في كل واحد من محسوسات الحواس الخمس ، وقد يعرف الشيء معرفة عرضية كمن يقول خاصية السكنجبين صفة من شأنها قمع الصفراء فإن تلك الصفة مجهولة في ذاتها . إنما المعلوم منها أثرها ونتيجتها ، إذا عرفت هذا فنقول فإنّا لما استدللنا بوجود الممكنات على وجود واجب الوجود كان هذا من باب المعرفة العرضية ، لأن المعلوم منه أنه حقيقة مخصوصة لا يعرف أنها ما هي ، ولكن نعلم لازمين من لوازمها وهما استناد كل ما سواه إليه وإستغناؤه عن كل ما سواه ، وأما المعرفة الذاتية فمتى لم يحصل لنا إلى الآن لا بذاته ولا بذاتياته إما بذاته فلأنا لم نعرف خصوصية

ذاته وإما بذاتياته فلأنه واحد لا تركيب فيه فلا ذاتيات له .

بقي ها هنا بحث وهو أنه هل يمكننا أن نعرف تلك الحقيقة المخصوصة معرفة بالذات حتى يكون علمنا بها جارياً مجرى إدراك القوة اللامسة للحرارة ، وإدراك القوة الباصرة للضوء ، فإن كان ذلك ممتنعاً فذلك لأن إدراك هذه الحقيقة في غاية الجلالة ؛ فالأرواح البشرية لا تطيق تحمل ذلك الادراك وتجلي ذلك النور ، وإن كان ذلك ممكناً فهل لهذا الادراك آلة مخصوصة تشبه تلك الآلة إلى النفس الناطقة كنيسة العين إلى البدن ، أو يقال ليس له آلة سوى جوهر النفس الناطقة عند طردها عن الآلات الجسمانية وبتقدير أن يكون هذا الادراك ممكناً وله آلة مخصوصة فتلك الآلة المخصوصة يحتمل أن يقال إنها آلات غير مخلوقة أو يقال إنها مخلوقة لكن المانع من حصول الادراك بها قائم ، وهو إما اشتغال النفس بتدبير هذا البدن أو عائق آخر ، فكل هذه الوجوه محتملة ، ولم يقم برهان قاطع على القطع ببعض هذه الاحتمالات لا في النفي ولا في الاثبات .

إذا تبين هذا فنقول لـو ثبت أنّ المخلوقين لا يمتنع في حقهم أن يعـرفوا الله معرفة بالذات فحينئذ يمكن تسمية تلك الحقيقة المخصوصة باسم يدل عليها من حيث إنها هي ، وأما الآن فلا يمكننا أن نعرف ذلك الاسم لأن الاسم لا يفيد إلا ما كان متصوراً عند العقل ، والآن لما لم تكن تلك الحقيقة معلومة لنا إستحال أن يحصل عندنا اسم يدل عليها ، إما عند حصول تلك المعرفة لم يبعد وأن يحصل عندنا اسم يدل عليها وحينئذ لا يفهم معنى ذلك الاسم إلا من عرف تلك الحقيقة المخصوصة .

إذا ثبت هذا فنقول إنه سبحانه يعرف ذاته معرفة حقيقية ذاتية لا عرضية ، فإذا نوّر قلب بعض عبيده بتلك المعرفة لم يبعد أيضاً أن يطلعه على اسم تلك الحقيقة المخصوصة ، وعلى هذا التقدير يكون ذلك الاسم أخص الأسماء وأشرفها وأعلاها ، وهو الاسم الأعظم الذي لا يبعد أن ينطاع به كل ما في السموات وما في الأرض ، هذا كله كلام هذا الحكيم وهو غاية التحقيق في هذا الباب ـ والله أعلم بحقائق أسراره الإلهية .

القسم الثاني

في المقاصد

القَول في تفسير هُوَ

هذا اسم له هيبة عظيمة عند أرباب المكاشفات ، واعلم أن الألفاظ قسمان مظهرة ومضمرة ، أما المظهرة فهي الألفاظ الدالة على الماهيات المخصوصة كالسواد والبياض والحجر والمدَر ، وأما المضمرات فهي الألفاظ الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب من غير أن تكون دالة على خصوصية ماهية ذلك الشيء ، وهي ثلاثة أنا وأنت وهو ، وأعرفها أنا ثم أنت ثم هو ، والدليل على صحة هذا الترتيب أن تصوري لنفسي من حيث إني أنا لا يتطرق إليه الاشتباه فإن من المحال أن أصير مشتبهاً بغيري في عقلي أو يشتبه غيري فيّ في عقلي ، بخلاف أنت فإنه قد يشتبه بغيره وغيره يشتبه به ، وأما أنت فلا شك أنه أعرف من هو ، لأن الحاضر أعرف من الغائب ، فالحاصل أن أعرف المضمرات هو قولنا أنا ، وأشدها بعداً عن العرفان هو قولنا هو ، وأما أنت فكالمتوسط بينهما ، والتأمل التام يكشف عن صدق ما ذكرناه .

ومما يؤكد هذا الذي قلناه : أن المتكلم جعل له عند الانفراد لفظ واحد يستوي فيه المذكر والمؤنث ، وذلك لأن الفرق إنما يحتاج إليه عند خوف الالتباس والالتباس في قول القائل أنا غير ممكن ، فلا جرم لا حاجة إلى ذكر الفاصل ، وأيضاً لفظ التثنية والجمع واحد ، لأنه يقال في المتصل

ضربنا ، وفي المنفصل نحن[1] ، فثبت بهذا أن العرب لم يضعوا علامة فارقة في ضمير أنا بين المذكر والمؤنث وكذا بين التثنية والجمع ، وذلك لعدم الإلتباس ، أما ضمير المخاطب فقد فرقوا فيه بين المذكر والمؤنث ، وبين التثنية والجمع لأنه قد يكون بحضرة المتكلم مذكر ومؤنث وهو مقبل عليهما فإذا خاطب أحدهما لم يتميز عن غيره إلا بعلامه تميزه ، وكذا لا بد من إظهار الفارق بين التثنية والجمع لعين هذه العلة ، فثبت بما ذكرنا أن ضمير النفس أعرف من ضمير المخاطب وأما المخاطب أعرف من الغائب فهو ظاهر ، إذا ثبت هذا فنقول ظهر أن عرفان كل شيء بذاته أتم من عرفان غيره به ، فعلى هذا العرفان التام بالله ليس إلا لله لأنه سبحانه هو الذي يقول لنفسه أنا ولفظ أنا أعرف الأقسام الثلاثة فلما استحال أن يشير إلى تلك الحقيقية بقوله أنا إلا الحق سبحانه ، لا جرم لم يحصل العرفان التام بتلك الحقيقة إلا للحق سبحانه .

بل ها هنا قوم من الجهال يجوزون الاتحاد فيقولون الأرواح البشرية إذا استنارت بأنوار معرفة تلك الحقيقة اتحد العاقل بالمعقول ، وعند هذا الاتحاد يصح لذلك العارف أن يقول أنا ، كما نقل عن الحسين بن منصور (الحلاج) أنه قال أنا الحق ، وعن أبي يزيد (البسطامي) أنه قال سبحاني ، إلا أن القول بالاتحاد باطل ، لأن عند حصول الاتحاد إن بقيا فهما إثنان لا واحد ، وإن عدما فالحاصل شيء ثالث غيرهما ، وإن بقي أحدهما وفني الآخر امتنع الاتحاد ، لأن الموجود ليس هو نفس المعدوم .

فثبت أن المعرفة الحاصلة بقوله أنا ليست إلا للحق سبحانه ، بقي القسمان الآخران وهو قولنا أنت وهو ، وأما أنت فللحاضرين في مقامات المكاشفات والمشاهدات ، مثل ما نقل عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أنت كما أثنيت على نفسك » قاله فوق العرش ، وقال ذو النون تحت الظلمات ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾[2] وقالت الملائكة في موقف الفخر

---

(١) أي الضمير المتصل والمنفصل .
(٢) الأنبياء : ٨٧ .

والهيبة : ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾[1] وقال المؤمنون في معرضهم الروحاني : ﴿ أنت مولانا ﴾[2] وهذا يدل على أن حضور العبد مع الرب لا يحصل إلا مع الفناء عن كل ما سوى الحق .

واعلم أن الذي روي عنه عليه الصلاة والسلام « لا تفضلوني على يونس بن متى » فهو محمول على هذا المقام ، وذلك لأن النفي الذي أشار إليه سيدنا محمد من فوق العرش فقال : « أنت كما أثنيت على نفسك » هو الذي أشار إليه يونس في قعر البحر : ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ فكل واحد منهما مخاطب للرب بقوله ﴿ أنت ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تفضلوني عليه في القرب من الله لأجل أني كنت فوق العرش وكان هو في قعر البحر فإن المعبود منزه عن المكان والجهة ، فلم يكن الصعود على العرش سبباً لمزيد القرب ولا التسفل في قعر البحر سبباً لمزيد البعد ، وهذا من أصدق الدلائل على كونه سبحانه منزهاً عن الجهة ؛ لأن محمداً خاطبه بقوله أنت وهو في أطباق السموات ، والمؤمنون خاطبوه بقولهم أنت وهم في الأرض ، ويونس خاطبه بقوله أنت وهو في قعر البحر ، ولو كان في جهة ومكان لما كان كل هؤلاء على اختلاف درجاتهم في المكان حاضرين ، فلما كان الكل حاضرين ظهر أن المعبود مقدس عن المكان والجهة ، وأما كلمة هو فقد عرفت أنها مختصة بالغائبين ، واعلم أن هذا الاسم في غاية الشرف والجلالة في حق الحق سبحانه ، ويدل عليه وجوه :

الحجة الأولى : أن الأسماء إما أن تكون من باب الأسماء المشتقة ، أو من باب أسماء الأعلام ، أو من باب المضمرات ، أما الأسماء المشتقة فإن نفس تصورها لا يمنع من الشركة ، وكل اسم دل على ذاته المخصوصة من حيث أنها هي ، وأما أسماء الأعلام فقد قالوا إنها قائمة مقام الإشارة ؛ فلا فرق بين قولك يا أنت ، ويا هو ، وإذا كان العلم قائماً مقام الإشارة كان العلم فرعاً ، واسم الإشارة أصلاً ، والأصل أشرف من الفرع ، فيلزم أن يكون قولنا

---

(١) سبأ : ٤١ .
(٢) البقرة : ٢٨٦ .

يا أنت ويا هو ، أشرف الأسماء بالكلية .

الحجة الثانية : أنا قد بينا أن حقيقة الحق سبحانه منزهة عن جميع أنحاء التركيبات ، والفرد المطلق لا يمكن نعته ، لأن وصف الشيء بالشيء يقتضي حصول المغايرة بين ذات الموصوف وذات الصفة ، وعند اعتبار الغير لا تبقى الفردانية ، وأيضاً لا يمكن الإخبار عنه ، لأن الإخبار عن الشيء بعين ذاته محال ، بل الأخبار إنما تفيد إذا أخبر عن شيء بشيء آخر ، وكل ذلك مشعر بالتعدد ، وهو ينافي الفردانية ، فثبت أن جميع الأسماء المشتقة قاصرة عن الإنباء عن كنه ذات الحق سبحانه ، وأما لفظ هو فإنه ينبىء عن كنه حقيقته المخصوصة المبرأة عن جميع جهات الكثرة ، فهذه اللفظة لوصولها إلى كنه الصمدية يجب أن تكون أشرف الألفاظ .

الحجة الثالثة : أن الأسماء المشتقة دالة على الصفات والصفات لا تعرف إلا بالإضافة إلى المخلوقات ، فالقدرة هي الصفة التي باعتبارها يصح الإيجاد ، والعلم هو الصفة التي باعتباره يصح الإحكام والإتقان في الأفعال فهذه الأسماء المشتقة لا يمكن معرفتها إلا مع معرفة المخلوقات ، وبقدر ما يصير العقل مشغولاً بمعرفة الغير يصير محروماً عن الاستغراق في معرفة الحق ، وأما لفظ هو فإنه لفظ يدل عليه من حيث هو هو ، ولا حاجة في معرفته إلى الإلتفات إلى اعتبار حال غيره ، فلفظ هو يوصلك إلى الحق ، ويقطعك عما سواه ، وسائر الأسماء المشتقة ليس كذلك فكان لفظ هو أشرف .

الحجة الرابعة : أن الأسماء المشتقة دالة على الصفات ، ولفظ هو دال على الموصوف ، والموصوف أشرف من الصفة ، ولذلك قال المحققون إن ذاته ما كملت بالصفات ، بل ذاته لغاية الكمال استلزمت صفات الكمال ، فلفظ هو يوصلك إلى ينبوع العزة ، والرحمة ، والعلو ، وسائر الألفاظ يوصلك إلى الصفات .

الحجة الخامسة : أنه سبحانه وتعالى ذكر في أول سورة الإخلاص

﴿ قل هو الله أحد ﴾ فذكر ألفاظاً ثلاثة : هو ، الله ، أحد .

ومراتب المكلفين ثلاثة : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق . أو يقال مراتب النفوس ثلاثة ، الأمارة بالسوء ، واللوامة ، والمطمئنة . أو يقال : المقامات ثلاثة : المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال . أو يقال الدرجات ثلاث : الطريقة ، والشريعة ، والحقيقة .

فأما لفظ هو : فهو نصيب المقربين السابقين الذين هم أرباب النفوس المطمئنة وذلك لأن لفظ هو إشارة ، والإشارة تفيد تعين المشار إليه بشرط أن لا يحضر هناك شيء سوى ذلك الواحد، فأما إن حضر هناك شيئان لم تكن الإشارة وحدها كافية في التعيين ، والمقربون لا يحضر في عقولهم وأرواحهم موجود آخر سوى الأحد الحق لذاته ، لأن واجب الوجود لذاته ، والممكن لذاته ، معلوم في نفسه ولهذا قال ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[1] .

فلما كان كل ما سواه معدوماً محضاً، ولا موجوداً إلا الحق سبحانه، لا جرم كانت الإشارة بهو كافية لهم في تعيين المشار إليه ؛ فقوله هو لفظة كافية في كمال المعرفة ، ونهايات التجلي للمقربين .

أما أصحاب اليمين المقتصدون فهم الذين قالوا « الممكنات أيضاً موجودة » ولم ينظروا إلى الأشياء من حيث هي ، بل نظروا إلى ظواهرها ، فلا جرم هؤلاء ما كانت الإشارة كافية لهم ، وما كانت لفظة هو تامة الإفادة في حقهم ؛ فافتقروا مع هذه اللفظة إلى مخبر آخر ، فقيل لأجلهم هو الله ، لأن الله يفيد افتقار غيره إليه ، واستغناءه عن غيره .

وأما الظالمون الذين هم أصحاب الشمال لما جوَّزوا أن يكون في الوجود موجودات ، كل واحد منهما واجب لذاته ، فقيل لأجلهم أحد ، فثبت انطباق هذه الألفاظ الثلاثة على درجات هؤلاء الفرق الثلاث . هذا ما يتعلق بالأسرار المعنوية في قولنا هو .

---

(١) القصص : ٨٨ .

وأما اللطائف اللفظية ففيها وجوه .

الأول : أن لفظة هو مركبة من حرفين الهاء والواو ، ولكن الأصل هو الهاء ، والواو ساقط بدليل أنه يسقط عند التثنية والجمع ، فيقال هما ، هم ، فالهاء حرف واحد تدل على الواحد الحق ، وليس لشيء من الأشياء هذه الخاصية ، ألا ترى أنه تعالى خلق جميع الأعضاء أزواجاً ، كاليدين ، والرجلين ، ومدخل الغذاء والهواء ومخرجهما ، ثم خلق القلب واحداً ، لأنه محل المعرفة ، وخلق اللسان واحداً لأنه محل الذكر ، وخلق الجبهة واحدة لأنها محل السجود ، وكانت هذه الأعضاء أشرف من غيرها بهذا السبب ، وكذا الهاء في قولنا هو .

الثاني : الهاء حرف حلقي ، وهو أدخل الحروف الحلقية في الحلق ، والواو حرف يتولد عند التقاء الشفتين ، فمخرج الهاء أول مخارج الحروف ، ومخرج الواو آخر مخارجها ، وأيضاً الهاء باطن ، والواو ظاهر ، فهذان الحرفان لكونهما متولدين في أول المخارج وآخرها يصدق عليهما كونهما أولاً وآخراً ولكون أحدهما في داخل الحلق، والآخر في ظاهر الشفة يصدق عليهما كونه ظاهراً وباطناً ، فلما كان هذا الاسم دالاً على الحق سبحانه وتعالى لا جرم كان أولاً آخراً ظاهراً باطناً .

الثالث : أنا وإن عرفنا أن الهاء حرف حلقي لكن مخرجه على التعيين غير معلوم البتة ، فهذا الحرف الذي وضع لتعريف الحق سبحانه وتعالى مخرجه غير معلوم ، وكيفيته غير معلومه ، فذات الحق سبحانه وتعالى أولى أن يكون منزهاً عن الكيفية والأينية .

الرابع : أن لفظة هو مركبة من حرفين ؛ فكانت سبباً لحصول المعرفة ، وهذا ينبهك على أنه لا سبيل إلى إثبات وحدانيته إلا بزوجية ما سواه ؛ فقال في بيان أن غيره زوج ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ وقال تعالى في بيان كونه أحداً ﴿ قل هو الله أحد ﴾[1] ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾[2] .

---

(١) الإخلاص : ١ .

(٢) البقرة : ٢٦٣ .

الخامس : أن الحق ذكر في نداء المكلفين ألفاظاً وهي قوله يا أيها ، وذلك لأن هذه الكلمة مركبة من ألفاظ ثلاثة : وهي يا أي ، ها ، والمراتب على ما عرفت ثلاث ، فلفظة يا ؛ نصيب الظالمين ، ولفظة أي ، نصيب المقتصدين ، ولفظة ها ، نصيب السابقين ، ولما عرًف نفسه قال ﴿ هو الله أحد ﴾ فهو نصيب السابقين ، والله نصيب المقتصدين ، وأحد نصيب الظالمين .

فالحاصل أن كلامه مع المقربين ليس إلا قوله ها ، وكلام المقربين نفسه ليس إلا قوله هو ، فمنه إليك قوله ها ، ومنك إليه قولك هو ، فسبحان من احتجب عن العقول بشدة ظهوره ، واختفى عن مقل الأرواح بكمال نوره .

القول في تفسير قولنا (الله) وفيه مسائل

مسألة لفظ الله من الألفاظ العربية : قال أبو زيد البلخي قولنا الله ليس من الألفاظ العربية ، وذلك لأن اليهود والنصارى يقولون الها ، والعرب أخذوا هذه اللفظة منهم ، وحذفوا المدة التي كانت موجودة في آخرها ، وذلك لأن المدة كثيرة في اللغة السريانية ، وميل العرب إلى التخفيف والإيجاز ، فحذفوا هذه المدة ، مثل قولهم بدل أبا أب وبدل روحا روح ، وبدل نورا نور ، وبدل ليلا ليل وبدل يوما يوم ، وفيما يشبه هذا اسم الملك ، فإن الموجود في لغتي العبرانية والسريانية بدل ملك مالاخا وهذه الخاء ترجع في عامة الألفاظ المعربة المنقولة من السريانية إلى الكاف ، كما قالوا لميخائيل ميكائيل ، وقالوا لصخريا زكريا ، وكذلك لفظ الفردوس من لفظ فرديسا ، واسم جهنم معربة من لفظ كهنام . . . وأما أكثر العلماء فقد اتفقوا على أن هذه اللفظة [الله] عربية ، وهو الصحيح ، ويدل عليه وجوه :

الحجة الأولى : أن العرب وإن كانوا يعبدون الأوثان إلا أنهم كانوا معترفين بوجود خالق العالم ، ويبعد أن يقال أنهم مع هذا الإعتراف ما كانوا يعرفون له اسماً في لغتهم ، حتى أخذوه عن لغة أخرى .

الحجة الثانية : قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[1] أخبر عنهم أنهم معترفون بأن خالق السموات والأرض هو الله ، وهذا يدل على اعترافهم بهذا الإسم .

الحجة الثالثة : أن القرآن نزل بلغة العرب ، فلو لم تكن هذه اللفظة عربية مع أن القرآن مملوء منها لم يكن القرآن كله عربياً . وأما استدلالهم بأن لفظاً شبيهاً بهذا اللفظ موجود في العبرانية والسريانية فبعيد ، لأنه يحتمل أن يكون هذا من باب توافق اللغات ، ومع هذا الإحتمال سقط ما قاله من الاستدلال ، فثبت أن هذه اللفظة عربية .

المسألة الثانية : لا يجب أن يشتق كل اسم من آخر : اعلم أنه لا يجب في كل اسم أن يكون مشتقاً من شيء آخر . وإما لزم التسلسل وإما الدور ، وهما محالان ، فلا بد من الاعتراف بوجود أسماء موضوعة ، وإذا عرفت هذا فنقول : اتفق العلماء الذين تكلموا في معاني أسماء الله تعالى أن ما سوى هذه اللفظة من أسماء الله تعالى فهي من باب الصفات المشتقة ، أما هذه اللفظة فقد اختلفوا فيها ، قال أكثر المحققين إنها غير مشتقة من شيء أصلاً ؛ بل هو اسم انفرد الحق سبحانه به كأسماء الأعلام ، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة ، والحسين بن الفضل البجلي ، والقفال الشاشي ، وأبي سليمان الخطابي ، وأبي يزيد البلخي ؛ والشيخ الغزالي ، ومن الأدباء أحد قولي الخليل ، وسيبويه والمبرد ، وقال جمهور المعتزلة وكثير من الأدباء إنه من الأسماء المشتقة . والمختار عندنا هو القول الأول ، ويدل عليه وجوه .

الحجة الأولى : لو كانت هذه اللفظة مشتقة لما كان قولنا لا إله إلا الله تصريحاً بالتوحيد ، لأنه توحيد ، فوجب أن لا تكون هذه اللفظة مشتقة ، بيان الملازمة أن المفهوم من الاسم المشتق ذاتٌ موصوفة بالمشتق منه ، وهذا المفهوم مفهوم كلي ؛ لا يمنع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه ، بل قد تكون الشركة ممتنعة في نفس الأمر ، إلا أن ذلك الامتناع إنما يستفاد من

---

(١) لقمان : ٢٥ . الزمر : ٣٨ .

خارج لا من نفس مفهوم اللفظ ، فثبت أنه لو كان قولنا الله مشتقاً لكان كلياً ، ولو كان كلياً لم يكن قولنا لا إله إلا الله مانعاً من وقوع الشركة ، فكان يلزم أن يكون قولنا لا إله إلا الله غير مانع من الشركة ، ولما كان ذلك باطلاً بإجماع المسلمين علمنا أن هذا الاسم اسم علم ، وليس من الأسماء المشتقة .

الحجة الثانية : قوله تعالى ﴿ هل تعلم له سميا ﴾[1] أي ليس في الوجود شيء يسمى بإسم الله إلا الله ؛ فثبت أن هذا اللفظ اسم ، ولو كان مشتقاً لما كان اسماً بل كان صفة .

فإن قيل : الصفة قد تسمى بالاسم ، قال تعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾[2] والمراد منه هذه الأسماء المشهورة ، وهي بأسرها صفات .

والجواب : أن الصفة قد تسمى اسماً ، لكن على سبيل المجاز لا الحقيقة ، ألا ترى أنه إذا قيل : محمد العربي المكي ، فكل أحد يقول اسمه محمد ، وأما العربي والمكي فهو نعت وصفة وليس باسم ، ومعلوم أن الأصل في الكلام الحقيقة .

الحجة الثالثة : أن الأسماء المشتقة صفات ، والصفات لا يمكن ذكرها إلا بعد ذكر الموصوف ، فلا بد لذات الموصوف من اسم ، ولما كان كل ما سوى هذا الاسم من باب الصفات ، وجب القطع بأن هذا الاسم اسم للذات المخصوصة .

الحجة الرابعة : أن سائر الأسماء تضاف إلى هذا الاسم ، فوجب أن يكون هذا اسماً للذات ، أما المقام الأول فيدل عليه القرآن ، والخبر ، والعرف ، أما القرآن فقوله ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ أضاف جميعها لهذا الاسم وقال : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس ﴾[3] .

---

(١) مريم : ٦٥ .
(٢) الأعراف : ١٨ .
(٣) الحشر : ٢٣ .

وأما الخبر فقوله ﴿ إن لله تسعة وتسعين اسما ﴾ أضاف سائرها لهذا .

وأما العرف فمن وجوه :

الأول : أنه يقال الملك القدوس السلام اسما لله ، ولا يقال الله اسم للملك الخالق البارىء .

الثاني : أن كل خطيب ، وكل حامد لله وممجد له ، فإنه يبتدىء أولاً بهذا الاسم ثم يتبعه بالصفات .

الثالث : أن القضاة والحكام إنما يستحلفون بهذا الاسم ، بل قد يذكرون الصفات بعد ذكر الاسم اتباعا ، وفي الفارسية هكذا يفعلون ، يذكرون أولاً ما هو كالعلم وهو خداي أو إيزد ثم يتبعونه بالصفات ، فثبت أن الألفاظ المشتقة مضافة إلى هذا الاسم ، ووجب أن يكون هذا اسما موضوعاً غير مشتق ؛ لأنا عرفنا بالاستقراء أن الذي تقدم على جميع الألفاظ المشتقة يجب أن يكون اسم علم ، واحتج القائلون بأنه لا يجوز كون هذا اللفظ اسم علم لوجوه .

الأول : قوله ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾[1] حكم بكون أسمائه موصوفة بالحسن والاسم إنما يكون حسناً إذا كان المسمى به كذلك ، والمسمى إنما يكون حسنا بحسب صفاته لا بحسب ذاته ، فوجب أن تكون جميع أسماء الله تعالى دالة على صفاته لا على ذاته .

الحجة الثانية : الاسم الموضوع إنما يحتاج إليه في الشيء الذي يدرك بالحس ، ويتصور في الفهم ، حتى يشار بذلك الاسم الموضوع إلى ذاته المخصوصة ، والباري سبحانه وتعالى يمتنع إدراكه بالحواس ، وتصوره في الأوهام ، فيمتنع وضع الاسم العلم له ، إنما الممكن في حقه سبحانه وتعالى أن يذكر بالألفاظ الدالة على صفاته كقولنا بارىء ، وصانع ، وخالق .

الحجة الثالثة : أن أسماء الأعلام قائمة مقام الإشارات ، فإذا قيل يا

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .

زيد ، كان ذلك قائماً مقام قوله يا أنت ، ولما كانت الإشارة إلى الله ممتنعة ، كان اسم العلم في حقه ممتنعاً محالاً .

الحجة الرابعة : المقصود من وضع الاسم العلم أن يتميز ذلك المسمى عملا يشاركه في نوعه ، أو جنسه ، وإذا كان الحق منزهاً عن أن يكون تحت نوع أو جنس امتنع أن يوضع له اسم عَلم .

الحجة الخامسة : اسم العلم لا يوضع إلا لما كان معلوماً ، والبشر لا يعلمون من الله سبحانه وتعالى حقيقته المخصوصة ، فكان وضع الاسم العلم له لا محالة محال .

والجواب عن الأول : أنه تعالى قال ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ فأضافها إليه ، فوجب كون هذا الاسم خارجاً عنها ، وأيضاً الاسم إنما يحسن لكون مسماه شريفاً ، فهذا الاسم المسمى به هو الذات ، فوجب أن يكون أشرف الأسماء .

والجواب عن الثاني : أن الناس لما علموا أن لهذا العالم صانعاً لم يبعد أن يضعوا له اسماً يشيرون به إلى ذاته المخصوصة .

والجواب عن الثالث : أن الإشارة الحسية إلى الله ممتنعة ، أما الإشارة العقلية فلم قلتم إنها ممتنعة .

والجواب عن الرابع : لم لا يجوز أن يكون المقصود من اسم العلم تميزه عما يشاركه في الوجود ، والتشبيه .

والجواب عن الخامس : أليس أنَّ أكثر حقائق الأشياء مجهولة كالروح والملك ، ولم يمنع ذلك من وضع الاسم لها ، فكذا ها هنا .

المسألة الثالثة : اشتقاق لفظة [الله] : القائلون بأن هذه اللفظة مشتقة ذكروا وجوهاً : الأول أنها مشتقة من أله الرجل آل الرجل يأله إليه إذا فزع إليه من أمر نزل به ؛ فآلهه أي أجاره ؛ وأمنه ؛ فيسمى إلهاً كما يسمى الرجل إماماً إذا أمّ الناس . فأتموا به ؛ وكما يسمى الثوب رداء ولحافا إذا ارتدي به

والتُحف به ؛ ثم إنه لما كان اسماً لعظيم ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] أرادوا تفخيمه بالتعريف الذي هو الألف واللام فقالوا إلالاه ؛ ثم استثقلوا الهمزة في كلمة يكثر استعمالهم لها ؛ وللهمزة في وسط الكلمة ضغطة شديدة ؛ فحذفوها فصار الاسم كما نزل به القرآن ؛ وهو الله تعالى ، وإلى هذا القول ذهب الحارث بن أسد المحاسبي ؛ وجماعة من العلماء ؛ ومن الناس من طعن فيه من وجوه .

الأول : أنه تعالى إله الجمادات والبهائم ، وإن لم يوجد منهم الفزع إليه في الحوائج .

الثاني : أنه تعالى ما كان مفزع الخلق في الأزل ؛ فوجب أن يقال إنه ما كان إلهاً في الأزل .

الثالث : قد بينا أن أشرف أسماء الله هو هذا الاسم ؛ ويبعد في العقل أن يكون أشرف أسماء الله مشتقاً من قِبل أفعال صادرة عن الخلق ؛ بل الاسم المشتق من الصفة الذاتية لله تعالى يكون أشرف لا محالة من الأسماء المشتقة من أفعال الخلق ؛ لأن ما كان مشتقاً من الصفات الذاتية كانت دائمة الوجود ، وواجبة الثبوت ؛ مبرأة من الزيادة والنقصان ، وما كان مشتقاً من أفعال الخلق كان بالضد من ذلك .

والجواب عن الأول : أن الجمادات والبهائم وإن لم يكن لها فزع إلى الله ولكن لكل واحد من الممكنات احتياج في ذاته وصفاته إلى إيجاد الله وتكوينه ، فكان ذلك عبارة عن هذا الفزع .

والجواب عن الثاني : أنه تعالى كان في الأزل موصوفاً بالصفات التي متى حصل للخلق فزع لم يكن فزعهم إلا إليه ، وهذا الاعتبار كان حاصلاً في الأزل .

والجواب عن الثالث : إن اشتقاق هذا الاسم ليس من فزع الخلق

---

(١) الشورى : ١١ .

إليه ، بل من كونه تعالى موصوفاً بالصفات التي لأجلها يستحق أن يكون مفزعاً لكل الخلق .

واعلم أن كونه تعالى مفزع الخلق إنما ذاك لأجل أن الموجودات على قسمين واجبة لذواتها أو ممكنة ، أما الواجب لذاته فهو الحق سبحانه وتعالى لا غير ، لأنه لو فرض شيئان كل واحد منهما واجب لذاته لما اشتركا في الوجوب ، ولتباينا بالتعيين ، وما به المشاركة عين ما به المباينة فيقع التركيب في ذات كل واحد منهما ، وكل مركب فإنه مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فلو كان واجب الوجود أكثر من واحد لكان كل واحد منهما ممكناً لذاته ، وذلك محال ، فثبت أن واجب الوجود لذاته واحد ، وكل ما سوى ذلك الواحد ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فهو محتاج ؛ فإذاً ما سوى الحق سبحانه وتعالى فهو محتاج إلى الحق سبحانه وتعالى في ذاته وصفاته ، وفي جميع إضافاته ؛ وإذا عرفت ذلك ظهر أنه سبحانه وتعالى مفزع الحاجات ، ومن عنده نيل الطلبات .

القول الثاني في اشتقاق هذه اللفظة : أنها من وله يوله ؛ وأصله ولاه ؛ فأبدلت الواو همزة ، كما قالوا وساد وإساد ، ووشاح وإشاح ، ووكاف وإكاف ، والوله عبارة عن المحبة الشديدة ، ثم ها هنا أقوال :

أحدها : أن العباد يحبونه ، وقد كان يجب أن يقال مألوه كما قيل معبود ، إلا أنهم خالفوا به البناء ليكون اسم علم ، فقالوا إله ؛ كما قيل للمكتوب كتاب ، وللمحسوب حساب ؛ واعترض بعضهم على هذا القول بالأسئلة الثلاثة المذكورة على القول الأول ، والجواب ما تقدم .

والثاني : أنه مأخوذ من وله الخالق سبحانه وتعالى في حق عباده ، ورجع معناه إلى كونه سبحانه وتعالى رحيماً ودوداً براً ، وهو أيضاً قريب من لفظ الحنان إن كان الحنين أمراً حاصلاً عند الواله اللهفان ، واحتج أصحاب هذا القول بوجوه .

أحدها : أنه تعالى قال : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[1] فأثبت بهذا كونه تعالى محباً لعباده ، وكون عباده محبين له ، والوله معناه المحبة ، فكان اشتقاق لفظ الإِله من كل واحد من الوجهين جائزاً ، إلا أن اشتقاقه من محبة الله تعالى لعباده أولى من إشتقاقه من أفعال الخلق ؛ لأن محبة الله صفة أزلية ، ومحبة العباد أمر محدث ، وإشتقاق اسم الله من صفته الأزلية أولى من إشتقاقه من الأفعال المحدثة للعباد .

وثانيها : أنه تعالى جعل أول كتابه قول ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فإذا قلنا إن لفظ الله دليل على كمال محبته لعباده فمن المعلوم أن لا معنى لمحبته إلا كونه رحيماً بهم ، مُوصلاً أصناف نعمته إليهم ، وكان لفظ الله من جنس لفظ الرحمن الرحيم ، فقولنا الله دليل على الغاية القصوى في الرحمة ، لأن الوله عبارة عن غاية المحبة ، والرحمن كالمتوسط ، والرحيم كالرتبة الأخيرة ، فتكون هذه الألفاظ الثلاثة على هذا التقدير متجانسة .

وثالثها : أن على هذا التقدير تكون اللفظة الأولى من القرآن دليلاً على كمال المحبة والرحمة من الله تعالى في حق عباده ، وذلك هو الأليق بلطفه وكرمه .

واعترضوا على هذا القول أيضاً من وجوه : الأول أن هذا الوله ما كان حاصلاً في الأزل فوجب أن لا يكون إلهاً في الأزل ، والثاني : أن هذا الوله حاصل في حق الأمهات المولهة بأولادها ، فوجب إطلاق اسم الإِله عليهن ، الثالث : يلزم أن يكون إفناء العالم ، وإماتة الأحياء مبطلاً لكونه تعالى إلهاً .

والجواب عن الأول : أنه يرجع حاصل هذا الوله في حق الله تعالى إلى أنه مريد للخيرات بعباده ، وهذه الارادة أزلية ، فزال السؤال .

والجواب عن الثاني : أنّا بينّا فيما تقدم أن رحمة الله تعالى بعباده أكمل من رحمة الآباء والأمهات بالأولاد .

---

(١) المائدة : ٥٤ .

والجواب عن الثالث : أن كونه تعالى قابضاً مذلاً مميتاً لا يمنع من كونه باسطاً معزاً محيياً ، فكذا ها هنا كونه مغنياً للعالم مميتاً للخلائق لا يمنع من كونه حناناً ودوداً رحيماً .

الوجه الثالث : من الوجوه المفرعة على قولنا هذا : إن الاسم مشتق من الوله : أن الوله : عبارة عن المحبة الشديدة ، والمحبة الشديدة يلزمها طرب شديد عند الوجدان والوصال ، وخوف شديد عند الفقدان والانفصال ، فهو تعالى مسمى باسم الله لأن المؤمنين يحصل لهم البهجة والسرور عند معرفته ، ويحصل لهم حزن شديد عند الحجاب والبعد ، قال يحيى بن معاذ : إلهي كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً ، وكفى بي شرفاً أن تكون لي رباً : وقيل : كان سبب زهد شقيق البلخي أنه رأى مملوكاً يلعب ويمرح في زمان قحط ، كان الناس محزونين فيه، فقال له شقيق : ما هذا النشاط الذي فيك ؟ أما ترى ما فيه الناس من الحزن والقحط فقال له المملوك وما عليَّ من ذلك ، ولمولاي قرية خالصة يدخل له منها ما يخرج فانتبه شقيق وقال : إن كان لمولاه قرية ، ومولاه مخلوق فقير ، فلا يهتم برزقه لهذا السبب ، فكيف ينبغي أن يهتم المسلم لأجل الرزق ، ومولاه أغنى الأغنياء .

واعلم أن من عرف الله لا يعري عن قبض وبسط ، فإذا إستغرق في عالم الجلال والعزة والاستغناء وقع في القبض والهيبة فيصير كالمعدوم الفاني ، وإذا استغرق في عالم الجمال والرحمة والكرم وقع في البسط والفرح والسرور ، فيصير فرحاناً بربه ، وهاتان الحالتان لازمتان لسالكي عالم التوحيد ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « إنه ليغان على قلبي » وكان يحيى عليه السلام الغالب عليه الحزن والقبض ، وكان عيسى عليه السلام الغالب عليه الفرح والبسط ، فتحاً كما في هذه الواقعة إلى حضرة رب العزة ، فأوحى الله إليهما ﴿ إن أقربكما إليَّ أحسنكما ظناً بي ﴾ والله أعلم .

القول الثالث : في إشتقاق اسم الله سبحانه وتعالى : أنه مأخوذ من لاه يلوه إذا إحتجب .

واعلم أنه يصح أن يقال إنه تعالى يحتجب . ولا يصح إن يقال أنه محجوب ، لأن الاحتجاب دليل على كمال القدرة ، لأنه عبارة عن كونه تعالى قادراً على قهر العقول عن الوصول إلى كنه صمديته ، وقادر على قهر الأبصار عن الانتهاء إلى جلال حضرته ، أما المحجوب فيدل على العجز ، لأنه هو الذي صار مقهوراً للغير ، إذا عرفت هذا فنقول : إن الحق تعالى غير متناه في ذاته ، وفي دوامه ، وفي أزله ، وفي أبده ، وفي صفاته ، وفي آلائه ونعمائه ، والخلق موصوفون بالتناهي في ذاتهم وصفاتهم ، وأفكارهم ، وأقطارهم ، والمتناهى لا يصل إلى غير المتناهي ، فلا جرم كانت العقول مقهورة أبداً في أنوار صمديته والأفكار مضمحلة في بيداء إشراق عظمته ، كما قال ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾[1] .

القول الرابع : أنه مشتق من لاه يلوه إذا ارتفع ، والحق سبحانه وتعالى مرتفع لا بالمكان ، فإن من كان ارتفاعه بالمكان ؛ كان مكانه مساوياً له في الارتفاع ؛ بل التحقيق إن ذلك المكان يكون مرتفعاً بذاته ؛ والمتمكن يكون مرتفعاً بسبب ارتفاع ذلك المكان ؛ فيكون ذلك الارتفاع للمكان بالذات ؛ وللتمكن بالتبع وجل الحق عن أن يكون كذلك ، بل الحق سبحانه وتعالى مرتفع عن المكان فلا يكون مكانياً ، وعن الزمان فلا يكون زمانياً ، فهو متعال عن مناسبة المحدثات ومشابهة الممكنات وتقدير الأوقات والساعات ، وإحاطة الأحياز والجهات .

وسمعت أن الموفق بالله لما حج ، وكان عنده جماعة من المنجمين قال لهم : إنكم تدعون إستخراج الضمائر ، وإني أضمرت شيئاً فاستخرجوه . وقال كل واحد منهم شيئاً فكذبهم إلى أن قال أبو معشر البلخي : إنك أضمرت ذكر الله سبحانه وتعالى : فقال صدقت ، فأخبرني كيف علمت ذلك ؟ قال : لما أضمرت أخذت الارتفاع ، فوجدت الرأس في وسط السماء والرأس بقطر لا يرى ، ولكن يرى آثار سعادته ، ووسط السماء أرفع موضع

---

(١) الأنعام : ١٨ و٦١ .

في الفلك ، فعلمت أنك أضمرت شيئاً لا يرى ذاته ، ولكن يرى آثار كرمه ، وجوده أرفع الموجودات ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى .

القول الخامس : أنه مأخوذ من قولك ألهت بالمكان إذا أقمت فيه ، قال الشاعر :[1]

ألهنا بدار ما تبين رسومها كأن بقاياها وشام على اليد

فهو تعالى إنما استحق هذا الاسم لدوام وجوده من الأزل إلى الأبد ، وسيأتي الكلام في شرح معنى الأزل والأبد .

القول السادس : أنه مشتق من أله الرجل يأله إذا تحير ، فالباري سبحانه وتعالى مسمى بهذا الاسم لأن العقول متحيرة في كنه جماله وجلاله .

واعلم أن الأرواح البشرية وإن كانت نورانية الجوهر إلا أنها احتسبت في قعر ظلمات الأبدان الجسمانية مدة مديدة ، وألفت هذه الظلمات ، والأطباء يقولون : إن من بقي محبوساً مدة مديدة في السجن المظلم فإذا خرج من تلك الظلمات وفتح عينيه دفعة واحدة عمي ، لأن نور عينيه ضعف في تلك الظلمة ، فإذا فتح عينيه قهر نور الشمس ذلك النور الضعيف ، فيعمى بل الطريق له أن يستعمل أولاً أنواع الأكحال المقوية ، وينظر أولاً إلى الأنوار الضعيفة ، ثم لا يزال ينتقل من مرتبة ضعيفة إلى مرتبة قوية في الأنوار حتى تألف العين نور الشمس فحينئذ ينظر إلى الأنوار القوية ، فكذا ها هنا الأنوار البشرية احتبست في قعر ظلمات عالم الأجساد ، فعند الموت يزول الغطاء ، فإذا نظرت إلى إشراق جلال الله ، وغشيتها لوامع عالم العظمة عميت بالكلية ، ولكن الطريق أن الانسان مدة حياته الجسمانية يتكلف استخراج روحه من عمق ظلمات البدن إلى عتبة عالم الأنوار الإلهية ، حتى يحصل للروح والسر إلف مع أنوار عالم القدس ، ثم إذا تقشع السحاب ، وزال

---

(١) هو امرؤ القيس بن عابس .

الحجاب ، فحينئذ يحصل الابصار التام ، كما قال تعالى ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[1] .

وكما أن العين يغشاها الحيرة والدهشة عند النظر إلى قرص الشمس ، وكذا عيون الأرواح البشرية يغشاها الحيرة والدهشة عند النظر إلى ينبوع الأنوار الإلهية فلما كانت هذه الحيرة والدهشة لازمة عند القرب من هذه الحضرة ؛ لا جرم كان الاسم اللائق به هو قولنا : الله .

القول السابع : الإله من له الالهية ؛ وهي القدرة على الاختراع ؛ والدليل عليه أن فرعون لما قال : ﴿ وما رب العالمين ﴾[2] قال موسى في الجواب : ﴿ رب السموات والأرض ﴾[3] فذكر في الجواب عن السؤال الطالب لماهية الاله القدرة على الاختراع ؛ ولولا أن حقيقة الالهية هي القدرة على الاختراع ؛ لم يكن هذا الجواب مطابقاً لذلك السؤال .

القول الثامن : أن الأصل في قولنا : الله هي الهاء التي هي كناية عن الغائب ، وذلك لأنهم أثبتوه موجوداً في نظر عقولهم . فأشاروا إليه بحرف الكناية . ثم بدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها . فصار له . ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيماً ، وفخموه توكيداً لهذا المعنى ، فصار بعد التصرفات على صورة قولنا : الله ، وقد يجري على الأصل بلا تفخيم ، كقول الشاعر :

قد جاء سيل كان من أمر الله يحرد حرد الحية المصلة

القول التاسع : أنه مشتق من التأله الذي هو التعبد ، يقال أله يأله إلاهه بمعنى عبد يعبد عبادة ، وكان ابن عباس يقرأ ﴿ ويذرك وإلاهتك ﴾ أي عبادتك والعرب كانوا يسمون الأصنام آلهة ، لأنهم كانوا يعبدونها ، والتأله التعبد قال رؤبة :

---

(١) سورة ق : ٢٢ .
(٢) الشعراء : ٢٣ .
(٣) الشعراء : ٢٤ .

لله در الغانيات المدة سبحن واسترجعن من تأله

ولما كان الباريء سبحانه وتعالى هو المعبود في الحقيقة ، لا جرم سمي إلهاً ، وكيف لا يقول إنه مستحق للعبادة ، وقد بين أنه تعالى هو المنعم على جميع خلقه بوجوه الانعامات ، والعبادة غاية التعظيم ، والعقل يشهد بأن غاية التعظيم لا يليق إلا بمن صدر عنه غاية الانعام والاحسان ، وإليه الاشارة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾[1] اعترضوا على هذا القول من وجوه :

الأول : أنه تعالى كان إلهاً في الأزل وما كان في الأزل عابد يعبده .

الثاني : أن العبادة إنما تجب على العبد بأمر الله ، فلو لم يأمر الخلق بالعبادة لم يكن معبوداً ، فلو كان كونه إلهاً عبارة عن كونه معبوداً ، فتقدير أن لا يأمر عباده بالعبادة يوجب أن لا يكون إلهاً .

الثالث : أنه إله من لا تصح منه العبادة كالجمادات والبهائم .

الرابع : أنه تعالى لو صار إلهاً بالعبادة لكان العابد بعبادته جعله إلهاً ، ومعلوم أن ذلك باطل .

الخامس : يلزم أن تكون الأصنام آلهة . لأن الكفار كانوا يعبدونها .

والجواب : هذه الاشكالات إنما تلزم لقولنا الإله هو المعبود ، أما إذا قلنا الإله هو الموصوف بصفات لأجلها يستحق أن يكون معبوداً للخلق ، زالت الاشكالات .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى إنما استحق أن يكون معبوداً للخلق لأنه خالقهم ومالكهم ، وللمالك أن يأمر وينهي ، وأيضاً أصناف نعمه على العبد خارجة عن الحد والاحصاء ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[2] وشكر النعمة واجب ، وإذا عرف العبد هذه الدقيقة علم قطعاً

---

(١) البقرة : ٢٨ .

(٢) النمل : ٣٤ .

أن طاعته لا توجب على الله شيئاً لأن الخلق السابق ، والنعمة السابقة ، توجب على العبد هذه الطاعات ، وإذاً الواجب لا يوجب عليه شيئاً آخر ، وأيضاً هذه الطاعات لا يليق شيء منه بنعَمه ، وأصناف كرمه ، لأن هذه الطاعات ممزوجة بالتقصير والرياء ، وشهوات النفوس ، فلهذا المعنى صارت نهاية معارف العارفين ، وطاعات المطيعين ، الاعتراف بالقصور ، يقولون ما عرفناك حق معرفتك ، وما عبدناك حق عبادتك . هذا جملة الكلام في اشتقاق هذا الاسم عند من يقول إنها من الأسماء المشتقة .

المسألة الرابعة : وجود الاله في الأزل : إختلف المتكلمون الذين زعموا أن لفظ الإله مشتق من العبودية في أنه تعالى هل هو إله في الأزل أم لا ، وعندي أن هذا الخلاف لفظي لأن من قال الاله هو الذي يستحق أن يكون معبوداً ، قال إنه تعالى إنما يستحق أن يكون معبوداً ؛ لكونه معطياً لأصول النعم ، فلم يكن في الأزل مستحقاً للمعبودية ، فما كان إلهاً في الأزل ، وأما من قال إنه كان إلهاً في الأزل قال الإله هو القادر على ما لو فعله لاستحق العبادة ، فعلى هذا التفسير كان إلهاً في الأزل لأن قدرته على الخلق والايجاد كانت موجودة في الأزل ، فظهر أن هذا الخلاف لفظي .

المسألة الخامسة : التعبير عن اسم الله باللهم : اعلم أنه قد يعبر عن هذا الاسم بعبارة أخرى . فيقال اللهم قال سبحانه وتعالى لأشرف البشر ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾(١) وحكي في الأنفال عن أشد الخلق غلوافي الكفر ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق ﴾(٢) الآية .

واختلف النحويون فقال الخليل وسيبويه ؛ معناه يا الله والميم المشددة عوض من يا ؛ وقال الفراء : كان الأصل يا الله أمنا بخير ؛ فلما كثر في الكلام حذفوا حرف النداء، وحذفوا الهمزة من أم فصار اللهم . نظيره قول العرب هلم . والأصل هل فضم أم لها . وعندي هو الأقرب ويدل عليه وجوه :

---

(١) آل عمران : ٢٦ .
(٢) الأنفال : ٣٢ .

الأول : لو جعلنا الميم قائماً مقام حرف النداء لكنا قد أخرنا النداء عن المنادى وهذا غير جائز . فإنه لا يقال : الله يا .

الثاني : لو كان هذا الحرف قائماً مقام النداء لجاز مثله في سائر الأسماء . فيقال زيدم وبكرم . كما جاز أن يقال يا زيد ويا بكر .

الثالث : لو كانت الميم عوضاً عن حرف النداء لما اجتمعا . وقد اجتمعا في قول الشاعر :

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو صليت يا اللهم[1]

الحجة الرابعة : لم نجد العرب يزيدون هذه الميم في الأسماء التامة . فكان المصير إليه في هذه اللفظة الواحدة على خلاف الاستقراء العام غير جائز .

احتج أصحاب الخليل بوجوه .

الأول : لو كان الأمر كما قاله الفراء لما صح أن يقال اللهم افعل كذا إلا بحرف العطف . لأن التقدير يا الله أمنا وافعل كذا . ولما لم نجد أحداً يذكر هذا الحرف العاطف علمنا فساد قول الفراء .

وجوابه : إن قولنا يا الله معناه يا الله أقصد . فلئن قال بعده واغفر لكان المعطوف مغاير للمعطوف عليه وحينئذ يصير السؤال سؤالين أحدهما قوله أمنا والآخر اغفر لنا ، أما إذا حذفنا العاطف صار قوله اغفر تفسيراً لقولنا أمنا فكان المطلوب في الحالين شيئاً واحداً . فكان آكد .

الحجة الثانية : وهي حجة الزجاج قال : لو كان الأمر كما قال الفراء لجاز أن يتكلم به على أصله فيقال : الله أم كما يقال ويلمه . ثم يتكلم به على الأصل فيقال : ويل أمه .

وجوابه : أن أصل هذه الكلمة أن يقال يا الله أمنا . ومن الذي ينكر جواز

---

(١) وكذلك قول أمية بن أبي الصلت وينسب إلى أبي خراش الهذلي

كنت إذا ما خطب ألما أقول يا اللهمّ يا اللهمّ

التكلم بذلك . وأيضاً فكثير من الألفاظ لا يجوز فيه إقامة الأصل مقام الفرع . ألا ترى أن مذهب الخليل وسيبويه أن قوله ما أكرمه معناه أي شيء أكرمه ثم إنه قط لا يستعمل هذا الكلام الذي زعموا أنه هو الأصل .

الحجة الثانية : لو كان الأمر كما قاله الفراء لكان حرف النداء محذوفاً فكان يجب جواز أن يقال : يا اللهم . بل كان يجب أن يكون ذلك لازماً في قوله يا الله إغفر لي .

وجوابه : أنه يجوز عندنا يا اللهم بدليل الشعر الذي رويناه . وقول البصريين إن هذا الشعر غير معروف . فحاصله يرجع إلى تكذيب النقل . ولو فتحنا هذا الباب لم يبق شيء من النحو واللغة سليماً عن الطعن .

وأما قوله كان يلزم أن يكون ذكر النداء لازماً . قلنا إن ذكر حرف النداء غير لازم البتة في شيء من المواضع . قال تعالى : ﴿ يوسف أعرِض عن هذا ﴾[1] ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾[2] ولأنهم قالوا (يا) مختصة بنداء البعيد ، فلعل الداعي حذف هذه الكلمة لأجل الدلالة على قرب رحمته من لعباد . قال تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾[3] وقال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[4] .

المسألة السادسة : في نقل كلام المشايخ في اسم الله : قال بعضهم : من عرف إلهيته نسي صولته ، كما أن من عرف رحمته نسي زلته . قال الشبلي : ما قال أحد الله سوى الله . وإن من قاله لِحظ وأنّى تدرك الحقائق بالحظوظ ؟! وقال بعضهم من قال الله وقلبه غافل عن الله فخصمه في الدارين الله ، وقال أبو سعيد الجزار رأيت بعض الحكماء فقلت ما غاية هذا الأمر ؟ فقال : الله ، فقلت : ما معنى الله ؟ قال : تقول اللهم دلني عليك ، وثبتني

---

(١) يوسف : ٢٩ .
(٢) يوسف : ٤٦.
(٣) الحديد : ٤ .
(٤) سورة ق : ١٦ .

عندك ، ولا تجعلني ممن يرضى بجميع ما دونك عوضاً منك .

وحكي أن رجلاً كان يجالس الفقراء ، ويلازم السكوت فأطلقوا فيه اللسان فبينا هو جالس يوماً إذ أصاب حجر رأسه فشجه فوقع دمه على الأرض . فكتب الدم الله الله فتحير الفقراء منه .

واعلم أن لله رجالاً إن قاموا قاموا بالله . وإن جلسوا جلسوا بالله . وإن نطقوا نطقوا بالله . وإن سكتوا سكتوا بالله . ولو تكلمت أعضاؤهم وأحشاؤهم لقالت الله الله . كما قال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾[1] .

القول في تفسير قولنا لا إله إلا الله

والكلام فيه مرتب على أقسام الأول فيما يتفرع عليه من المسائل .

ليس في هذا القول حذف ؟ الأولى : زعم أكثر النحويين أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار ، ثم ذكروا فيه وجهين : أحدهما التقدير لا إله لنا إلا الله ؛ والثاني لا إله في الوجود إلا الله .

واعلم أن هذا الكلام فيه نظر عندي ، أما الأول ، فلأنه لو كان التقدير لا إله لنا إلا الله لم يكن هذا الكلام دالاً على التوحيد الحق ، إذ يحتمل أن يقال هب أنه لا إله لنا إلا الله فلم قلتم إنه لا إله لجميع المحدثات إلا الله ، ولهذا السبب أنه تعالى لما قال ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾[2] قال بعده ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وفائدة تكرير التوحيد أنه لما قال ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ بقي لسائل أن يقول : هب أن إلهنا واحد فلم قلتم إن إله الكل واحد فلأجل إزالة هذا السؤال ، قال بعده : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ .

وأما الثاني : وهو قولهم تقدير الكلام لا إله في الوجود إلا الله ، فنقول للقوم : وأي حامل يحملكم على التزام هذا الإضمار ، بل نقول إجراء الكلام

---

(١) النور : ٣٧ .
(٢) البقرة : ٢٦٣ .

على ظاهره أولى ؛ لأنا لو التزمنا هذا الإضمار كان معناه لا إله في الوجود إلا الله ، فكان هذا نفياً لوجود الإله الثاني ؛ وإذا أجرينا الكلام على ظاهره كان نفياً لماهية الثاني ، ومعلوم أن نفي الماهية والحقيقة أولى وأقوى في التوحيد من نفي الوجود ، فثبت أن إجراء هذا الكلام على ظاهره أولى .

فإن قيل : نفي الماهية غير معقول ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بسواد كنت قد حكمت بأن السواد قد انقلب إلى نقيضه ، وقلب الحقائق محال ، أما إذا قلت السواد ليس بموجود كان هذا كلاماً معقولاً منتظماً ، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الإضمار .

والجواب : قولكم نفي الماهية غير معقول ، قلنا هذا باطل ، فإنك إذا قلت السواد غير موجود فقد نفيت الوجود لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية ، فإذا نفيته فقد نفيت الماهية المسماة بالوجود ، وإذا كان كذلك صار نفي الماهية كلاماً معقولاً منتظماً ، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز إجراء هذه الكلمة على ظاهرها !؟

لا يقال : إنا إذا قلنا السواد ليس بموجود فإنا ما نفينا الماهية ، وما نفينا الوجود ، ولكننا نفينا موصوفية الماهية بالوجود . لأنا نقول موصوفية الماهية بالوجود هل هي أمر مغاير للماهية والوجود أم لا ؟ فإن كانت مغايرة لهما كان لذلك المغاير ماهية ، وكان قولنا السواد ليس بموجود نفياً لتلك الماهية ، وحينئذ يعود الكلام المذكور ، وإن لم تكن مغايرة لهما كان نفي هذه الموصوفية إما نفياً للماهية أو للموجود ، وحينئذ يلزم أن تكون الماهية قابلة للنفي ، فثبت أن على التقديرين لا بد من القطع بأن الماهية تقبل النفي ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن بنا حاجة إلى ذلك الإضمار البتة ، فصح أن قولنا لا إله إلا الله يفيد المقصود بظاهره من غير حاجة البتة ، إلى الإضمار .

المسألة الثانية : رأي النحويين في لفظ الله في قولهم لا إله إلا الله :
قال النحويون قولنا لا إله إلا الله أو إلا هو ارتفع فيه هو لأنه يدل عن موضع إلا مع الاسم ، بيانه أنك إذا قلت ما جاءني رجل إلا زيد فزيد مرفوع بالبدلية .

لأن البدل هو الإعراض عن الأول ، والأخذ بالثاني ، فصار التقدير ما جاءني إلا زيد ، وهذا معقول ، لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد ، أما قوله جاءني القوم إلا زيد ، فها هنا البدلية غير ممكنة ، لأنه يصير التقدير جاءني إلا زيد ، وهذا يقتضي أنه جاء كل أحد إلا زيد وذلك محال ، فظهر الفرق .

المسألة الثالثة : محل (إلا) : اتفق النحويون على أن محل إلا في هذه الكلية محل غير ، والتقدير لا إله غير الله ، وهو كقول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك إلا الفرقدان

والمعنى كل أخ غير الفرقدين ، فإنه يفارقه أخوه ، وقال تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[1] قالوا . التقدير غير الله ، والذي يدل على صحة ما قلنا هذا ، أنا لو حملنا إلا على الاستثناء لم يكن قولنا إلا الله توحيداً محضاً ، لأنه يصير تقدير الكلام لا إله يستثنى عنهم الله ، فيكون هذا نفياً لآلهة مستثنى عنهم الله ولا يكون نفياً لآلهة لا يستثنى عنهم الله ، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك وهو كفر ، فثبت أنه لو كانت كلمة إلا محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا إلا الله توحيداً محضاً ، ولما اجتمعت العقلاء على أنه يفيد التوحيد المحض وجب حمل إلا على معنى غير، حتى يصير معنى الكلام لا إله غير الله .

المسألة الرابعة : قال قوم من الأصوليين:الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً . واحتجوا عليه بوجهين : الأول الاستثناء مأخوذ من ثنيت الشيء عن جهته إذا صرفته عنها ، فإذا قلت لا عالم إلا زيد فهاهنا أمران ، أحدهما : الحكم بهذا العدم ، والثاني نفس هذا العدم ؛ فقولك إلا زيداً يحتمل أن يكون عائداً إلى حكمك بهذا العدم ، أو إلى نفس ذلك العدم ، فإن كان الأول لم يلزم تحقق الثبوت ، لأن بسبب الاستثناء زال الحكم بالعدم ، فبقي المستثنى مسكوتاً عنه غير محكوم عليه بنفي ولا إثبات ، وحينئذ لا يلزم

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .

الثبوت ، وأما إن كان تأثير الاستثناء في صرف العدم ومنعه ، فحينئذ يلزم تحقق الثبوت ، لأن عند ارتفاع العدم وجب حصول الوجود ضرورة أنه لا واسطة بين النقيضين .

إذا ثبت هذا فنقول : عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس العدم ، ويدل عليه أمران : أحدهما : أن الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية ، فإنك إذا قلت : العالم قديم فهذا لا يدل على كون العالم قديماً في نفسه ، وإلا لكنا إذا قلنا العالم قديم العالم حادث ، لزم كون العالم قديماً وحادثاً معاً ، وذلك محال ؛ بل هذا الكلام يدل على حكمك بعدم العالم ، فثبت أن الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية ، لا على الأعيان الخارجية ، وإذا كان كذلك كان صرف الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من صرفه إلى العدم ، لأن المدلول القريب للفظ هو الحكم الذهني ، أما الأمر الخارجي فمدلول الذهن ، وصرف اللفظ إلى مدلوله القريب أولى من صرفه إلى مدلوله البعيد .

والثاني : أن عدم الشيء في نفسه ، ووجوده في نفسه ، لا يقبل تصرف العين ، بل حكم ذلك العدم والوجود يقبل تصرف القابل ، وإذا كان كذلك ثبت أن عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عوده إلى المحكوم به .

الحجة الثانية : في بيان الاستثناء من النفي ليس بإثبات ، هو أنه جاء في الحديث ، والعرف صور كثيرة من الاستثناء من النفي مع أنه لا يقتضي الثبوت ، قال عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولي ، ولا صلاة إلى بطهور » ويقال في العرف لا غنى إلا بالمال ، ولا مال إلا بالرجال ، ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط ، أقصى ما في الباب أن يقال : وقد ورد هذا اللفظ في صور أخر ، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي إثباتاً إلا أنا نقول هذا يقتضي أن يكون مجازاً في إحدى الصورتين ، فنقول : إن قلنا أنه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً ، فحيث أفاد ذلك احتمل أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل منفصل ولا يكون ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه .

أما إن قلنا إنه يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً ، فحيث لا يفيد ذلك لزمنا ترك ما دل اللفظ عليه ، ومعلوم أن الأول أولى ؛ لأن إثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة للدليل ، أما ترك ما دل الدليل عليه فيكون مخالفاً للدليل ، فثبت بما ذكرنا أن الاستثناء من النفي لَا يكون إثباتاً .

إذا عرفت هذا فنقول قولنا لا إله إلا الله تصريح بنفي سائر الإلهية ، وليس فيه اعتراف بوجود الله تعالى ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون مجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان ، ومما يؤكد هذا الإشكال أنا قد دللنا على أن كلمة إلا هاهنا بمعنى غير ، وإذا كان كذلك كان قولنا إلا الله معناه غير الله ، فيصير المعنى نفي إله يغاير الله ، ولا يلزم من نفي ما يغاير الشيء إثبات ذلك الشيء وحينئذ يتوجه الإشكال المذكور .

والجواب من وجهين : الأول : أن إثبات الإله سبحانه كان متفقاً عليه بين العقلاء ، بدليل قوله ﴿ ليقولن الله ﴾[1] فكان ذلك مفروغاً عنه متفقاً عليه ، إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد ، فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضداد والأنداد ، فأما القول بإثبات الإله للعالم ، فذاك من لوازم العقول .

الثاني : أن يقول هذه الكلمة وإن كانت لا تفيد الإثبات بأصل الوضع اللغوي إلا أنها تفيده بالوضع الشرعي .

المسألة الخامسة : اعلم أنه يجوز أن يقال لا رجلَ في الدار ، وأن يقال لا رجلُ في الدار ، أما على الوجه الأول فإنه يقتضي انتفاء جميع أفراد هذه الماهية ، والدليل عليه أن قولنا لا رجل يقتضي نفي ماهية الرجل ، ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل فرد من أفراد الماهية ، لأنه لو حصل فرد من أفرادها فقد حصلت ضرورة أنه متى حصل فرد من أفرادها فقد حصلت ، أما قولنا لا رجل في الدار فهو نقيض لقولنا رجل في الدار ، ولكن قولنا رجل في الدار يفيد ثبوت رجل واحد ، وقولنا لا رجل في الدار يوجب انتفاء رجل واحد ، إلا

---

(١) العنكبوت : ٦١ . لقمان : ٢٥ . الزمر : ٣٨ .

أنا حملناه على عموم النفي لأنه لما لم يكن التعيين مذكوراً لم يكن حمله على البعض أولى من حمله على الباقي ، فوجب حمله على نفي الكل ، فثبت أنِ قولنا لا رجلَ في الدار أقوى في عموم النفي من قولنا لا رجلُ في الدار ، ولأجل كون كل واحد منهما يفيد عموم النفي قوى قوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾[1] بالقراءتين ، وكذا قوله : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾[2] ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على عموم النفي ، اتفقوا عليه في قولنا لا إله إلا الله .

المسألة السادسة : من الناس من قال تصور الإثبات مقدم على تصور النفي . بدليل أن الواحد منا يمكنه أن يتصور الإثبات وإن لم يخطر بباله معنى العدم ، ويمتنع عليه أن يتصور العدم إلا وقد تصور الإثبات أولاً ، وذلك لأن العدم المطلق غير معقول ، بل العدم لا يعقل إلا إذا أضيف إلى موجود معين ، فيقال : عدم الدار ، وعدم الغلام .

فثبت أن تصور الإثبات متقدم ، وتصور النفي متأخر ؛ إذا ثبت هذا فما السبب في أن جعل النفي الذي هو فرع متقدماً على الإثبات الذي هو الأصل ؟ والجواب : في تقديم النفي على الإثبات في هذا أغراض .

الأول : أن نفي الربوبية عن غيره ثم إثباتها له آكد في الإثبات ، كما أن القائل إذا قال : ليس في البلد عالم غير فلان ، فإنه آكد في باب المدح من قوله : فلان عالم البلد .

الثاني : أن لكل إنسان قلباً واحداً ، وهو لا يتسع لشيئين دفعة واحدة ، فبقدر ما يبقى مشغولاً بأحد الشيئين يبقى محروماً عن الشيء الثاني ، فقوله لا إله إخراج لكل ما سوى الله عن القلب ، حتى إذا صار خالياً عن كل ما سوى الله ، ثم حضر فيه سلطان إلا الله أشرق نوره إشراقاً تاماً ، وكمل لمعانيه فيه كمالاً ظاهراً .

---

(١) البقرة : ٢ .
(٢) البقرة : ١٩٧ .

الثالث : أن النفي الحاصل بلا يجري مجرى الطهارة ، والإثبات الحاصل بإلا يجري مجرى الصلاة ، فكما أن الطهارة مقدمة على الصلاة ، فكذا وجب تقديم لا على إلا ويجري مجرى تقديم الاستعاذة على القراءة ، وأيضاً من أراد أن يحضر الملك في بيت وجب عليه أن يقدم تطهير البيت عن الأقذار ؛ فكذا ها هنا . ومن هذا قال المحققون : النصف الأول من هذه الكلمات تنظيف الأسرار ، والثاني جلاء الأنوار عن حضرة الملك الجبار . النصف الأول فناء ، والثاني بقاء . الأول انفصال عما سوى الحق ، والثاني اتصال بالحق ، الأول إشارة إلى قوله : ﴿ ففروا إلى الله ﴾[1] والثاني إشارة إلى قوله : ﴿ قل الله ثم ذرهم ﴾[2] .

المسألة السابعة : المعرفة التامة لله : لقائل أن يقول : إن من عرف أن للعالم صانعاً قادراً عالماً موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الإلهية فقد عرف الله معرفة تامة ؛ ثم إن علمه بعدم الإله الثاني لا يزيد الإله كمالاً في صفاته ، لأن عدم غيره لا يكون صفة له ، فضلاً عن أن يكون من صفات كماله ، فما السبب في أن العلم به لا يكفي في حصول السعادة ، بل لا بد مع العلم بوجوده من العلم بعدم الشريك .

والجواب : أن بتقدير وجود الشريك لا يعلم العبد أنه عبد لهذا أو لذاك أو لهما جميعاً ، فحينئذ لا يكون خادماً بكونه شاكراً لمولاه وخالقه ، وأيضاً لم يظهر افتقاره إليه ، لأنه يقول إن كان لا يقبلني فلعله يقبلني شريكه ، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا الواحد فحينئذ يكون مخلصاً في عبوديته والافتقار إليه ، ومخلصاً في أنه لا ملجأ إلا رحمته ، ولا منجا له إلا كرمه وجوده .

المسألة الثامنة : متى يموت الإنسان مؤمناً : المكلف إذا تمم النظر والاستدلال في معرفة الله كما تمم هذه المقدمات ، ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول لا إله إلا الله فها هنا لا شك أنه يكون مات مؤمناً ، لأنه أدى ما

---

(١) الذاريات : ٥٠ .

(٢) الأنعام : ٩١ .

وجب عليه ، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الكلمة ، فأما إذا وجد مهلة في الوقت يمكنه أن يقول فيها لا إله إلا الله فلم يقلها ثم مات ، فهذا الشخص هل مات مؤمناً ؟

من الناس من قال : إنه مات كافراً ، لأن صحة الإيمان والنجاة متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليها ، والدليل عليه أن فرعون كان عارفاً به بدليل قوله تعالى : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات ﴾[1] فمن قرأ بنصب الباء كان ذلك حكماً من موسى عليه السلام بأنه عارف بالله ، فثبت أنه كان عارفاً بربه ، ثم إنه كان كافراً ، فثبت أن المعرفة لا تكفي في حصول الإيمان إلا إذا انضم إليها الإقرار .

ومنهم من قال : إنه مؤمن ؛ لأنه حصل له العرفان التام ، والدليل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » وهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان ، فكيف لا يخرج من النار ؟ بلى إنه يكون فاسقاً بترك الذكر باللسان .

المسألة التاسعة : كيفية التلفظ بالشهادة : من الناس من قال تطويل المدة في كلمة لا من قولنا لا إله إلا الله مندوب إليه مستحسن ، لأن المكلف في زمان هذا التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد ، وينفيها ، ثم بعد ذلك يعقب هذه الكلمة بقوله إلا الله ، فيكون ذلك أقرب إلى الإخلاص ، ومنهم من قال : تركه التمديد أولى ، لأنه ربما مات في زمن التلفظ بلا قبل الانتقال إلى كلمة إلاه .

والذي عندي أن المتلفظ بهذه الكلمة إن كان يتلفظ بها لينتقل من الكفر إلى الإيمان فترك التمديد أولى ، حتى يحصل الانتقال إلى الإيمان على أسرع الوجوه ، وإن كان المتلفظ بها مؤمناً وإنما ذكرها لأجل تجديد الإيمان ، لأجل طلب مزيد الثواب ، فالتمديد أولى حتى يحصّل في زمان التمديد نفي

---

(١) الإسراء : ١٠٢ .

الأضداد والأنداد في خاطره على التفصيل ، ثم يعقبها بقوله إلا الله ، فيكون الإقرار بالإلهية أحق وأكمل .

المسألة العاشرة : مراتب الخلق في التلفظ بالشهادة : اعلم أن الناس في قول هذه الكلمة على مراتب . وطبقات ، فأدناها : من قال بلسانه ؛ فإن ذلك يحقن دمه ، ويحرز ماله ، قال عليه الصلاة والسلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » وهذه درجة يشترك فيها المنافق والموافق ، والزنديق والصديق .

والحاصل : أن كل من نطق بهذه الكلمة نال من بركتها نصيباً ، وأحرز من فوائدها حظاً ؛ فإن طلب بها الدنيا نال الأمن والسلامة من آفاتها ، ولئن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين ، وأحرز بها السعادة في الدارين .

والطبقة الثانية : الذين ضموا إلى القول باللسان الاعتقاد بالقلب : على سبيل التقليد ؛ واعلم أن الاعتقاد التقليدي لا يكون علماً ؛ وذلك لأن العقد ضد الانحلال والانشراح ؛ والعلم عبارة عن انشراح الصدر ، قال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾[1] فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عارفاً ولا عالماً ، وهل يكون مؤمناً ؟ فيه الخلاف المشهور .

الطبقة الثالثة الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية ؛ لكن ما بلغت درجته إلى الدلائل اليقينية :

الطبقة الرابعة : الذين أكدوا تلك العقائد بالدلائل القطعية ، والبراهين اليقينية . إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات ، ولا من أصحاب التجلي .

واعلم أن الإقرار باللسان له درجة واحدة ، وأما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه ؛ ودوامه وعدم دوامه ؛ وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها ؛ فإن المقلد ربما كان مقلداً في أن الله تعال واحـد فقط ،

---

(١) الزمر : ٢٢ .

وربما كان مقلداً في ذلك ؛ وفي أكثر المسائل المعتبرة في صحة الدين ؛ واعلم أنه كلما كان وقوف الإنسان على هذه المطالب أكثر ؛ كان تشوش أمر التقليد عليه أكثر .

وأما المرتبة الثالثة : وهي تقوية الاعتقاد بالدلائل الإقناعية ؛ فمراتب الخلق فيها غير مضبوطة .

وأما المرتبةالرابعة : وهي الترقي من الدلائل الإقناعية إلى الدلائل القطعية ؛ فالأشخاص الذين يصلون إلى هذه الدرجة يكونون في غاية القلة ، ونهاية الندرة : لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين واستعمالها في المطالب ، وذلك في غاية القوة .

وأما المرتبة الخامسة : وهم أصحاب المشاهدات ، فنسبتهم في القلة إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب البراهين القطعية إلى سائر الخلق .

واعلم أن عوالم المكاشفات لا نهاية لها ، لأنها عبارة عن سفر العقل في مقامات جلال الله ، ومدارج عظمته ، ومنازل آثار كبريائه ، وقدسه ، ولما كان لا نهاية لهذه المقامات ، فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات .

واعلم أن أرباب الحقيقة رتبوا لأصحاب المكاشفات مراتب ست ، ثلاث منها لأصحاب البدايات ، وثلاث لأصحاب النهايات ، أما التي لأصحاب البدايات فهي : اللوائح ، واللوامع ، والطوالع ؛ وذلك لأن أرباب البدايات لا يدوم لهم ضياء شموس المعارف . ولكن الحق يؤتى أرزاق قلوبهم وأرواحهم في كل حين . كما قال تعالى ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾[1] كلما أظلمت عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنح فيها لوائح الكشف . وتلألأت لوامع القرب . فتكون أولا لوائح . ثم لوامع . ثم طوالع . فاللوائح كالبروق كلما ظهرت ففي الحال استترت كما قال القائل :

---

(١) مريم : ٦٢ .

وافترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمه عليَّ وداعا

ثم اللوامع أظهر من اللوائح . وليس زوالها بتلك السرعة وقد تبقى وقتين وثلاثة . والطوالع أبقى وقتاً . وأقوى سلطاناً . وأذهب للظلمة . وأبقى للتهمة . ولكنها على خطر الأفول والزوال . وأوقات أفولها طويلة الأذيال . ثم هذه المعاني التي هي اللوائح . واللوامع . والطوالع مختلفة ، فتارة تكون بحيث إذا فاتت لم يبق منها أثر ، وأخرى يبقى عنها أثر . فإن زال رقمه بقي رسمه . وإن عزبت أنواره بقيت آثاره . فصاحبه بعد سكون غليانه يعيش في ضياء بركاته .

أما الثلاثة التي هي لأصحاب النهايات فهي المحاضرة . والمكاشفة ، والمشاهدة فالمحاضرة حضور القلب عند الدلائل ، وقد تكون البراهين متواترة ، وهو نور السير ، ثم يحصل بعد المكاشفة ، وهو أن يصير عند سيره إلى الله غير محتاج إلى تطلب السبيل وتأمل الدليل ، والفرق بين هذه الحالة وما قبلها أنه كان في الحالة الأولى مختاراً في الانتقال من الدليل إلى المدلول ، أما في هذه الحالة فإن انتقاله من الدلائل إلى حضرة الحق لا يكون باختياره بل كلما شاهد شيئاً انعكس نور عقله منه إلى حضرة الحق بغير اختياره ، ثم بعد هذه الحالة مقام المشاهدة ، وهي عبارة عن توالي أنوار التجلي على قلبه من غير أن يتخللها انقطاع ، كما أنا إذا قدرنا حصول توالي البروق في الليلة الظلماء من غير تخلل الفرجة بين تلك البروق فإن على هذا التقدير يصير الليل كالنهار ، وكذلك القلب إذا دام فيه شروق أنوار التجلي استمر نهاره ، وأشرقت أنواره ، وصار كما قيل :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار

وإن أردت لهذه المراتب الثلاث مثالاً : فالمحاضرة كرؤية الشيء في النوم ، والمكاشفة كالشيء الذي يراه الرائي بين النوم واليقظة ، والمشاهدة كالشيء الذي يراه الرائي حال اليقظة ، ثم كما أن الرؤية في اليقظة يختلف حالها بسبب القرب

والبعد ، وصفاء الهواء وظلمته ، وكثرة الموانع وقلتها ، وقوة البصر وضعفه ، فكذا هاهنا .

والمثال الثاني : أن المحاضرة تشبه الجلوس على باب عتبة الملك وراء الباب والمكاشفة تشبه دخول الدار ، والمشاهدة تشبه الوقوف في الموضع الذي لا يكون بينك وبين المطلوب حجاب ، سئل ابن دينار : متى يشهد العارف الحق ؛ فقال إذا تجلى المشاهد ، وفنيت الشواهد ، وبطل الاختصاص ، واضمحل الإخلاص .

واعلم أن هذا المقام لما كان في غاية العلو كان الفتور فيه من أعظم الذنوب ، قال عليه الصلاة والسلام : « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » وفي هذا الحديث وجوه .

الأول : المراد منه ما يغشى قلبه من غفلة ، أو يعترضه من فترة بحكم الجبلة البشرية فكان عند ذلك يفزع إلى الاستغفار .

والثاني : أنه كان عليه السلام أبداً في الترقي ، فإذا انتقل إلى درجة أخرى نظر إلى الدرجة المنتقل عنها ، فكان يستحقرها في العبودية ، فيستغفر الله منها .

والثالث : ربما لاح له شيء من جلايا عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة ، ويبتهج بها ، ثم كان يصير استعظامه لها ، وابتهاجه بها شاغلاً له عن الاستغراق في خدمة الحق ، وكان يستغفر الله منه .

الرابع : كلما لاح له شيء من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح له إنما لاح بقدر قوته وطاقته ، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة إلى جلال الله كالعدم فحينئذ يعلم أن الذي لاح له من عالم الغيب بالنسبة إلى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة للوجود ، فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل إليه قلبه ، وعقله وفكره . وذكره وخاطره .

القسم الثالث

من مباحث لا إله إلا الله
ذكر أسمائها في القرآن

الأول : كلمة التوحيد ، ولها ثمرتان : إحداهما أن جوهر الإنسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾[1] ومن كرامته أن يكون طاهراً ، والمشرك نجس ، قال تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾[2] فالتوحيد يزيل عنه نجاسة الشرك ، فيصير طيباً طاهراً ؛ فيصير من خواص الله تعالى لقوله : ﴿ الطيبات للطيبين ﴾[3] .

الثاني : أن الشرك سبب لخراب العالم . لقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾[4] الآية وإذا كان كذلك وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم . فبالأولى أن يكون سبباً لعمارة القلب الذي هو محل لمعرفة التوحيد . ولهذا صار عادة اللسان الذي هو محل لذكر التوحيد .

الاسم الثاني : كلمة (الاخلاص) ؛ بدليل أن سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تسمى سورة الاخلاص ، وما فيها إلا التوحيد . وإنما كان التوحيد سبباً للاخلاص لأنه إذا عرف أنه لا منجاً ولا ملجأ إلا إليه . ولا رب له سواه . كان اخلاصه حينئذ أتم مما إذا إعتقد أن له مفراً سواه ورباً غيره .

---

(١) الاسراء : ٧٠ .
(٢) التوبة : ٢٨ .
(٣) النور : ٢٦ .
(٤) مريم : ٩٠ .

الاسم الثالث : كلمة (الاحسان) ويدل على هذه التسمية القرآن والخبر ؛ المعقول ، أما القرآن فآيات منها قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾[1] قال المفسرون : معناه هل جزاء من أحسنا إليه بالايمان إلا أن نحسن إليه بالغفران .

وثانيهما قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[2] قوله : أحسنوا هو قول : لا إله إلا الله بإتفاق المفسرين ، وبدليل أنه لو قال ذلك ومات قبل أن يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة ، وقوله : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾[3] واتفقوا علّى أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان : وأشرف كلمات الأذان قول لا إله إلا الله .

وثالثها : قوله تعالى في صفة الكفار : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾[4] فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر ، فكذلك لاحسن أحسن من كلمة التوحيد ولهذا قال في أول سورة المؤمنين : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ثم قال في آخر هذه السورة : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ ثم إنه لما كان قول الموحد حسناً كان مرجعه أيضاً حسناً كما قال أصحاب الجنة ﴿ يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾[5] ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله مظلماً قال الله تعالى : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

ورابعها قوله ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾[6] ولا شك أن الأحسن هو قول : لا إله إلا الله .

---

(١) الرحمن : ٦٠ .
(٢) يونس : ٢٦ .
(٣) فصلت : ٧٣ .
(٤) الأنعام : ٩١ و٩٣ . هود : ١٨ . العنكبوت : ٦٨ . الصف : ٧٢ .
(٥) الفرقان : ٢٤ .
(٦) الزمر : ١٧ و١٨ .

وخامسها قوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾[1] قيل : العدل الاعراض عما سوى الله والاحسان الاقبال على الله .

وسادسها قوله : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾[2] ولا شك أن أول هذا الاحسان قول : لا إله إلا الله .

وأما الخبر . فما روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ للذين أحسنوا ﴾[3] أي للذين قالوا لا إله إلا الله (الحسنى) وهي الجنة (وزيادة) النظر إلى وجه الله الكريم .

وأما المعقول : فهو أن الفعل كلما كان أشد حسناً كان فاعله أشد إحساناً ، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر : لا إله إلا الله ، وأحسن المعارف معرفة . لا إله إلا الله ، وإذا كان كذلك ، كانت هذه المعرفة ، وهذا الذكر إحساناً إلى النفس .

الاسم الرابع : (دعوة الحق) قال في سورة الرعد ﴿ له دعوة الحق ﴾[4] قال ابن عباس هو قول لا إله إلا الله .

وتحقيقه : أنه سبحانه وتعالى واجب لذاته فلا يقبل العدم البتة في ذاته وصفاته ، فكان حقاً من كل الاعتبارات ، وما سواه ممكن ، والممكن يقبل العدم فلم يكن غيره حقاً البتة ، بل باطل ، كما قيل « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وإذا ثبت هذا ، ثبت أن دعوة الحق له وإليه ، لا لغيره ولا إلى غيره .

الاسم الخامس : كلمة (العدل) قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾ قال ابن عباس : العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، والاحسان الاخلاص فيه .

وقال آخرون العدل مع الناس ، والاحسان مع نفسك بالطاعة ، كما قال

---

(١) النحل : ٩٠ .
(٢) الاسراء : ٧ .
(٣) يونس : ٢٦ .
(٤) الرعد : ١٤ .

تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ وقال آخرون : يأمر بالعدل مع الأعضاء والاحسان مع القلب ، بأن يربيه بغذاء المحبة ، وشراب التوحيد .

وقال آخرون : العدل رؤية الافتقار إلى الحق ، والاحسان مشاهدة إحسان الحق على كل الخلق .

الاسم السادس (الطيب من القول) قال ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾[1] ولا كلمة أطهر وأطيب من هذه الكلمة ، بدليل قوله : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾[2] ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفرهم سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة ، وكيف يعقل أن لا يزول وسخ المعاصي بسبب ذكر هذه الكلمة سبعين سنة .

الاسم السابع : (الكلمة الطيبة) قال تعالى : ﴿ كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾[3] وفي تسمية هذه الكلمة بالطيبة وجوه .

الأول : أنها طاهرة عن التشبيه والتعطيل ، فإنها طريقة متوسطة بينهما ، مباينة لكل واحد منهما ، كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم ، وهو مبرأ عنهما .

الثاني : أنها طيبة ، يعني أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا والآخرة ، أما طيب اسمه في الدنيا فلقوله ﴿ الطيبات للطيبين ﴾[4] أراد به المؤمنين والمؤمنات وأما طيب المسكن ، فلقوله تعالى : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾[5] .

والثالث : أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة عند الله تعالى ، قال ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[6] .

---

(١) الحج : ٢٤ .
(٢) التوبة : ٢٨ .
(٣) إبراهيم : ٢٤ .
(٤) النور : ٢٦ .
(٥) التوبة : ٧٢ .
(٦) فاطر : ١٠ .

قال أهل الاشارة السبب في أن هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها ، أنها طيبة ، وقال عليه الصلاة والسلام « إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب » .

الاسم الثامن : (الكلمة الثابتة) قال الله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾[1] وفي معنى هذا الاسم وجوه .

الأول : المذكور ثابت ممتنع التغير ، فيكون الذكر والاعتقاد كذلك .

الثاني : إن هذا القول ثابت لا تؤثر فيه الأعمال ، وهو إشارة إلى أن الايمان لا يزيد بالطاعة ، ولا ينقص بالمعصية .

الثالث : إن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه ، بل هو يؤثر في إزالة الذنب لأن المؤخر وإن عظم ذنبه إلا أنه يرجى له المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[2] .

الرابع : إن هذه الكلمة باقية في الآخرة ؛ لأن أهل الجنة يسقط عنهم جميع الطاعات إلا ذكر التوحيد . قال الله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾[3] ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾[4] ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾[5] .

الخامس : إنها ثابتة ، لأن لها أصلاً محكماً ، وذلك لأن أول من شهد بهذه الشهادة هو الله تعالى ، بدليل قوله : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾[6] فشهادة جميع الخلق فرع ، والأصل هو شهادة الله ، وكل شيء أصله صفة الله فهو ثابت في الدنيا والآخرة .

---

(١) إبراهيم : ٢٧ .
(٢) النساء : ٤٨ .
(٣) فاطر : ٣٤ .
(٤) الزمر : ٧٤ .
(٥) الأعراف : ٤٣ .
(٦) آل عمران : ١٨ .

الاسم التاسع : كلمة (التقوى) قال الله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾[1] وفي سبب هذا الاسم وجوه .

الأول : إن صاحب هذه الكلمة أتقى أن يصفه بما وصفه به المشركون في هذه الآية ، إشارة وبشارة ، أما الإشارة فهي أنه تعالى سمى أهل التقوى فقال : ﴿ هو أهل التقوى ﴾[2] وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى ، فقال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾[3] فكأنه قال : أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة ، وأنت أهل أن تكون ذاكراً لهذه الكلمة ، فما أعظم هذا الشرف .

وأما البشارة فهي قوله : ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهو كريم لا يأخذ الحق من مستحقه ، وأيضاً لما كانوا أهلاً لهذه الكلمة ، وهي أشرف من الجنة ، فلأن يكونوا أهلاً للجنة أولى .

الثاني : إن هذه الكلمة واقية لبدنك عن السيف ، ولمالك عن الاستغنام ، ولذمتك عن الجزية ، ولأولادك عن السبي ؛ فإن انضاف إلى اللسان القلب صارت واقية لقلبك عن الكفر ؛ فإن إنضم التوفيق إليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي ، ثم قال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ أي نحن ألزمناهم هذه الكلمة التي هي المفتاح لباب المحبة ، فنحن أردناهم أولاً ، وهم إنما أرادونا بعد ذلك ، فلنا المنة عليهم في فتح هذا الباب ، فلهذا قال تعالى : ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ أسلامكم بل الله يمن عليكم ﴾[4] .

الاسم العاشر: (الكلمة الباقية) قال المفسرون في قوله ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾[5] أنها قول لا إله إلا الله ، ويدل عليه وجوه .

---

(١) الفتح : ٢٦ .
(٢) المدثر : ٥٦ .
(٣) الفتح : ٢٦ .
(٤) الحجرات : ١٧ .
(٥) الزخرف : ٢٨ .

الأول : ما تقدم مقدمة هذه الآية وهو قوله : ﴿ إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾[1] وكان معنى قوله (إنني براء) نفي الالهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها ، ثم قال : ﴿ إلا الذي فطرني ﴾ فكان فيه إثبات الالهية لله الذي فطره ، فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعهما هو قول : لا إله إلا الله ثم قال : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ فثبت أن المراد من الكلمة الباقية هو قول لا إله إلا الله .

الثاني : قوله تعالى في آخر سورة القصص ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[2] فبيّن أن كل شيء هالك إلا هو ، فإنه واجب الدوام والبقاء بذاته ، وقد عرفت أن القول يتبع المقول ؛ والاعتقاد يتبع المعتقد ، فكان صدق لا إله إلا الله ، وحقيقتها واجب الثبوت والبقاء ، وذلك هو المراد بكون الكلمة باقية .

الثالث : أنّا بينا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية البتة ، والمعصية تزول بسبب التوحيد ، وأيضاً التوحيد يبقى مع أهل الجنة وسائر الطاعات لا تبقى .

الاسم الحادي عشر (كلمة الله العليا) قال تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾[3] واعلم أن السبب في علو هذه الكلمة وجوه .

الأول أن روح الروح هو المعرفة ، قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾[4] قال المفسرون : المراد من الروح ها هنا العلم والقرآن ، فإذا حصلت معرفة التوحيد في الروح والقلب حصلت قوة يصير كل شيء بالاضافة إليها حقيراً ، انظر إلى سحرة فرعون لما تجلى في قلوبهم نور هذه الكلمة ، لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل ،

---

(١) الزخرف : ٢٦ و٢٧ .
(٢) القصص : ٨٨ .
(٣) التوبة : ٤٠ .
(٤) النحل : ٢ .

وإن محمداً عليه الصلاة والسلام لما استغرق في نور هذه الكلمة لم يلتفت إلى ما سوى الله ، كما قال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[1] .

السبب الثاني في استعلاء هذه الكلمة استعلاء هذا الدين على سائر الأديان ، قال تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾[2] .

السبب الثالث : كونها مستعلية على جميع الذنوب ، فالذنب لا يزيلها .

الاسم الثاني عشر (المثل الأعلى) قال تعالى : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾[3] قال قتادة : هو قول لا إله إلا الله ، والمثل الصفة ، قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾[4] أي صفتها .

الاسم الثالث عشر : (كلمة السواء) قال تعالى : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾[5] قال أبو العالية الرماحي : هي كلمة لا إله إلا الله ، والدليل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أن لا نعبد إلا الله ﴾ الآية - ولا معنى لهذه الآيات إلا ما يدل عليه قولنا : لا إله إلا الله ، وإنما سميت كلمة السواء لوجوه .

الأول : أنها هي الصراط المستقيم المستوي بين طرفي الافراط والتفريط .

الثاني : إن جميع العقول معترفة بصحة لا إله إلا الله ، وجميع الألسنة ناطقة بها ، قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾[6] .

---

(١) النجم : ١٧ .
(٢) التوبة : ٣٣ . الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩ .
(٣) النحل : ٦٠ .
(٤) محمد : ١٥ ، الرعد : ٣٥ .
(٥) آل عمران : ٦٤ .
(٦) لقمان : ٢٥ ، الزمر : ٣٨ .

الاسم الرابع عشر : أنها (كلمة النجاة) ويدل عليه القرآن والخبر ، أما القرآن فقوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[١] فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل إلا بهذه الكلمة .

وأما الخبر : فما روى جابر أنه عليه السلام سئل عن الموجبتين فقال : « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار » .

الاسم الخامس عشر : (العهد) قال تعالى : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من إتخذ عنه الرحمن عهداً ﴾[٢] قال ابن عباس : العهد هو قول لا إله إلا الله ، ويدل عليه أيضاً وجوه .

الأول وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعدكم ﴾[٣] والمراد منه عهد الايمان ، لأنه تعالى قال عقيبه : ﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾[٤] فلما ذكر العهد وهو مجمل ، ثم ذكر عقيبه الايمان علمنا أن المراد بذلك العهد هو الايمان .

الثاني : أن قوله ﴿ إلا من إتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ يدل على أن تلك الشفاعة تحصل بعهد واحد ، وكل ما سوى الايمان لا يفيد هذا الملك بالاجماع ؛ فوجب أن يكون المفيد لهذا الملك هو عهد الايمان .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ قل إتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ﴾[٥] أي هل قلتم لا إله إلا الله .

الرابع : إن أول ما وقع من العهود قوله : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[٦] وذلك في الحقيقة هو ، قول : لا إله إلا الله .

---

(١) النساء : ٤٨ و١١٦ .
(٢) مريم : ٨٧ .
(٣) البقرة : ٤٠ .
(٤) البقرة : ٤١ .
(٥) البقرة : ٨٠ .
(٦) الأعراف : ١٧٢ .

الخامس : أنه تعالى قال ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ﴾[1] إلى قوله ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾[2] فكان هذا العهد من جانبك عهد الاقرار بالعبودية ، ومن جانبه عهد كرم الربوبية ، فثبت بهذه الوجوه أن المراد من قوله ﴿ إلا من إتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ هو قول لا إله إلا الله .

الاسم السادس عشر : كلمة « الاستقامة » قال تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾[3] قال ابن مسعود : ثم استقاموا هو قول لا إله إلا الله ؛ وذلك لأن قولهم : « ربنا الله » إقرار بوجود الرب ، ثم من المفسرين بذلك من أثبت له نداً وشريكاً ، فالذي نفوا الشركاء والأضداد هم الذي استقاموا على النهج القويم .

واعلم أن القيمة في القيامة بقدر الاستقامة . والشرك قسمان : ظاهر ، وخفي . أما الظاهر ، فهو المراد بقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾[4] . وأما الخفي فهو طاعة النفس كقوله ﴿ أفرأيت من إتخذ إلهه هواه ﴾[5] وهو المراد من قول الخليل عليه السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾[6] وقوله : ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾[7] وقول يوسف عليه السلام : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾[8] فإن الأنبياء عليهم السلام مبرأون عن الشرك الظاهر .

الاسم السابع عشر : (مقاليد السموات والأرض) قال تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾[9] قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله ، ويدل عليه وجوه .

---

(١) التوبة : ١١١ .
(٢) التوبة : ١١١ .
(٣) فصلت : ٣٠ .
(٤) البقرة : ٢٢ .
(٥) الجاثية : ٢٣ .
(٦) البقرة : ١٢٨ .
(٧) إبراهيم : ٣٥ .
(٨) يوسف : ١٠١ .
(٩) الشورى : ١٢ .

الأول : أنه تعالى بين أنه ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[1] فلما كان الشرك سبباً لخراب العالم لقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ الآية وإذا كان ذلك كذلك كان التوحيد سبباً لعمارة العالم .

الثاني : إن أبواب السماء لا تفتح عند الدعاء إلا بقول لا إله إلا الله ، وأبواب الجنة لا تنفتح إلا بهذا القول ، وأبواب القلب لا تتفتح إلا بهذه الحكمة ، وأنواع الوسواس لا تندفع إلا بهذا القول ، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض .

الاسم الثامن عشر : « القول السديد » قال المفسرون : الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع بمعنى السامع ، وبمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، فإذا حملت السديد على الفاعل كان معناه أنه يسد عن صاحبه أبواب جهنم ، وإذ حملته على المفعول كان معناه أنه جعل مسدوداً عن أن يضره شيء من الشبهات ، أو يهدمه شيء من الذنوب ، وأيضاً أن ذا القرنين بنى السد دفعاً ليأجوج ومأجوج ، فما قدروا على هدمه ، والله تعالى بنى الإيمان سداً لضرر الشياطين ، فكيف يقدرون على هدمه .

الاسم التاسع عشر : (البر) قال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ﴾[2] . والإشارة في الآية أن من كان مشتغلاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر ، وإنما صاحب البر هو الذي يتوجه إلى كعبة التوحيد ؛ فقوله : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ إشارة إلى القول بالشركاء ، وقوله ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ إشارة إلى التوحيد ، فصار معنى الآية هو المفهوم من قول لا إله إلا الله .

الاسم العشرون : (الدين الخالص) قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين

---

(١) الأنبياء : ٢٢ .
(٢) البقرة : ١٧٧ .

الخالص ﴾[1] واعلم أن الدين هو الانقياد والخضوع ، قال عليه الصلاة والسلام في دعائه : « يا من دانت له الرقاب » ، أي خضعت ، فقوله : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي له الخضوع والخشوع لا لغيره ، وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في ألهيته ، إذ لو كان له شريك لما بقي الخضوع الكامل له .

الحادي والعشرون : (الصراط المستقيم) قال تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾[2] وقال : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ﴾[3] وقال : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله ﴾[4] وهو قول لا إله إلا الله ، لأن الموجد والمبدع لما كان واحداً فإذا نسبت الكل إليه كان هذا صراطاً مستقيماً ، وإذا نسبت شيئاً إلى غيره كان صراطاً معوجاً ، ومن كان هذا اليوم على الصراط المستقيم كان في الآخرة عليه أيضاً .

الثاني والعشرون (كلمة الحق) قال تعالى : ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾[5] وهو قول لا إله إلا الله .

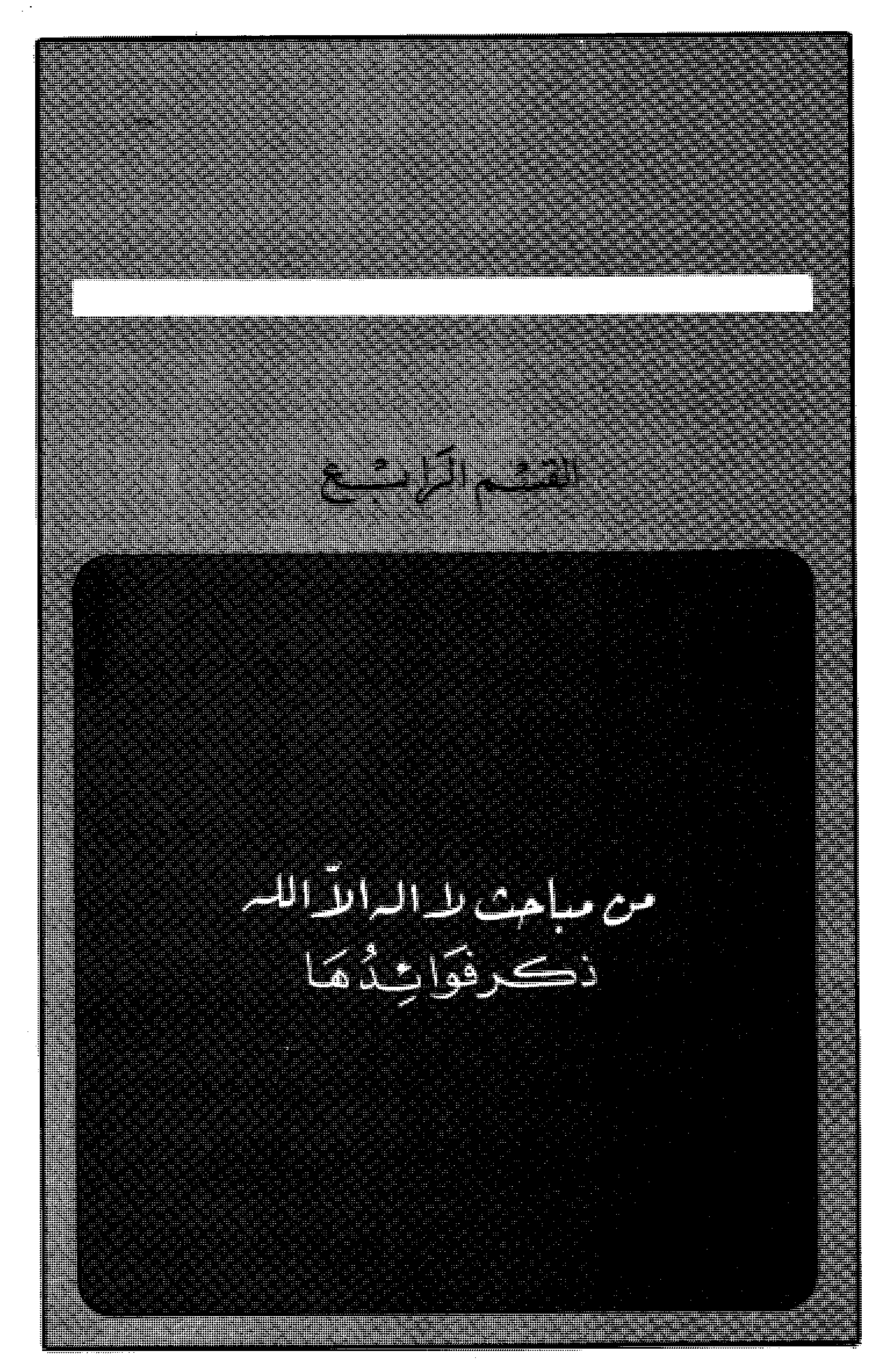
الثالث والعشرون : (العروة الوثقى) قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[6] يعني قول لا إله إلا الله .

الرابع والعشرون : (كلمة الصدق) قال تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾[7] يعني قول لا إله إلا الله .

هذا جملة الكلام في أسماء لا إله إلا الله ، اللهم بحق أسمائك الطاهرة المطهرة المقدسة احفظ بفضلك في قلوبنا معرفة لا إله إلا الله ، وعلى ألسنتنا ذكر لا إله إلا الله .

---

(١) الزمر : ٣ .
(٢) الفاتحة : ٥ .
(٣) الأنعام : ١٥٣ .
(٤) الشورى : ٥٢ و٥٣ .
(٥) الزخرف : ٨٦ .
(٦) البقرة : ٢٥٦ .
(٧) الزمر : ٢٣ .


القسم الرابع
من مباحث لا إله إلا الله
ذكر فوائدها

الأولى : لما كان هذا الذكر أفضل الأذكار ، فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه ، والولي لما جاءته المحنة فزع إليه ، أما العدو ففرعون لما قرب من الغرق ﴿ قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾[1] وأما الولي فيونس عليه السلام ، حيث قالها في الظلمات ، قال تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت ﴾[2] ثم إن هذه الكلمة قبلت من أحدهما ، ولم تقبل من الآخر ، والفرق من وجوه .

الأول : أن يونس كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة فسَبق المعرفة إعانة على قبولها منه ، وأما فرعون فقد تقدم له سبق النكرة ، وذلك لأنه كان ينادي بربوبية نفسه ، قال تعالى : ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[3] وأما يونس فإنه كان ينادي بربوبية الله سبحانه . قال تعالى : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾[4] وقال : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾[5] وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات فإن الله يحفظه في الفلوات .

---

(١) يونس : ٩٠ .
(٢) الأنبياء : ٨٧ .
(٣) النازعات : ٢٣ و٢٤ .
(٤) القلم : ١٨ .
(٥) الصافات : ١٤٣ .

الثاني : أن يونس قال هذه الكلمة عن الحضور ، فقال ﴿ لا إله إلا أنت ﴾ وأما فرعون فإنه قالها عن الغيبة ﴿ لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على بني إسرائيل .

الثالث : أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية ، بل لخلاص نفسه من الغرق ، . وأما يونس فإنه إنما قالها بسبب ما كان عنده من الانكسار بسبب التقصير .

الفائدة الثانية لهذه الكلمة : أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة من الصلاة ، والصوم ، والحج ، ولكنه ما وافقك على شيء منها ثم أمرك بأن تقول : لا إله إلا الله ووافقك عليها ، قال ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾[1] .

الفائدة الثالثة : أن كل طاعة فإنه يصعد الملك بها ، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه ، دليله قوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[2] .

الرابعة : قال بعضهم : الحكمة في قوله تعالى ﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت ﴾[3] أن يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله فيضمحل في ذلك النور نور الشمس والقمر ، لأن تلك الأنوار أنوار مجازية ونور لا إله إلا الله نور ذاتي حقيقي ، والمجاز يبطل عند ظهور الذاتي الحقيقي .

الخامسة : أن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصوم والصلاة أما طاعة الذكر فإنها لا تزول .

السادسة : روي في الآثار أنه « إذا قال العبد لا إله إلا الله أعطاه الله من الثواب بعدد كل كافر وكافرة » والسبب فيه : أنه لما قال هذه الكلمة فكأنه قد رد على كل كافر وكافرة ، فلا جرم يستحق الثواب بعددهم .

---

(١) آل عمران : ١٨ .
(٢) فاطر : ١٠ .
(٣) التكوير : ١ و٢ .

السابعة : قال السدي في تفسير حمعسق : الحاء حلمه ، وحكمه . وحجته ، والميم ملكه ، ومجده . والعين عظمته ، وعلوه وعزته ، وعلمه ، وعدله . والسين سناؤه ، وسره . والقاف قهره ، وقدرته ، يقول الله تعالى : ﴿ بحلمي ، وحكمتي وحجتي ، ومجدي وملكي ، وعظمتي ، وعدلي وعلمي وعزتي ، وعلوي وسري ، وسنائي ، وقدرتي وقهري لا أعذب في النار من قال لا إله إلا الله ﴾ .

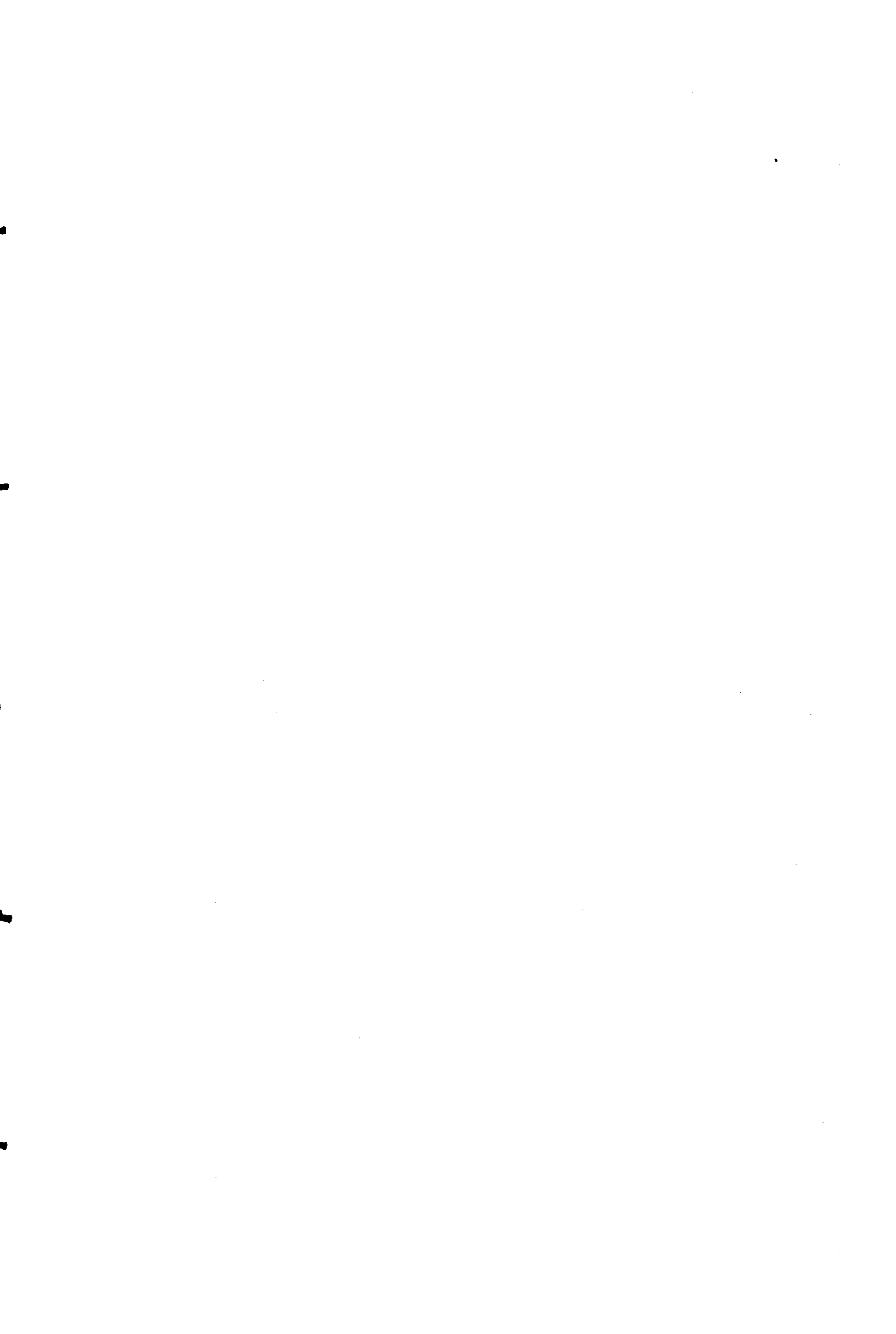
الثامنة : قيل : إذا كان آخر الزمان لم يكن لشيء من طاعاتهم فضل كفضل لا إله إلا الله ؛ لأن صلاتهم وصيامهم يشوبها أنواع من الرياء والسمعة ، ولا إخلاص في شيء منها ، أما كلمة لا إله إلا الله فهي ذكر الله ، والمؤمن لا يذكرها إلا عن تصميم القلب .

التاسعة : روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا عند النشور ، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله عند الصيحة ينفضون شعورهم من التراب ، ويقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » .

العاشرة : روى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من عبد يقول أربع مرات اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك ، وإني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، إلا كتب الله له به صكاً من النار » .

القسم الخامس

من مباحث كلمة لا إله إلا الله
ما قيل في وجوهها



الأول : قال ابن عباس : لا إله إلا الله لا نافع ولا ضار ، ولا معز ولا مذل ، ولا معطي ولا مانع إلا الله .

الثاني : لا إله يرجى فضله ، ويخاف عدله ، ويؤمن جوره ، ويؤكل رزقه ، ويترك أمره ، ويسأل غفره ، ويرتكب نهيه ، ولا يحرم فضله إلا الله الذي هو رب المؤمنين ، وغفار ذنوب المذنبين ، وملجأ التائبين ، وستار المعيبين ، وغاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين .

الثالث : قول العبد : لا إله إلا الله إشارة المعرفة ، والتوحيد بلسان الحمد ، والتسديد إلى الملك الحميد ، فإذا قال العبد : لا إله إلا الله فالمعنى لا إله له الآلاء والنعماء والقدرة والبقاء ، والعظمة والسناء ، والعز والثناء ، والسخط إلا الله الذي هو رب العالمين ، وخالق الأولين والآخرين ، وديان يوم الدين .

الرابع : لا إله للرغبة ، ولا إله للرهبة إلا الله ، الذي هو كاشف الكربة ؛ روي عن عمران بن حصين قال النبي ﷺ لي : « يا حصين كم تعبد اليوم من إله فقال : أعبد ستاً أو سبعاً في الأرض ؛ وواحداً في السماء فقال عليه الصلاة والسلام : وأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك ؟ فقال : الذي في السماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : فيكفيك إله السماء ؛ ثم قال : يا

حصين لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك فأسلم حصين ثم قال : يا رسول الله علمني هاتين الكلمتين ، فقال : قل اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » .

الخامس : قيل في قوله ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾[1] يشهد في عالم القدس وحظائر الجلال ، وسرادقات الصمدية ، والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السموات ، وأولو العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين .

القول في تفسير (الرحمن الرحيم) وفيه مسائل

المسألة الأولى : اتفق أكثر العلماء على أن اسم الرحمن عربي لفظه .
وقال ثعلب إنه عبراني الأصل وكان رخماناً بالخاء المعجمة من فوق ، فنقل إلى العربية ، وأبدلت حاء مهملة ، وحذف الألف ، فقيل الرحمن ، واحتج عليه بوجوه .

الأول : لو كان هذا الاسم مشتقاً من الرحمة لما أنكرته العرب حين سمعوه لأنهم ما كانوا ينكرون رحمة ربهم ، لكن الله تعالى قد حكى عنهم الإنكار ، والنفور عنه ، في قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾[2] .

الثاني : لو كان هذا الاسم مشتقاً من الرحمة لحسن وصله بذكر المرحوم فجاز أن يقال : الله رحمن بعباده ، لا كما يقال رحيم بعباده ، فلما لم يحسن وصله بذكر المرحوم دل على أنه غير مشتق من الرحمة .

الثالث : لو كان مشتقاً من الرحمة لكان الرحمن أشد مبالغة من الرحيم ، فإن هذا الثناء يفيد المبالغة ، كقولهم : إناء ملآن ، ورجل غضبان ، وشبعان ، وريان أي ممتلىء من الغضب والشبع والماء ، وإذا كان

---

(١) آل عمران : ١٨ .
(٢) الفرقان : ٦٠ .

الرحمن أشد مبالغة من الرحيم كان تقديم الرحيم على الرحمن أولى في الذكر ، ألا ترى أنه يقال : فلان عالم كثير العلم ولا يقال كثير العلم عالم ، فلما تأخر ذكر الرحيم عن الرحمن علمنا أن الرحمن اسماً مشتقاً من الرحمة .

الرابع : أن رحمانا لا شك أنها كلمة عبرانية ، والعرب ما استعملوا هذه اللفظة قبل نزول القرآن ، فعلمنا أنها لفظة عبرانية ، هذه جملة الوجوه التي تمسك بها ثعلب في صحة قوله .

أما الأكثرون فقد اتفقوا على أن هذه اللفظة عربية ، واحتجوا عليه بالقرآن والخبر ، أما القرآن فقوله ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾[١] وقال ﴿ بلسان عربي مبين ﴾[٢] وقال ﴿ وما أرسلنا من رسول الله بلسان قومه ﴾[٣] ولفظ الرحمن مذكور في مواضع كثيرة من القرآن ، فلو لم يكن عربياً ، أو كان في القرآن ما ليس بعربي من لغة العرب لدخل الخلف في الآيات التي تلوناها ، وكل قول يؤدي إلى ذلك فهو باطل ، فثبت أن لفظ الرحمن لفظة عربية .

أما الخبر : فما روى أبو الدرداء قال : « سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه تعالى : ﴿ أنا الرحمن وهي الرحم شققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته ﴾ ، ثم أبته » فهذا الخبر يدل على أن لفظة الرحمن عربية .

أما الشعر : فقول عمرو بن زيد بن نفيل :

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبي الرب الغفور

وقال آخر :

سموت للمجد يا بن الأكرمين أبا فأنت غيث الورى ما زلت رحمانا

وكان مسيلمة الكذاب قد تسمى بالرحمن . وكل ذلك يدل على أن هذه اللفظة عربية .

---

(١) الزخرف : ٣ .
(٢) الشعراء : ١٩٥ .
(٣) إبراهيم : ٤ .

أما الجواب عما تمسك به ثعلب فهو . أن العرب إنما أنكروا الرحمن لا لأجل ما ذهب إليه ثعلب لكن لأجل أنهم كلما سمعوا قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو أدعوا الرحمن ﴾[1] توهموا أن الله غير الرحمن ، فأنكروا الرحمن بهذا الخيال ، لا لأجل أنهم ما عرفوا هذه اللفظة في لغتهم .

والجواب عن الثاني : إنما لم يحسن أن يقال إنه رحمن بعباده ، لأن هذا يوهم أن كونه رحماناً مختص بعباده وليس الأمر كذلك ، فإن كونه تعالى رحماناً يقتضي عموم رحمته في الدنيا والآخرة وفي حق البر والفاجر ، وأما الرحيم فهو المختص بالمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[2] .

والجواب عن الثالث : أن ذِكر الرحيم بعد الرحمن إنما كان لتخصيص المؤمنين بزيادة بعد عموم البر والفاجر ، فالله تعالى رحمن يرحم البر والفاجر في الرزق ، وفي دفع الأسقام ، والمصائب ، والدواهي ، وهو رحيم يرحم المؤمنين خاصة بالهداية ، والمغفرة ، وإدخال الجنة .

والجواب عن الرابع : أن ورود ما يشبه هذه اللفظة في العبرانية لا يقدح في كونها عربية لاسيما وبين العربية والعبرانية مشابهات كثيرة في الألفاظ .

المسألة الثانية : اختلف العلماء في معنى الرحمن : فقال بعض المحققين : الرحمة من صفات الذات ، وهي إرادة إيصال الثواب والخير ، ودفع الشر ، وعلى هذا التقدير كان الباري في الأزل رحماناً رحيماً لأن إرادته أزلية ، ومعنى ذلك أنه تعالى أراد في الأزل أن ينعم على عبيده المؤمنين فيما لا يزال ، وقال آخرون الرحمة من صفات الفعل ، وهي إيصال الخير ، ودفع الشر .

واحتج الأولون : بأنه يصلح أن يقال : رحمته وما أنعمت عليه ، وأن يقال : أنعمت عليه وما رحمته ، وذلك يدل على أن الرحمة ليست إسماً

---

(١) الإسراء : ١١٠ .
(٢) الأحزاب : ٤٣ .

لذلك الفعل ، ألا ترى أن من رأى إنسانا في بلاء وشدة ، وأراد أن يدفع ذلك البلاء عنه ، ولم يقدر عليه صح أن يقال : إنه رحمة ولكنه ما قدر على أن ينفعه ، وقد يقال أيضاً : دفعت البلاء عنه ، وإن كنت ما رحمته ؛ فهذا النفي والإثبات يدل على أن الرحمة نفس الإرادة لا الفعل .

واحتج من قال : إن الرحمة اسم للخير بوجوه .

أحدها : أنه تعالى سمى الخير رحمة ، فقال : ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾[1] وسمى المطر رحمة ، فقال : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾[2] وهذا يدل على أن الرحمة اسم للنعمة لا لإرادة النعمة .

الثاني : أنه يجوز وصف الرحمة بما لا يجوز وصف الصفات الأزلية به ، فوجب أن لا تكون الرحمة عبارة عن الصفة الأزلية .

بيان المقام الأول : أنه يقال هذه الرحمة عامة ، وهذه الرحمة خاصة ، ولا يجوز أن يقال هذه الإرادة عامة ، وهذه الإرادة خاصة ، وقال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[3] ولا يجوز أن يقال : إرادة الله قريبة من المحسنين ، وروي عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ إن لله مائة رحمة ، وإنه أنزل منها واحدة إلى الأرض فقسمها بين خلقه ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وأخرَّ تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة ﴾ ومعلوم أن هذه الأحكام لا تليق بصفة الله تعالى وبإرادته ، وقال تعالى : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾[4] وقسمة الإرادة ممتنعة ، أما قسمة النعمة فممكنة ، وقال : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة ربك ترجوها ﴾[5] وهذا لا يليق بالإرادة . إنما يليق بالنعمة .

---

(١) الإنسان : ٣١ .
(٢) الأعراف : ٥٧ ، الفرقان : ٤٨ .
(٣) الأعراف : ٥٦ .
(٤) الزخرف : ٤٢ .
(٥) الإسراء : ٢٨ .

وأجاب الأولون عن الأول : أنه إنما سمى الجنة والمطر رحمة على سبيل الاتساع والمجاز على معنى أن النعمة لما كانت صادرة عن الرحمة أطلق اسم السبب على المسببْ ، كما يقال : هذا قدرة الله تعالى ، وهذا علم فلان ، تسمية للمقدور بالقدرة ، والمعلوم بالعلم .

وأجابوا عن الثاني : بأن إطلاق لفظ الرحمة على النِّعم والخيرات إنما كان على سبيل المجاز ، ووجهه ما قررناه .

إذا عرفت هذا فنقول : المشهور أن الرحمة عبارة عن إرادة إيصال الخير إلى من هو أدون منه ، وفيه نظر ؛ لأن على هذا التقدير لا يبقى فرق بين الرحمة والنعمة ، وليس الأمر كذلك ، بل الرحمة كأنها مخصوصة بدفع البلاء ، فإذا أنعم عليه نعمة أوجبت تلك النعمة دفع البلاء عنه سميت تلك النعمة رحمة ، من حيث أنها أوجبت زوال البلاء .

المسألة الثالثة : **اتفق أصحابنا على أنه ليس لله تعالى في حق الكافر نعمة في الدين** ، واختلفوا في أنه هل لله تعالى في حق الكافر نعمة دنيوية أيضاً أم لا ؟

فقال قوم من أصحابنا لأنه ليس لله تعالى في حق الكافر نعمة دنيوية أيضاً ، وأن كل ما فعل بهم من الصحة ، والسلامة ، واللذات ، والمنافع ، إنما هي استدراج ، وذلك بمنزلة الطعام المسموم الذي ينتفع به آكله في الحال ، ثم يعقبه العطب والهلاك ، وعند هذا القائل النعمة المنفعة الخالصة عن الضرر المساوي أو الزائد .

أما المعتزلة : فقد اتفقوا على أن لله على الكافر نعماً في الدين والدنيا أما النعم في الدين فهي خلق الدلائل ، والأقدار ، والتمكين ، ورفع الموانع ، وأما النعم في الدنيا فهي الصحة ، واللذة .

واحتج أصحابنا على أنه تعالى لم ينعم على الكافرين بقوله تعالى : ﴿ أيحسبون أنما تمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا

يشعرون ﴾[1] فمنع أن يكون ذلك خيراً لهم ، فوجب أن لا يكون نعمة ، وأيضاً قال : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم أن كيدي متين ﴾[2] والإملاء المتعلق بالكيد المتين لا يكون نعمة ، إنما النعمة ما لها عاقبة محمودة .

واحتج المخالف بقوله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾[3] فسمى ما كان لهم من اللذات ، وما يؤدي إليها نعمة ، وإن كان عاقبتهم الهلاك ، وأيضاً قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾[4] وهذا يدل على أن لله في حق الكفار نعماً في الدنيا .

والجواب : أنه تعالى إنما سمى ذلك نعمة صورة لا حقيقة ، على معنى أنهم لو كانوا مؤمنين لكانت هذه الأشياء نعمة ظاهراً وباطناً ، ولكنهم لما كانوا كافرين كانت هذه الأشياء في الظاهر نعمة ؛ وفي الحقيقة ليست بنعمة ، فإنها صارت سبباً لبقائهم على الكفر ، وتماديهم في الطغيان ، واستحقاقهم العذاب الدائم ، وما يكون كذلك امتنع أن يكون نعمة ، بل ذلك بمنزلة الطعام المسموم اللذيذ ، فإن ظاهره وإن كان نعمة ؛ لكن باطنه عذاب .

فإن قيل : إن ما يأكلونه ويشربونه ، وما حصل لهم من الصحة والسلامة ليس شيء منها سبباً للعذاب ، وهم لا يستحقون عليها في الآخرة شيئاً من العقاب بل إنما يستحقونه على كفرهم ومعاصيهم .

قلنا : إن إستعمالهم تلك اللذات يجعلهم مستغرقين في طلب اللذات الفانية ، ويصدهم عن السعادة في الآخرة ، فيعود الأمر إلى ما ذكرناه .

---

(١) المؤمنون : ٥٥ و٥٦ .
(٢) القلم : ٤٤ و٤٥ .
(٣) الدخان : ٢٥ و٢٦ و٢٧ .
(٤) النحل : ١١٢ .

المسألة الرابعة : اعلم أن رحمة الله سبحانه وتعالى أكمل من رحمة العباد بعضهم لبعض : ويدل عليه وجوه .

الأول : إن حصول الرحمة في قلب العبد بدلاً عن القسوة والغلظة أمر جائز الوجود ، والمحدث الجائز لا يوجد إلا لمرجح ومخصص ، وهذا يقتضي القطع أن خالق تلك الرحمة في قلب العبد هو الله سبحانه وتعالى ، فلولا رحمة الله تعالى لما خلق الرحمة في قلب العبد ، فثبت أن رحمة الله تعالى أكمل وأقدم من رحمة العبد .

الحجة الثانية : أن العبد ما لم يحصل في قلبه نوع رأفة لم يرحم ، فإذا تأمل المتأمل أن مقصود العبد من تلك الرحمة إنما هو دفع تلك الرقة الحسية عن القلب ، فهو بالحقيقة إنما يرحم غيره ليتخلص عن ألم تلك الرقة ، والحق منزه عن الرقة ، ولا تكون رحمته لهذا المعنى ؛ بل رحمته بمحض الفضل والاحسان ، ولنحقق هذا الكلام بالأمثلة .

فالأب إذا أحسن إلى ولده فهو في الحقيقة إنما أحسن إلى نفسه ، لأنه إذا اختلت مصالح الولد تألم قلب الوالد ، فإذا أحسن إلى الولد إنتظمت مصالحه ، فزال ذلك الألم عن قلب الولد ، فالأب إنما أحسن إلى الابن لتحصيل هذا المقصود لنفسه .

والسيد إذا أحسن إلى عبده فإنما أحسن إليه لينفعه ، فيجد منه ربحاً أو ليقوم بخدمته ، فيكون مقصود السيد من ذلك الاحسان إلى العبد إنما هو تحصيل مصلحة نفسه .

والانسان إذا وهب ، وتصدق ، وزكى ، فإنما يفعل ذلك ليشتهر فيما بين الخلق بكونه جواداً كريماً ، أو ليفوز في الآخرة بالثواب ، ويتخلص من العقاب ، فهو بالحقيقة إنما أحسن لغرض نفسه .

أما الحق سبحانه وتعالى فإنه كامل لذاته ، منزه عن وجوه النقائص والآفات فكان إحسانه بمحض إيصال النفع إلى الغير لا لغرض يعود إليه من

جلب نفع أو دفع ضرر ، فكان الجواد المطلق ، والرحيم المطلق ، والمحسن المطلق ، هو الحق سبحانه وتعالى .

الحجة الثالثة : أن العبد قد يرحم عبداً آخر ، أو يحسن إليه ؛ ولكن الانتفاع بذلك الموهوب لا يكمل إلا عند العين الباصرة ، والأذن السامعة ، والمعدة الهاضمة ، والصحة في البدن ، فهب أن الأمير أعطى الدار الحسنة ، والبستان الطيب ، فلولا أنه تعالى خلق الصحة . والحواس السليمة لما أمكن الانتفاع بها . ومن المعلوم أن هذه الأشياء أعظم قدراً ، وأجل خطراً من الأشياء التي يهبها بعض العباد من بعض .

ونـأمل الآن في أصل جميع النعم : وهي الحياة في الصحة ، ثم في سلامة الأعضاء والحواس ، ثم في كمال العقل ، ثم في تحصيل الأمن والسلامة من البلاء ، فإنك تجد في كل ذرة من ذراتها أعظم من ملك الدنيا ، فحينئذ يعلم أن رحمة الله ، وإحسانه مع عبيده أتم وأكمل من رحمة كل رحيم ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[1] فثبت أن كمال الرحمة ليس إلا لله .

الحجة الرابعة : أن العبد إذا أحسن إلى الغير انتقصت خزانته ، وصار فقيراً بقدر ما أعطى ، وحصول الفقر والنقصان مانع من الاحسان ، والحق سبحانه وتعالى وإن أعطى جميع مخلوقاته ، لأقل عبيده ، فإنه لا يدخل في ملكه فقر . ولا نقصان البتة ، لأن مقدوراته غير متناهية ، فإذاً الداعي إلى الاحسان في حق العبد معارض بالصارف عنه ، وفي حق الله تعالى ليس كذلك فوجب أن يكون إحسان الله تعالى ورحمته أكمل من إحسان العبد ورحمته .

فإن قال قائل : ها هنا سؤالان . السؤال الأول : الرحمة في حق العبد لا تنفك عن رقة مؤلمة تحصل في قلب الرحيم ، فتحركه إلى قضاء

---

(١) إبراهيم : ٢٤ . النحل : ١٨ .

حاجة المرحوم ، والرب تعالى منزه عن ذلك ، وإذا كان الأمر كذلك لزم أن تكون رحمة العباد أكمل من رحمة الله ؟.

الجواب : إن كمال الرحمة إما أن تظهر بكمال ثمرتها ، ومهما قضيت حاجة المحتاج بكمالها لم يكن للمرحوم حظ في تألم الراحم ، وتفجعه ، وإنما تألم الراحم لضعف نفسه ونقصانها ، ولا يزيد ضعفها في غرض المحتاج شيئاً ، بعد أن قضى كمال حاجة المرحوم .

السؤال الثاني : ما معنى كونه رحيماً ، وكونه أرحم الراحمين ، فإن الرحيم إذا رأى مبتلى أو معدوماً ، وهو يقدر على إزالة البلاء عنه فإنه لا بد وأن يزيله ، والرب سبحانه وتعالى قادر على إزالة كل محنة ، ودفع كل بلية ، ثم نرى الدنيا طافحة بالشرور والآفات ، والمحن والبليات ، وهو تعالى قادر على إزالتها ، ثم إنه لا يزيل شيئاً منها ، بل نرى أنه خلق السباع والمؤذيات ، وسلط بعضها على بعض حتى أن بعضها يقتل بعضاً ، وبعضها يقتدي من بعض ، فكيف تتحقق الرحمة مع أن الأمر كذلك ؟

والجواب : الخلق ها هنا على ثلاثة مقامات :

الأول : قول الفلاسفة : فإنهم قالوا الأقسام العقلية خمسة ، فإن الشيء إما أن يكون خيراً محضاً ، أو شراً محضاً ، أو مشتملاً على الاعتبارين ، وهذا القسم الثالث إما أن يكون خيره معادلاً لشره ، وإما أن يكون خيره غالباً أو شره غالباً . إذا عرفت هذا فنقول :

أما الأقسام الثلاثة ، وهو الذي يكون شراً محضاً ؛ أو شره غالباً ؛ أو معادلاً فهذا غير موجود البتة ؛ بقي ها هنا قسمان : أحدهما : أن يكون خيراً محضاً ؛ ولا كلام في أن الحكمة تقتضي تحصيله ، والثاني : الذي يكون خيره غالباً على شره ويكون بحيث يمتنع أن ينفك ذلك الخير الغالب عن ذلك الشر المغلوب ؛ فهذا القسم أيضاً الحكمة تقتضي إيجاده ؛ لأن ترك الخير الكثير ؛ لأجل الشر القليل شر كثير ؛ وإذا كان الأمر كذلك صار الخير مقضياً ؛ ومراد بالذات ، وصار ذلك الشر القليل الذي هو من لوازم ذلك

الخير الكثير مقضياً ، ومراداً بالتبع ، والغرض ، وعند هذا قالوا جميع الشرور الحاصلة في العالم من هذا القسم .

وليس لأحد أن يقول فلم لم يجعل الخالق القادر ذلك الخير الغالب عن ذلك الشر النادر ؛ مميزاً بما كان ممتنعاً لذاته ؛ فلم يكن ذلك عجزاً في حق الخالق ، لأن العجز ، إنما يحصل عند كونه في نفسه ممكناً ، فأما إذا كان ممتنعاً لذاته لم يلزم العجز ، فهذا حاصل مذهب الفلاسفة في هذا الباب .

والقول الثاني : قول المعتزلة : وهو أن كل ما حصل في هذا العالم من أنواع الأمراض والآلام فعل الله تعالى ، فإنه سبحانه وتعالى فعلها لأجل الاعتبار والعوض ، أما الاعتبار فإن ذلك يصير لطفاً داعياً للمكلف إلى فعل الواجبات ، والاحتراز عن المقبحات ، وبهذا الوجه يخرج فعل هذه الآلام عن كونه عبثاً ، وأما لعوض فهو تعالى يعطي ذلك الحيوان في الآخرة من المنافع ، ما لو علم ذلك الحيوان مقادير تلك المنافع رضي بتحمل هذه الآلام في الحال ، ليصل إلى تلك المنافع فيما بعد ذلك ، وبهذا الوجه يخرج فعل تلك الآلام عن أن يكون ظلماً .

القول الثالث : قول أهل السنة : وهو أن الرحيم هو الذي يفعل الرحمة ، ويوصل النعمة ، وليس من شرط كونه رحيماً أن لا يفعل إلا الرحمة ، فهو تعالى رحيم ، كريم ، جواد ، ودود ، رؤوف في حق بعض عباده . وقهار جبار منتقم في حق آخرين . فهو تعالى قابض ، باسط ، ضار ، نافع ، معز ، مذل ، محي ، مميت . بحسب الاعتبارين . ولم تكن رحمته وإحسانه معللاً بإستحقاق مستحق أو بسبب طاعة مطيع ، ولم يكن قهره معللاً بإستحقاق مستحق ، أو بسبب معصية عاص . فإنه وإن كان التفاوت في القهر واللطف لأجل التفاوت في الاستحقاق ؛ فمن أين حصل ذلك التفاوت في الطاعة والمعصية ؟ فلم صار هذا مطيعاً وذاك عاصياً مع التساوي في القدرة والصلاحية ؟ بل كل أحد يعلم أن هذا صار مطيعاً . لأنه تعالى خلق في قلبه ما يدعوه إلى الطاعة . وإنما صار العاصي عاصياً . لأنه تعالى خلق في قلبه

إرادة المعصية . وعند هذا يظهر أنه لا نهاية لرحمته . ولا نهاية أيضاً لقهره . وإن رحمته غير معللة البتة بشيء من أفعال الخلق ، وقهره غير معلل بشيء من أفعال الخلق . وإن كل ما حصل للخلائق من صفاتهم وأفعالهم وأحوالهم فهو من الحق . وبإيجاده وتكوينه ، وكيف يمكن تعليل فعله ؟!.

ولهذا المعنى قال أبو بكر الواسطي : لا أعبد ربا ترضيه طاعتي ، وتسخطه معصيتي ، ومعناه أنه لو صارت طاعة العبد علة لحصول رضا الخالق ، وذنبه علة لحصول سخط الخالق ، لكان العبد مغيراً لصفة الحق ، ومؤثراً في تبديل أحوال الحق ، وذلك محال ، بل رضاه هو الذي حمل المطيعين على الطاعات ، وسخطه هو الذي حمل العصاة على المعاصي ، وكل شيء صُنعه ، ولا علة لصنعه . هذا شرح مذاهب الخلق في هذا الباب .

السؤال الثالث : قالت المعتزلة : إن إثبات صفة الرحمة لا يستقيم على قول أهل السنة ، وذلك لأن مذهبهم أنه تعالى خلق الكفر في الكافر ، وخلق فيه قدرة لا تصلح إلا للكفر ، وإرادة لا تصلح إلا للكفر ، وداعية لا تصلح إلا للكفر ، وسلب عنه الايمان ، وما أعطاه قدرة صالحة للايمان ، ولا إرادة صالحة له ، ولا داعية صالحة له ، فهذه أسباب ثمانية ، كل واحد منها مستقل بتحصيل الكفر على سبيل الوجوب ، وتحصيل المنع من الايمان على سبيل الوجوب ، ثم إنه تعالى اقتضت قدرته القديمة تحصيل الكفر فيه ، وخبره القديم المتعلق بكونه كافراً تحصيل الكفر فيه ، فيصير المجموع أربعة ؛ وكلما اقتضت هذه الوجوه الأربعة تحصيل الكفر فيه ، فأيضاً لم تتعلق قدرة الله بتحصيل الايمان فيه ؛ ولا إرادته ، ولا علمه ، ولا خبره ، فهذه أربعة أخر مانعة من حصول الايمان ، فصار المجموع ستة عشر وجهاً ، وكل واحدة منها سبب مستقل مؤثر . موجب لحصول الكفر ، والمنع من الايمان .

ثم مع تأكد هذه الأسباب ، وقوة هذا المؤثرات ، يكلفه بالايمان ، ويقول : إن لم تؤمن عذبتك أبد الآباد ، ودهر الداهرين ، أنواعاً من العذاب لا تبلغ العقول إلى وصف شدتها وقوتها .

قالوا : ومن المعلوم أن من كان هذا دأبه وعادته ، فإنه يكون أبعد الموجودات عن الرحمة ، والاحسان ، والجود ؛ فثبت أن صفة الرحمة لا يمكن إثباتها على مذهب أهل السنة .

والجواب : هذا الكلام وارد على المعتزلة أيضاً من وجهين :

الأول : أنّا نعلم بالضرورة أن القادر ما لم يمل قلبه إلى الفعل أو الترك لم يترجح الفعل على الترك ، ولا الترك على الفعل ، فنقول : ظهر أن الفعل موقوف على إرادة الفعل ، وإرادة الفعل محدَثة ؛ فنقول : إن حدثت من غير محدث فقد لزم تجوز حدوث الشيء من غير مؤثر ، وهو يفضي إلى نفي الصانع ، وإن كان محدثها هو العبد افتقر في احداث تلك الارادة إلى إرادة أخرى ، ولزم التسلسل ، وإن كان محدثها هو الله تعالى ، فقبل أن أحْدث الله تلك الارادة لم يكن العبد متمكناً من ذلك الفعل ، وبعد أن أحدثها لم يكن متمكناً من ذلك الفعل ، لأن عند حدوث إرادة الفعل لم تكن إرادة الترك حاصلة ، ولو حصل الترك عند حصول إرادة الفعل يحصل الترك من غير إرادة الترك ، وقد بينا أنه محال ، فإذا كان الأمر كذلك لزم القطع بأن كل الأفعال منتسبة إلى قضاء الله وقدره ، وحينئذ يلزمهم كل ما ألزموه لنا .

والثاني : هو أن العلم بعد الايمان مضاد ومنافٍ لوجود الايمان ، وكان الله عالماً بأن أبا جهل لا يؤمن ؛ فإذا كلفه الايمان فقد كلفه بأن يجمع بين الضدين ، أعني بين العلم بعد الايمان ، ووجود الايمان ، ومعلوم أن التكليف بالجمع بين الضدين لا يمكن الوفاء به ، فكان هذا الأمر سبباً لاستحقاق العذاب الدائم ، فيلزمهم عدم الرحمة ، كما ألزموه لنا ، فثبت أن هذا الاشكال وارد عليهم ، كما هو وارد علينا ، وإن الجواب عن الكل ما قدمناه من : أنه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

السؤال الرابع : قالوا : العبد شق عليه إيصال النعمة ، ودفع البلية ، والله تعالى لا يشق عليه ذلك ، والفعل مع المشقة ادخل في استحقاق المدح من الفعل مع غير المشقة ، فلزم أن تكون رحمة العبد أكمل من رحمة الرب .

والجواب : أنّا بينا أن رحمة الله هي التي أثرت في إيجاد رحمة العبد ، فلولا سبق رحمة الله لما حصلت رحمة العبد .

المسألة الخامسة : أيهما أكثر مبالغة : الرحمن أم الرحيم : روى أبو صالح ، عن ابن عباس ؛ أنه قال : الرحمن الرحيم اسمان رفيقان ، أحدهما أرق من الآخر ؛ ولم يبين أيهما أرق .

وقال الحسين بن الفضل البلخي . هذا وهم من الراوي ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى ، قال النبي ﷺ « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف » :

واعلم : أنه لا شك أن الرحمن الرحيم كل واحد منهما مشتق من الرحمة ، وإن لم يكن أحدهما أشد مبالغة من الآخر ، كانا لفظين مترادفين من جميع الوجوه من غير تفاوت في المعنى ، وذلك بعيد ، فوجب القطع بكون أحدهما أكثر مبالغة من الآخر ، ثم اختلفوا فقال الأكثرون : الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم ، واحتجوا عليه بوجوه :

الأول : أنه من المشهور أنهم كانوا يقولون : يا رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة . ومعلوم أن رحمته في الدنيا شاملة للمؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، وذلك بإيصال الرزق ، وخلق الصحة ، ودفع الاسقام ، والمعائب ، والدواهي ، وأما رحمته في الآخرة فمختصة بالمؤمنين ، فدل هذا على أن الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم ، لأن الرحمة الناشئة من اسم الرحمن عامة في حق الولي ، والعدو ، والصديق ، والزنديق ، والرحمة الناشئة من اسم الرحيم مختصة بالمؤمنين .

ولهذا قال جعفر الصادق رضي الله عنه : اسم الرحمن خاص بالحق عام في الأثر ، لأن رحمته تصل إلى البر والفاجر ، واسم الرحيم عام في الاسم ، خاص في الأثر ، لأن اسم الرحيم قد يقع على غير الله تعالى ، فهو من هذا الوجه عام إلا أنه خاص في الأثر ؛ لأن هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين .

الثاني : إن بناء وزن الرحمن للمبالغة ، يقال ، رجل غضبان ، وشبعان ، وأنا ملآن ، ورجل عريان ، وهو الذي لا ثوب له أصلاً ، فإن كان له ثوب خلق فقد يقال : إنه عار ، ولا يقال عريان ، وأما الرحيم فهو فعيل ، والفعيل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع بمعنى السامع وبمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، وليس في واحد منهما كبير مبالغة .

الثالث : أن الرحمن والرحيم كلمتان من جنس واحد ، وحروف الرحمن أكثر وكل ما كان كذلك كان أكثر مبالغة ، فوجب كون الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم .

الرابع : روى أبو سعيد أن عيسى عليه السلام قال : الرحمن رحمن الدنيا ، والرحيم رحيم الآخرة . وهذا يدل على أن الرحمن أكثر مبالغة .

فإن قيل : فإذا كان الرحمن أكثر مبالغة من الرحيم ، فكيف قدِّم على ذكر الرحيم ؟

قلنا : فيه وجوه : الأول : إن اسم الرحمن اسم انفرد به الباري تعالى ، كما أن اسم الله إنفرد به ، فذكر أولاً اسم الله ، ثم ذكر عقيبة اسم الرحمن ؛ لما حصل بينهما من هذه المجانسة .

وثانيها : إن الرحمن وإن كان يفيد الرحمة العامة للكل إلا أن الرحيم يفيد الرحمة الخاصة بالمؤمنين ، فكان الرحمن كالأصل ، والرحيم كالزيادة في التشريف ، والأصل يجب تقديمه على الزيادة ، كقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[١] .

وثالثها : إن نظم البسملة على هذا الترتيب أحسن ، وموافقتها لآخر آيات الفاتحة أشد .

وقال آخرون : الرحيم أشد مبالغة في الرحمة ، واحتجوا بوجوه :

---

(١) يونس : ٢٦ .

الأول : إن اسم الرحمن كما يفيد معنى الرحمة فيفيد مع ذلك نوعاً من الهيبة ، والقهر ، والكبرياء ، والدليل عليه قوله : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾[1] فلولا إشعار لفظ الرحمن بشيء من الهيبة والقهر ، وإلا لما كان ذكر الوعيد عقيبه مناسباً ، فذكر في البسملة اسم الله ، وهو يدل على غاية القهر ، والجبرية ، والكبرياء ، ثم ذكر عقيبه الرحمن ، وهو كالمتوسط في القهر ، واللطف ، وختم بالرحيم ، وهو الدال على كمال الرحمة .

الثاني : إن ذكر الرحيم بعد ذكر الرحمن يدل على أن الرحيم أكثر مبالغة .

أما قولهم : إنما قدم الرحمن على الرحيم ، لأنه مختص بالله تعالى ، فكان بينه وبين اسمه الله مناسبة .

قلنا : قد بينا أن قولنا : الله اسم محض ، فيجب تقديمه على الكل أما الرحمن فإنه مشتق وصفه ، وتقديم الأكمل على غير الأكمل غير جائز .

وقوله : الرحيم يقبل الزيادة ، قلنا : رحمته حقيقة واحدة ، ولفظ الرحمن ما أفاد إلا رحمته في الدنيا ، ولفظ الرحيم أفاد رحمته في الدنيا والآخرة ، فوجب أن يكون اسم الرحيم أبلغ .

وقوله : وذلك لأجل أن هذا الترتيب أوفق لمقاطع الآيات ، قلنا : هذا غير معتبر ، بدليل أن كل من قال إن البسملة آية من الفاتحة وقف على قوله ﴿ أنعمت عليهم ﴾ مع أن هذا المقطع لا يوافق ما قبله من المقاطع .

الثالث : إن الختم وقع على اسم الرحيم ، فوجب أن يكون أكثر دلالة على الرحمة ؛ لأن ختم الكلام على ما هو أكثر دلالة على الرحمة أجلب بحسن الظن بالله ، وأكثر قوة في الرجاء . في رحمة الله .

المسألة السادسة : حظ العبد من اسميه تعالى الرحمن الرحيم : ذكر

---

(١) الفرقان : ٢٦ .

الشيخ الغزالي : إن النبي ﷺ قال : « تخلقوا بأخلاق الله » وهذا يقتضي أن يكون للعبد من كل اسم من أسماء الله تعالى حظ يليق به ، والحكماء المتقدمون قالوا أيضاً : الفلسفة هي التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية ، إذا عرفت هذا فنقول : حظ العبد من اسم الرحمن أن يكون كثير الرحمة .

واعلم أن كل من كان إليه أقرب كان بإيصال الرحمة إليه أولى ، وأقرب الناس إليه نفسه ، فوجب أن يرحم نفسه ، ثم يرحم غيره ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

فأما رحمته مع نفسه فإما أن يكون في الأمور الروحانية أو الجسمانية ، أما الروحانية فاعلم أن للنفس قوتين نظرية ، وعملية ، أما النظرية فإيصال الرحمة إليها تخليتها عن الجهل ، وتحليتها بالعلم ، وأما العملية فصونها في الأخلاق عن طرفي الافراط والتفريط ، وإلزامها المواظبة على التوسط بين الطرفين .

وأما في الأمور الجسمانية فقسمان للأمور المطلوبة بالذات ، والمطلوبة بالعرض ، فالأولى اللذات الجسمانية . وهي محصورة في المطعوم والمنكوح . وقد قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾[1] فالرحمة على البدن هو الامتناع عن الاسراف . وأما المطلوبة بالعرض فهي المال والرحمة فيه . قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾[2] فهذه معاقد رحمة كل أحد على نفسه .

أما رحمته على غيره فقد كتب أرسطاطاليس كتاباً إلى الاسكندرية وقال فيه : إن الملوك أقسام .

أحدها : ملوك الهند . وهم يسدون أبواب اللذات الجسمانية على أنفسهم . وعلى رعيتهم . وذلك لأنهم قالوا . من كانت معيشته في الدنيا مع التعب والمحنة . فإذا خرج منها فرح وسعد ، ومن كانت معيشته مع اللذة فإذا

---

(١) الأعراف : ٣١ .
(٢) الفرقان : ٦٧ .

خرج عنها اشتاق إليها ، فوقع في العذاب ، فلا جرم يجب على العاقل أن يسعى في إتعاب النفس في الدنيا ، لينال السعادة بعد الموت .

وثانيا : ملوك العجم ، وهم يفتحون أبواب اللذات الجسمانية على أنفسهم ، وعلى رعيتهم ؛ لأن معتقدهم أن اللذات الحقيقية هي اللذات الجسمانية ، وأن الروحانية خيالات ضعيفة .

وثالثها : ملوك اليونانيين ، وهم يسدون باب اللذات على نفوسهم ، ويفتحونه على رعيتهم ، قالوا : لأن الملك في الأرض نائب الله في العالم ، وإله العالم يُطعِم ولا يُطعَم، وينفع ولا يُنفع ، وكان الملك السعيد من يكون متشبهاً بالإله في هذه الصفة .

ورابعها : ملوك الأعاجم ، وهم يفتحون باب اللذات الجسمانية على أنفسهم ويسدونها على رعاياهم وهؤلاء هم نواب الشياطين .

وإذا عرفت هذه الحكاية ظهر لك أن كمال رحمة الانسان هو أن يسعى في إيصال نفع إلى الغير ، ودفع ضرر عنه ، ولأجل كمال هذه الصفة ، قال عليه الصلاة والسلام « التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله » وكان في آخر حياته يقول « الصلاة وما ملكت إيمانكم » ، وكان بعض المشايخ يقول : مجامع الخيرات محصورة في أمرين ، صدق مع الحق ، وخُلق مع الخلق .

وهذه المقدمة برهانية ، لأن الموجود إما واجب وهو الحق سبحانه ، وإما ممكن وهو الخلق ، وكمال العبودية في حضرة الحق أن يصير العبد مكاشفاً ، فإن الحكم والأمر له . لا لغيره ، كما قال : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾[1] وكمال العبودية لله بالنسبة إلى الخلق ، والإحسان إليهم لأجل الحق ، والله أعلم .

ومما يؤكد أن هذه المرتبة أعظم المراتب ، أنه تعالى وصف رسوله عليه الصلاة والسلام بالرحمة فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[2]

---

(١) الروم : ٤ .
(٢) الأنبياء : ١٠٧ .

وقال ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[1] وقال : ﴿ فيما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا انفضوا من حولك ﴾[2] .

ومدح الرسول أصحابه فبدأ في الذكر بوصف أبي بكر بالرحمة ، فقال : « ارحم أمتي بأمتي أبي بكر » وقال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » وقال : « من لا يَرحم لا يُرحم » .

ويقال : إن عمر بن عبدالعزيز خرج إلى المصلى يوم العيد ، فلما صلى قال : اللهم ارحمني ، فإنك قلت : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[3] فإن لم أكن من المحسنين فأنا من الصائمين ، وقد قلت : ﴿ والصائمين والصائمات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[4] فإن لم أكن من الصائمين ، فأنا من المؤمنين ، وقد قلت : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾[5] فإن لم أستوجب ذلك فأنا شيء ، وقد قلت : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾[6] فإن لم أكن كذلك فأنا مصاب ، حيث حُرمت رحمتك ؛ وأنت قلت ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة ﴾[7] الآية .

المسألة السابعة في كلام المشايخ في اسمي الرحمن الرحيم قال بعضهم : الرحمن لأهل الافتقار ، والرحيم لأهل الافتخار ، إذا شهدوا جلاله طاشوا وافتقروا ، وإذا شهدوا جماله عاشوا وافتخروا ، وقيل الرحمن بما ستر في الدنيا ، والرحيم : بما غفر في العقبى .

وقال عبدالله بن المبارك : الرحمن الذي إذا سئل أعطى ، والرحيم الذي إذا لم يُسأل غضب .

---

(١) التوبة : ٢٨ .
(٢) آل عمران : ١٥٩ .
(٣) الأعراف : ٥٦ .
(٤) الأحزاب : ٣٥ .
(٥) الأحزاب : ٤٣ .
(٦) الأعراف : ١٥٦ .
(٧) البقرة : ١٥٦ .

روى أبو هريرة أنه قال عليه الصلاة والسلام : « من لم يسأل الله يغضب عليه » والشاعر نظم هذا المعنى ، فقال :

الله يغضب أن تـركت سؤاله   وبني آدم حين يُسـأل يغضب

وقال أبو بكر الوراق : الرحمن بالنعماء . والرحيم بالآلاء ، فالنعماء ما أعطى وحَبى ، والآلاء ما عرف وروى .

وقال محمد بن علي الترمذي ، الرحمن بالإنقاذ من النيران ، والرحيم بإدخال الجنان ، بيان الأول قوله ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[1] والرحيم بقوله ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾[2] .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي : الرحمن بإزالة الكروب والعيوب ، والرحيم بإنارة القلوب بالغيوب .

وقال السدي : الرحمن بكشف الكروب ، والرحيم بغفران الذنوب ، الرحمن بغفران السيئات ، والرحيم بقبول الطاعات .

وقال بعضهم : الرحمن بتعليم القرآن دليله ﴿ الرحمن . علم القرآن ﴾[3] والرحيم بتشريف التكريم والتسليم ، دليله ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[4] .

وقيل إن قوله : الله للسابقين ، والرحمن للمقتصدين ، والرحيم للظالمين .

القول في تفسير اسمه (الملك) وفيه مسائل

المسألة الأولى : فيما يشابه هذا الاسم : أعلم أنه قد ورد أسماء كثيرة

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .
(٢) الحجر : ٤٦ .
(٣) الرحمن : ١ و٢ .
(٤) يس : ٥٨ .

لله تعالى من هذا الباب وهي : الملك ، والمالك ، والمليك ، ومالك الملك والملكوت ، أما الملك فقال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس ﴾[1] وقال ﴿ ملك الناس ﴾[2] وقال في سورة (المؤمنين) ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾[3] .

وأما المالك فقوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾[4] وفي قراءة « ملك » .

وأما المليك فقوله تعالى : ﴿ مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[5] .

وأما مالك الملك . فقال : ﴿ اللهم مالك الملك ﴾[6] .

وأما الملكوت . فقال : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾[7] .

واعلم أن الوارد من هذه الألفاظ في الأسماء التسعة والتسعين إثبات الملك ، ومالك الملك .

المسألة الثانية : اختلفوا في حقيقة الملك : فقال بعضهم إنه عبارة عن التصرف وعلى هذا القول يكون الملك من صفات الأفعال ، والقول الثاني أنه القدرة على التصرف لولا المانع ، وعلى هذا القول يكون الملك من صفات الذات .

أما القول الأول : فقد طعنوا فيه من وجوه . الأول أن الصبي والمجنون قد يحصل الملك لهما ، مع أنه لا تصرف لهما البتة ، ووليهما لا مُلك له مع أن التصرف ثابت له .

الثاني : أن المرهون والمستأجر مملوك مع أنه لا تصرف فيهما للمالك

---

(١) الحشر : ٢٣ .
(٢) الناس : ٢ .
(٣) المؤمنون : ١١٦ .
(٤) الفاتحة : ٣ .
(٥) القمر : ٥٥ .
(٦) آل عمران : ٢٦ .
(٧) يس : ٨٣ .

البتة : حتى إن إعتاق الراهن لا يصح على أصح قولي الشافعي رحمه الله والمشاع لا يقبل الرهن والهبة على قول أبي حنيفة .

الثالث : أنه تعالى وصف نفسه بكونه مالكاً ليوم الدين ، قبل أن يخلق ذلك اليوم ، ويوجده ، فقد حصل الملك مع أن التصرف فيه غير موجود الآن ، وذلك يدل على أن الملك مغاير للتصرف فيه .

وأما القول الثاني : وهو أن يكون انملك عبارة عن القدرة على التصرف ، فقالوا الإشكال عليه من وجوه .

الأول : أن على هذا التقدير يلزم أن لا يكون تعالى مالكاً لشيء من الموجودات ، وذلك لأن الموجود حال كونه موجوداً لا قدرة للقادر على التصرف فيه البتة ، لأنه لو قدر على التصرف فيه لقدر إما على إيجاده ، أو على إعدامه ، والقسمان باطلان ، فبطل القول بثبوت القدرة على الموجود .

وإنما قلنا : إنه لا قدرة له على إيجاده ؛ لأن ذلك يقتضي إيجاد الموجود وهو محال .

وإنما قلنا إنه لا قدرة له على إعدامه ، لأن مذهب أكثر المتكلمين أن الإعدام بالقدرة محال .

قالوا : وذلك لأن القدرة صفة مؤثرة ، والعدم نفي محض ، فقول القائل القدرة أثرت فيه مع القول بأنه ليس هناك أثر ، ولا شيء ، ولا عين ، ولا ذات متناقض .

فثبت أن الإعدام بالقدرة محال ، وأيضاً فبتقدير أن يثبت جواز الإعدام بالقدرة ، إلا أنا نقول على هذا التقدير ، تكون القدرة قدرة على جعل الموجود معدوماً ، فيكون المقدور هو ذلك العدم الحاصل بعد ذلك الوجود ، وإذا كان الملك عبارة عن القدرة والمقدور ليس إلا ذلك العدم ، وجب أن يقال ليس المملوك إلا ذلك العدم ، وعلى جميع التقديرات فيخرج منه أنه تعالى لا يكون مالكاً لشيء من الموجودات ، وأن ليس في ملكه إلا المعدوم ، وهذا شنيع جداً .

السؤال الثاني : لو كان الملك عبارة عن القدرة لما كان شيء من الأغراض الموجودة ملكاً لله تعالى ؛ لأنه تعالى لو قدر عليها لقدر عليها إما بالإيجاد وهو محال : لأن إيجاد الموجود محال ، أو بالإعدام وهو أيضاً محال ، لأنها واجبة العدم في الزمان الثاني ، وما كان واجباً بذاته يمتنع وقوعه بالفاعل ، فيمتنع أن يكون عدمها في الزمان الثاني مستنداً إلى القادر ، فثبت أنه لا قدرة على الأعراض الموجودة لا بالإيجاد ولا بالإعدام ، فوجب أن لا يكون شيء من الأغراض الموجودة ملكاً لله تعالى .

واعلم : أن هذا الإشكال لفظي ، وذلك لأنه تعالى يملك الأشياء قبل وجودها بمعنى أنه قادر على إخراجها من العدم إلى الوجود ، ويملكها حال حدوثها ، وذلك لأن عندنا القدرة إنما تؤثر في إحداث الشيء حال حدوثه لا قبل تلك الحالة ثم ذلك الذي حدث إن كان قابلاً للبقاء فهو تعالى مالك لها ، بمعنى أنه قادر على إبقائها ، أما عند من يقول بأن الباقي باق بالبقاء ؛ « فإبقاؤها إنما يكون بخلق البقاء فيها ، وعند من يقول الإعدام بالقدرة جائز ، فإبقاؤها إنما يكون بأن لا يعدمها ، وأما إن كان ذلك الذي حدث غير قابل للبقاء فهو تعالى مالك لها بمعنى أنه قادر على إعادتها بعد عدمها . فثبت من هذا أن كل ما سوى الله تعالى من الجائزات والممكنات فهو مملوك لله تعالى سواء كان معدوماً أو موجوداً .

واعلم أن أهل اللغة يقولون : الملك عبارة عن الربط والشد يقال : ملكت العجين إذا شددت ملكة عجنه ، ويقال : أملكوا العجين فإنه أحذق الريعين ، ومنه إملاك المرأة ، وهو ربطها بالعقد .

قال قيس بن الحطيم يصف طعنة :

ملكت بها كفي وأنهرت فتقَها   يرى قائمٌ من دونها ما وراءَها

واعلم أن هذا الربط والشد يرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة فثبت أنه لا منافاة بين هذا وبين ما ذكرناه .

المسألة الثالثة : قال أصحابنا الملك ليس إلا لله في الحقيقة . وذلك لأن الملك عبارة عن القدرة التامة كما قلناه والقدرة التامة ليست إلا لله سبحانه وتعالى فلا ملك إلا لله سبحانه وتعالى .

وأما أن العبد هل يملك بالتمليك ، فللفقهاء فيه اختلاف مشهور ، والأصح أنه لا يملك لأن استقلاله بالتصرف في الغير فرع عن كونه مستقلاً في نفسه ، فإذا كان العبد لا استقلال له في نفسه وذاته البتة ، كيف يكون له استقلال في أن يتصرف في الغير ، ولذلك فإن العبد يصير مسافراً عندما ينوي مولاه السفر ، ويصير مقيماً عندما ينوي مولاه الإقامة ، ولا يتمكن أصلاً من أداء الشهادة ، وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾[1] وإذا لم يقدر على شيء كيف يكون مالكاً ، بل الملك الحقيقي أثبت لبعض عبيده اختصاصاً ببعض الأشياء ، فذلك الاختصاص في الحقيقة إنما ثبت بحكم المالك الحقيقي ، فلهذه الأسرار قال تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾[2] ثم خص يوم القيامة بهذا الأمر فقال : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وله الحكم في الآخرة ﴾[6] وقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[7] ، وإذا كان مربوباً له كان ملكاً له . فثبت أنه سبحانه وتعالى مالك لجميع الممكنات .

المسألة الرابعة : اختلفوا في اسم الملك والمالك أيهما أبلغ في النعت ، قال بعضهم : الملك أبلغ ، واحتجوا عليه بوجوه :

الحجة الأولى : أن الملك يشعر بكونه مالكاً لمملوكات كثيرة ، ألا ترى

---

(١) النحل : ٧٥ .
(٢) الروم : ٤ .
(٣) الانفطار : ١٩ .
(٤) الأعراف : ٥٤ .
(٥) الأنعام : ٦٢ .
(٦) القصص : ٧٠ .
(٧) الفاتحة : ١ .

أنه يقال فلان مالك هذه الدار ، ومالك هذه الدابة ، ولا يقال ملك هذه الـدار، ولا ملك هـذه الـدابـة ، لأن الملك لا يـطلق إلا في حق من كثـرت مملوكاته .

الحجة الثانية : أنه تعالى تمدح بكونه مالك الملك بضم الميم ، ولم يتمدح بأنه مالك الملك بكسرها ، فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾[1] . والملك مشتق من الملك بالضم ، والملك مشتق من الملك بكسر الميم ، فثبت أناالملك أشرف من المالك .

الحجة الثـالثة : أنهم قرؤوا ﴿ مالك يوم الدين ﴾[2] ﴿ وملك يوم الدين ﴾ وكلتا القراءتين متواترتان ، وهذا هو أول القرآن ، أما آخر القرآن وهو قوله : ﴿ ملك الناس ﴾[3] فلم يقرأ أحد هاهنا ﴿ مالك الناس ﴾ فمعلوم أن الختم لا بـد وأن يكـون على أشـرف الأسمـاء ، فـدل هـذا على أن الملك من الملك .

الحجة الرابعة : أن مالك الأرض يطيع ملكها ، وملكها لا يطيعه .

الحجة الخامسة : جاء في صفات الله تعالى لفظ الملك وحده ، وما جاء لفظ المالك إلا مضافاً إلى شيء آخر ، كقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فوجب أن يكون الملك أشرف .

وقال آخرون : المالك أشرف من الملك ، وذلك لأن المالك مشعر بالقدرة التامة ، والملك ليس كذلك ، ألا ترى أنه يقال : فلان مالك البلدة ، ولا يقال فلان ملك البلدة ، وذلك لأن ملك البلدة له قدرة من بعض الوجوه على البلد لا من كل الوجوه فإنه لا يملك بيعها ولا هبتها ، أما مالك الشيء فهو الذي يكون له قدرة تامة عليه ، كما يقال : فلان مالك هذا الثوب ، ومعناه أنه يتمكن من بيعه وهبته وجميع التصرفات فيه ، فثبت أن المالك أقوى

---

(١) آل عمران : ٢٦ .
(٢) الفاتحة : ٣ .
(٣) الناس : ٢ .

من الملك ، هذا هو القول في الملك ، والمالك .

وأما المليك فلا خلاف أنه أبلغ ؛ لأن المالك والمليك كالناصر والنصير ؛ والقادر والقدير ؛ والعالم والعليم .

وأما مالك الملك فهو الغاية في المبالغة : وذلك لأنا بينا أن المالك أبلغ من الملك ، من حيث أن المالك يفيد حقيقة الملك ، وأما الملك فإنه لا يفيده ، وأيضاً الملك أبلغ من المالك من حيث إنه لا يوصف بالملك إلا السلطان العظيم ، وأما المالك فإنه يوصف به كل أحد ، وكل واحدة منهما أعظم من الأخرى من وجه ، وقوله مالك الملك يشتمل على ما في كل واحدة من هاتين اللفظتين من معنى المبالغة ، فإن قوله مالك الملك يقتضي كون الملك مملوكاً له فيدل على أن الملك والسلطنة والقدرة مملوكاً له ملكاً خالصاً ، وهو سبحانه ملكها ، والمتصرف فيها ، وأما الملكوت فهو مبالغة في لفظ الملك كالرغبوت في الرغبة ، والرهبوت في الرهبة .

المسألة الخامسة : اعلم أن لفظ الملك قد يطلق تارة على صفة الملك ، وعلى المملوك أخرى : فقوله ﴿ كذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾[1] المراد منه المملوك ، وقوله : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾[2] المراد منه أيضاً المملوك ، لأن المراد من اليد القدرة ، فإضافة الملكوت إلى اليد تدل على الفرق بين الملكوت ، وبين اليد ، نظيره إطلاق لفظ العلم على المعلوم ، والقدرة على المقدور ، والذكر على المذكور ، قال تعالى : ﴿ هذا خلق الله ﴾[3] أي مخلوقه ، وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾[4] الآية وهو من هذا الباب .

المسألة السادسة : الملك الحق : قال بعض المحققين ، الملك الحق هو الغني مطلقاً في ذاته وصفاته عن كل ما سواه ، ويحتاج إليه كل ما سواه

---

(١) الأنعام : ٧٥ .
(٢) يس : ٨٣ .
(٣) لقمان : ١١ .
(٤) البقرة : ١٦٤ . آل عمران : ١٩٠ .

في ذاته وصفاته احتياجاً إما بغير واسطة أو بواسطة ، ثم كل موجود فهو إما واجب لذاته ، وإما ممكن لـذاته. وثبت أن الواجب لذاته ليس إلا الواحد ، وثبت أن كل ممكن لذاته فهو محتاج إلى الواجب لذاته ، فهاهنا يلزم القطع بأن الواجب لذاته غني عن كل ما سواه من جميع الوجوه ، وأن كل ما سواه فإنه محتاج إليه من جميع الوجوه ، وإذا كان كذلك لزم القطع بأن ذلك الواحد الواجب لذاته ملك جميع الموجودات ، ومالكها ، ومليكها ، ومالكُ مُلكها ، وفي يده ملكوتها ، سبحانه هو الله الواحد القهار .

وقال بعضهم : الملك من ملك نفوس العابدين فأقلقها ؛ وملك قلوب العارفين فأحرقها ؛ وقيل : الملك من إذا شاء ملّك ، وإن شاء أهلك ، وقيل الملك من لا ينازعه معارض ، ولا يمانعة مناقض ، فهو بتقديره منفرد . وبتدبيره متوحد ، ليس لأمره مرد ، ولا لحكمه رد . وقيل : الملك من دار بحكمه الفلك .

المسألة السابعة : المحدثات في ملكه تعالى كالعدم ، أعلم أنا بينا بالبرهان القاطع أنه سبحانه وتعالى ملك جميع الموجودات ، فالاستقصاء في شرح ملكه يقتضي شرح جميع الموجودات ، بل شرح جميع الموجودات كالذرة الصغيرة في ملكه ؛ لأنه قادر على ما لا نهاية له من المقدورات ، وجميع الموجودات من الممكنات متناه ، والمتناهي لا نسبة له إلى غير المتناهي ، فثبت أن جميع المحدثات بالنسبة إلى ملكه ، وملكه كالعدم . ثم من الذي يمكنه شرح أحوال جميع المحدثات ، بل من الذي يمكنه أن يعرف آثار ملك الله تعالى في تخليق جناح بعوضة ، إلا أنه سبحانه وتعالى ذكر من معاقد ملكه خمسة أنواع في قوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾[1] .

فأولها : إبقاء الملك ونزعه ، وهذا يدخل فيه ملك الدين ، وملك الدنيا ، أما ملك الدين فإنه تعالى يهدي قوماً ويضل قوماً ، كما قال تعالى :

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾[1] .

وأما ملك الدنيا فهو قوله : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾[2] والمعنى أنه جعل البعض خادماً ، والبعض مخدوماً فكأنه قيل إلهنا ما الحكمة في هذا التفاوت فقال ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾[3] فقيل : إن من كان متمرداً فكيف حاله فقال : ﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾[4] ثم قيل ، وإن كان مطيعاً فكيف صفته فقال : ﴿ وإنه لغفور ﴾ في الدنيا ﴿ رحيم ﴾ في العقبى .

وثانيها ملك الإعزاز والإذلال ، وهو قوله : ﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾[5] ونظيره قوله ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[6] .

وثالثها ملك تقليب الليل والنهار ، وهو قوله : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾[7] ونظيره قوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾[8] وقوله : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾[9] وقوله : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾[10] فتأمل في اختلاف أحوال الليل والنهار وتعاقبهما ، والمنافع الحاصلة من ذلك .

ورابعها : ملك الإحياء والإماتة ، وهو قوله : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾[11] ويدخل فيه أحوال النبات كقوله : ﴿ يحيي

---

(١) البقرة : ٢٦ .
(٢) الأنعام : ١٦٥ .
(٣) الأنعام : ١٦٥ .
(٤) الأنعام : ١٦٥ .
(٥) آل عمران : ٢٦ .
(٦) المنافقون : ٨ .
(٧) الحج : ٦١ ، لقمان : ٢٩ ، فاطر : ١٣ ، الحديد : ٦ .
(٨) الأعراف : ٥٤ .
(٩) الفرقان : ٦٢ .
(١٠) النور : ٤٤ .
(١١) يونس : ٣١ . الروم : ٩ .

الأرض بعد موتها ﴾[1] ويدخل فيه أيضاً تولد الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة ، ويدخل فيه أيضاً تولد المحق من المبطل كإبراهيم عليه السلام من آزر ، وتولد المبطل من المحق مثل كنعان من نوح عليه السلام .

وخامسها : ملك الرزق وهو قوله تعالى : ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[2] ونظيره قوله ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾[3] وقوله ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾[4] .

المسألة الثامنة : العبد لا يتصور أن يكون ملكاً مطلقاً ، فإنه ممكن لذاته ، والممكن لذاته محتاج لذاته ، فزوال الحاجة غير ممتنع عقلاً ، وكما أنه يمتنع عقلاً أن يستغني عن الله يمتنع عقلاً أن يفتقر إلى غير الله ، لأن غير الله محتاج ، والمحتاج في ذاته كيف يقدر على دفع الحاجة عن غيره ، بل إن قدر فإنما يقدر بأقدار الله تعالى عليه ، وحينئذ يكون الدافع لتلك الحاجة في الحقيقة هو الله لا العبد ، إذا عرفت هذا فالعبد لا يمكن أن يكون ملكاً إلا من وجهين .

الأول : أنه إذا انقطعت حاجته من غير الله كان ملكاً مطلقاً ، وتمام هذا المقام إنما حصل لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ولذلك قال تعالى في صفته ، ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[5] وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ خيرت بين أن أكون عبداً نبياً أو ملكاً نبياً فاخترت العبودية » .

وبالجملة فمن كان الله له كان كل شيء له ، ومن لم يكن الله له لم يكن له شيء ، وذلك لأن من كان الله له فالأصل له ، ومن كان الأصل له كان الفرع له لا محالة . أما من كان له غير الله كان الفرع له ، ومن كان الفرع له لا يحصل الأصل له ، وإذا لم يحصل الأصل له يزول أيضاً كون ذلك الفرع

---

(١) الروم : ١٩ ، الحديد : ٧ .
(٢) آل عمران : ٢٦ .
(٣) هود : ٦ .
(٤) الذاريات : ٢٢ .
(٥) النجم : ١٧ .

له ؛ فلهذا قال عليه الصلاة والسلام « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » .

الوجه الثاني : هو أن هذا القلب شبه المملكة ، وسلطانه هو الروح ، وخصم هذا السلطان هو النفس ، والمحاربة قائمة بينهما أبداً ، فسلطان الروح يخرج وزير العقل ، وسلطان النفس يخرج وزير الجهل ، ثم إن الروح يمد العقل بالفكر ، والنفس تمد الجهل بالعجلة ، ثم إن الروح تبعث العفة ، والنفس تبعث الفجور ، ثم إن الروح ترشد إلى الزهد في الدنيا ، والنفس تزين أنواع اللذات في الدنيا ، ثم إن الروح تبعث كتب الحجة ، والنفس تبعث صحف الشبهة ؛ ولا يزال يجيء من جانب الروح أصناف الأخلاق الطاهرة الروحانية النورانية ، ومن جانب النفس أصناف الأخلاق الردية الشهوانية الظلمانية ، ثم تقف الروح فيما بين عساكره ، والنفس فيما بين عساكرها ، ثم تجيء أفواج الملائكة العلوية المقدسة ، لمعاونة الروح وعساكره ، ويحضر أفواج المردة والشياطين السفلية لمعاونة النفس وعساكرها ، ويتقابل الصفان ، ويتنازع الفريقان ، ويشتد الخصام ، ويرتفع الغبار ، ولا يزال يبقى ذلك النزاع والدفاع ، ولا يزول الخصام واللطام ، إلا عند المدد الروحاني ، والتوفيق الرباني ، فإن جاء نسيم العناية والإعانة من مشرق الهداية ، واستولى سلطان الروح على سلطان النفس وقهره ، وأباد جمعه ، وفرق شمله ، وتخلص له هذه المملكة ، ولئن جاءت ظلمات الخذلان من مغرب القهر والكبرياء ، استولى سلطان النفس على سلطان الروح ، وقهره ، وأخرجه من المملكة ، وامتلأت المملكة من رايات الشياطين ، وأعلام الأباطيل .

واعلم أن هذه المنازعة إنما تحصل بين الملوك في الأدوار والأعصار مرة واحدة ، فأما بين النفس والروح ففي كل ساعة تحصل هذه المخاصمة مرات ، فتارة تكون الغلبة للروح ، وأخرى للنفس ، فلهذا السبب يرى الإنسان الواحد ملكاً في هذه الساعة ، شيطاناً في ساعة أخرى ، فلا جرم لم يستعن الإنسان طول عمره غير الإستعانة بهداية الله ، فلا جرم قال الخليل

عليه السلام « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين »[1] وقال الكليم عليه السلام « رب إشرح لي صدري ، ويسر لي أمري »[2] وقال الحق سبحانه وتعالى للحبيب عليه الصلاة والسلام « وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون »[3] .

واعلم أن من عرف هذه الأحوال تخلص عن مساكنة الأشباح ، وانفرد بمالك النفوس والأرواح ، وقطع رجاءه عن الخلائق ، وسلم عن الآفات والعلائق ، ولهذا المعنى قال بعض المشايخ : أيجمل بالحر المريد أن يتذلل للعبيد ، وهو يجد من مولاه ما يريد .

وقال سفيان بن عيينة : بينما أنا أطوف بالبيت ، إذ رأيت رجلاً وقع في قلبي أنه من عباد الله المخلصين ، فدنوت منه ، فقلت : هل تقول شيئاً ينفعني الله به ؟ فلم يرد عليَّ جواباً ، ومشى في طوافه ، فلما فرغ صلى خلف المقام ركعتين ، ثم دخل الحجر فجلس ، فجلست إليه فقلت : هل تقول شيئاً ينفعني الله به ؟ فقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قال : ربكم : أنا الحي الذي لا أموت هلموا أطيعوني أجعلكم أحياء لا تموتون ، أنا الملك الذي لا أزول هلموا أطيعوني أجعلكم ملوكاً لا تزولون ، أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون هلموا أطيعوني أجعلكم إذا أردتم شيئاً قلتم له كن فيكون ، قال : ثم نظرت فلم أجد أحداً فظننت أنه الخضر عليه السلام .

وحكي أن بعض الأمراء قال لبعض الصالحين : سل حاجتك . قال : أَوَلى تقول ولي عبدان هما سيداك ؟! وقال : ومن هما ؟! قال : الشهوة والغضب غلبتهما وغلباك ، وملكتهما وملكاك .

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام « رب قد آتيتني من الملك »[4] يريد القدرة على النفس ، ثم قال بعده « وعلمتني

---

(١) الشعراء : ٨٣ .
(٢) طه : ٢٥ و٢٦ .
(٣) المؤمنون : ٩٧ و٩٨ .
(٤) يوسف : ١٠١ .

من تأويل الأحاديث » يريد به العلم والحكمة ، فالأول إشارة إلى إصلاح القوة العملية ، والثاني إشارة إلى إصلاح القوة النظرية ، والأول إشارة إلى الطريقة ، والثاني إشارة إلى الحقيقة ، وفي معناه قال الشاعر :

من ملك النفس فحر ما هو والعبد من يملكه هواه

اللهم أرشدنا ، وأهدنا بفضلك يا أكرم الأكرمين .

القول في تفسير إسمه (القدوس)

وفيه مسائل : الأولى : في معنى القدوس لغة : قال تعالى « الملك القدوس »(١) وقال : « يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس »(٢) .

واعلم أن القدوس مشتق في اللغة من القدس وهو الطهارة ، ولهذا يقال البيت المقدس ، أي المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب ، وقيل للجنة : حظيرة القدس ، لطهارتها من آفات الدنيا ، وقيل لجبريل عليه السلام : روح القدس ، لأنه طاهر عن العيوب في تبليغ الوحي إلى الرسل عليهم السلام .

وقال تعالى حكاية عن الملائكة « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »(٣) أي نطهر أنفسنا لك ، والقدس السطل الكبير ، لأنه يتطهر فيه ؛ قال الأزهري : وقد روي القدس بنصب القاف ، وما جاء في كلام العرب في هذا الباب على فعول مثل سفود ، وكلوب ، إلا هذان الإسمان الجليلان ، وهما سبوح وقدوس ، وقيل غيرها أيضاً موجود ، ومنه قولهم : ذروح وذرية ، وقال بعضهم . أصل هذه الكلمة سرياني ، وهو قديساً ، وهم يقولون في أدعيتهم : قديس قديس ، والكلام في هذا الباب ما تقدم(٤) .

---

(١) الحشر : ٢٣ .
(٢) الجمعة : ١ .
(٣) البقرة : ٣٠ .
(٤) أنظر ما قيل في إسمه الرحمن .

إذا عـرفت ذلك فمعنى هـذا الإسم كـونـه تعـالى منـزهـا عن النقـائص والعيوب . قال الشيخ الغزالي : القدوس هو المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال الذي يظنه أكثر الخلق كمالاً ، لأن الخلق نظروا إلى أنفسهم ، وعرفوا صفاتهم ، وقسموها إلى ما هو صفات كمـال ، وصفات نقصـان ، فمن جملة صفـات كمـالـهم علمهم وقـدرتهم ، وسمعهم ، وبصـرهم ، وإرادتهـم ، وكلامهم ، وأما صفات نقصانهم فهي أضداد هذه الصفـات ، ثم كان غـايتهم في الثنـاء على الله أن وصفوه بمـا هو أوصـاف كمالهم من : علم ، وقـدرة ، وسمع ، وبصر ، وكلام ، والله تعالى منزه عن أوصاف كمالهم ، بل كل صفة تتصور للخلق فهو مقدس عنها .

المسألة الثانية : رأي المشايخ في إسمه تعالى (القدوس) : قال بعض الشيـوخ : القـدوس من تقـدست عن الحـاجـات ذاتـه وتنـزهت عن الآفـات صفـاته ، وقيـل : القدوس من قـدس نفـوس الأبـرار عن المعـاصي ، وأخـذ الأشرار بالنواصي ، وقيل : القدوس من تقدس عن مكـان يحويـه ، وعن زمان يبليـه ، وقيـل : القـدوس الـذي قـدس قلوب أوليـائـه عن السكـون إلى المألوفات ، وأنس أرواحهم بفنون المكاشفات .

المسألة الثالثة : اعلم أن ما سوى الله قسمان : ذوات ، وصفات ، أمـا الذوات فقسمان . مجردات ، وجسمانيات ، فالمجـردات أشرف ، والصفـات أيضاً قسمان : عقلية ، وحسية ، والعقلية أشرف لأنها باقية ، والحسية دائرة ، فقُدس العبد أن يطهر روحه عن الإلتفات إلى اللذات الجسمانية ، والاشتغـال بالتصورات الخيالية الجزئية ، بل يجب أن يسعى في تحصيل العلوم البـاقية ، والأخلاق الحميدة ومجامعها في شيئين . أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به .

القول في تفسير إسمه (السلام)

قال تعالى : ﴿ الملك القدوس السلام ﴾[1] ، واعلم أن السلام عبارة عن السلامة قال تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾[2] أي الجنة ، لأن الصائر إليها يسلم من الموت والأحزان ، قال تعالى : ﴿ إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك ﴾[3] أي يخبرك عنهم بسلامة ، والسلام الذي هو التحية ، والسلام معناه السلامة ، فإذا قال المسلم : السلام عليكم، فكأنه يخبره بالسلامة من جانبه ويؤمنه من شره ومن غائلته ، قال تعالى في حق يحيى عليه السلام : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾[4] الآية .

وكان سفيان بن عيينة يقول ؛ أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد ، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه : ﴿ ويوم يموت ﴾[5] فيرى قوماً لم يكن عاينهم ، ﴿ ويوم يبعث ﴾[6] فيرى نفسه في محشر عظيم ، فأكرم الله يحيى في هذه المواضع الثلاثة ، وخصه بالسلامة من آفاتها ، والمراد أنه سلمه من شر هذه المواطن الثلاثة ، وأمنه من خوفها .

وأيضاً الصواب من القول سمي سلاماً قال تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[7] وذلك لسلامته من العيب والإثم ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أن السلام عبارة عن السلامة ، إذا ثبت هذا فنقول : ها هنا احتمالان أحدهما : أن يكون المراد من السلام أنه ذو السلام ، ووصف به مبالغة في وصف كونه سليماً من النقائص والآفات ، كما يقال : رجل غياث ، وعدل ، ويقال ، فلان جود وكرم .

فإن قيل : فعلى هذا التفسير لا يبقى بين القدوس والسلام فرق ؟

---

(١) الحشر : ٢٣ .
(٢) يونس : ٢٥ .
(٣) الواقعة : ٩٠ و٩١ .
(٤ ، ٥ ، ٦) جزء من الآية ١٥ من سورة مريم .
(٧) الفرقان : ٦٣ .

قلنا : كونه قدوساً إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر ، وكونه سالماً سليماً إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل . وأيضاً يحتمل أن يحمل القدوس على كونه منزهاً عن صفات النقص ، ويجمل السلام كونه منزهاً عن أفعال النقص .

الإحتمال الثاني : أن يكون المراد من السلام كونه معطياً للسلامة ، وهذا المعنى يتناول المبدأ والمعاد ، أما المبدأ فهو أنه تعالى جعل أكثر مخلوقاته سليماً عن العيوب ، قال تعالى : ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾[1] وقال : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[2] .

وأما المعاد فهو أن الخلق سلموا عن ظلمه ، قال : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[3] وفيه وجه ثالث : وهو أن يكون السلام بمعنى المسلِم ، ومعناه أنه تعالى يسلم يوم القيامة على أوليائه قال تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[4] .

واعلم أن سلام الله هو كلامه ، فإن حملنا السلام على البراءة عن العيوب كان ذلك من صفات التنزيه ، وإن حملنا على كونه مسلماً على أوليائه كان من صفات الذات ، وإن حملنا على كونه معطياً للسلامة كان من صفات الأفعال .

وأما المشايخ . فقالوا : السلام من العباد من سلم عن المخالفات سراً وعلناً ، وبرىء من العيوب ظاهراً وباطناً ، دليله قوله تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾[5] وقيل . هو من كان سليماً من الذنوب ، بريئاً من العيوب ، قال تعالى : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[6] والقلب السليم هو الخالص

---

(١) الملك : ٣ .
(٢) طه : ٥٠ .
(٣) فصلت : ٤٦ .
(٤) الأحزاب : ٤٤ .
(٥) الأنعام : ١٢٠ .
(٦) الشعراء : ٨٩ .

من الشرك والنفاق ، الخالي من الشك والشقاق ، وقيل : الذي سلمت نفسه عن الشهوات ، وقلبه عن الشبهات .

وأما حظ العبد منه ، فهو أن العبد له سلامة في الدنيا ، وسلامة في الدين أما سلامته في الدنيا فهو أن يتخلص عن المؤذيات ، ويحصل له ما كان في حيز الضرورات والحاجات .

وأما السلامة في الدين فهي على ثلاث مراتب ، أولاها : السلامة في مقام الشريعة ، وهو أن يسلم دينه عن البدع والشبهات ، وأعماله عن متابعة الهوى والشهوات .

وثانيها : السلامة في مقام الطريقة ، وهو أن يكون عقله أمير شهوته وغضبه ولا يكون أسيراً لهما ، لأن العقل أمير ، والشهوة والغضب كل واحد منهما عبد .

وثالثها : السلامة في مقام الحقيقة ، وهو أن لا يكون في قلبه إلتفات إلى غير الله ، كما قال تعالى : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون »[1] .

القول في تفسير إسمه (المؤمن)

قال تعالى : « السلام المؤمن »[2] واعلم أن الإيمان في اللغة مصدر من فعلين أحدهما . من التصديق ، قال تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾[3] أي بمصدق لنا . والثاني الأمان الذي هو ضد الإخافة قال تعالى : « وآمنهم من خوف »[4] ومن المحققين في اللغة من قال الإيمان أصله في اللغة هذا المعنى الثاني ، وأما التصديق فإنما سمي إيماناً ، لأن المتكلم يخاف أن

---

(١) الأنعام : ٩١ .
(٢) الحشر : ٢٣ .
(٣) يوسف : ١٧ .
(٤) قريش : ١ .

يكذبه السامع ، فإذا صدقه فقد أزال ذلك الخوف عنه ، فلا جرم سمي التصديق إيماناً ، إذا عرفت هذا فنقول : إن فسرنا كونه تعالى مؤمناً بكونه مصدقاً ، ففيه وجوه :

الأول : أنه أخبر عن وحدانية نفسه . حيث قال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلّا هو ﴾[١] فكان هو الإخبار . وهذا التصديق إيماناً .

الثاني : أنه صدق أنبياءه بإظهار المعجزة على أيديهم ، فإظهار المعجزة من صفات الفعل ، ولكنه دل على أنه صدق الرسل بكلامه في إدعاء الرسالة ، ولذلك قال : محمد رسول الله ، فكان هذا الإخبار والتصديق إيماناً .

الثالث : أنه تعالى يصدق عباده ما وعدهم به من الثواب في الآخرة ، والرزق في الدنيا ، قال في الثواب : ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات ﴾[٢] وقال في الرزق ﴿ وما من دابة في الأرض إلّا على الله رزقها ﴾[٣] .

الرابع : أنه قال في صفة المؤمنين ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾[٤] فهو تعالى يصدق هذا الإخبار .

الخامس : أنه تعالى قال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٥] فهو يصدق هذا الوعد ؛ فهذا كله إذا حملنا المؤمن على المصدق ، أما إذا حملناه على أنه تعالى يجعل عباده آمنين من المكروهات فهذا يمكن حمله على أحوال الدنيا ، وعلى أحوال الآخرة .

أما الدنيا فقد قال الغزالي : « إن إزالة الخوف لا يعقل إلا حيث حصل هناك خوف ، ولا خوف إلا عند إمكان العدم ، ولا مزيل للعدم إلا الله ، فلا

---

(١) آل عمران : ١٨ .
(٢) البينة : ٨ .
(٣) هود : ٦ .
(٤) الأنبياء : ١٠٣ .
(٥) الحجر : ٩ .

مزيل للخوف إلا هو ، فلا مؤمن إلا هو ، وبيانه : أن الأعمى يخاف أن يناله هلاك من حيث لا يرى ، فعينه الباصرة تفيد الأمن من الهلاك ، والأقطع يخاف ما لا يُدفع إلا باليد ، فاليد السليمة أمان له ، وهكذا جميع الحواس والأطراف ، فخالق هذه الأعضاء والآلات هو الذي أزال الخوف عن الإنسان بواسطة إعطاء هذه الأعضاء ، ثم قال ولو قدرنا إنساناً وحده مطلوباً من جهة أعدائه ، وهو ملقى في مضيْعة ، ولا يمكنه أن يتحرك لغاية ضعفه ، فإن تحرك فلا سلاح معه ، ولئن كان معه سلاح لم يقدر على مقاومة الأعداء وحده ، وإن كانت له جنود فلم يأمن أن تنكسر جنوده ، ولا يجد حصنا يأوي إليه ، فجاء من عالج ضعفه فقواه ، وأمده بجنود وأسلحة ، وبنى حوله حصنا ، فقد أفاده أمنا عظيماً ؛ فبالحري أن يسمى مؤمناً في حقه ، والعبد ضعيف في أصل فطرته ، وهو عرضة للآفات ، ومنزل المخافات ، تارة من الآفات المتولدة في باطنه كالجوع والعطش ، وتارة من خارجه كالحريق والغرق والأسر ، فالذي خلق له الأغذية اللذيذة ، والأدوية النافعة ، والآلات الجالبة للمنافع والأعضاء الدافعة للمتاعب ، لا شك أنه هو الذي آمنه من هذه الآفات .

وأما أحوال الآخرة فهو الذي نصب الدلائل ، وقوى العقل ، وهدى الخاطر إلى معرفة توحيده ، وجعل هذه المعرفة حصناً حصيناً ، وجُنة واقية عن أصناف العذاب ، كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن رب العزة أنه قال : « لا إله إلا الله حصني ، من دخل حصني أمن من عذابي » فقد ثبت بهذا التقدير أنه لا أمن في العالم إلّا من الله ، ولا راحة إلا من الله ، فهذا المؤمن المطلق حقاً » . هذا كله كلام الغزالي ، وهو حسن جداً .

فإن قيل : لا خوف إلا من الله ، فكيف يقال لا أمن إلا من الله ؟ .

قلنا : لا منافاة بينهما ، كما أنه معز مذل ، محيي مميت، وقد تقدم تقرير هذا في تفسير الرحمن الرحيم .

وما حظ العبد من هذا الإسم ، فهو أن يأمن الخلق كلهم جانبه ، بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دنياه ودينه ، كما

قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جاره بوائقه » .

وأحق العبادات إسم المؤمن ، من دعا عباده إلى طريق معرفته وطاعته ، وزجرهم عن الإشتغال بما يضاد ذلك ، وهذا هو حرفة الأنبياء عليهم السلام ، وإليه الإشارة بقوله : « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم »[1] .

حكي « أن يوم القيامة ينادي مناد ألا من كان سمي نبي من الأنبياء فليدخل الجنة ، فيدخل كل من كان سُمي نبي الجنة ، ويبقى قوم فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون لم يوافق إسمنا إسم نبي ، ولكنا مؤمنون ، فيقول الله سبحانه : أنا المؤمن وأنتم المؤمنون ، فادخلوا الجنة برحمتي » .

القول في تفسير إسمه تعالى (المهيمن)

قال تعالى : ﴿ المؤمن المهيمن ﴾[2][2] وقال في وصف القرآن ﴿ ومهيمناً عليه ﴾[3] وقالوا في تفسير هذه اللفظة قولان : أحدهما ليس بقوي ، قال أبو زيد البلخي : هذه لفظة غريبة في العربية ، لأنها ما كانت مستعملة في ألفاظ العرب قبل نزول القرآن ، وهي موجودة في اللغة السريانية ، مع مدة في آخرها على ما هو عادتهم في أواخر الأسماء ، فإنهم يقولون مهيمناً ، ويفسرونه بأنه المؤمن الصادق الإيمان .

والقول الثاني : أن هذه اللفظة عربية ، وهو إختيار المتكلمين أهل العلم ، ثم في تفسيره وجوه :

الأول : المهيمن هو الشاهد ، ومنه قوله ﴿ ومهيمناً عليه ﴾[4] قال الشاعر :

---

(١) الشورى : ٥٢ .
(٢) الحشر : ٣٣ .
(٣) المائدة : ٤٨ .
(٤) المائدة : ٤٨ .

إن الكتاب مهيمن لنبينا والحق يعرفه أولو الألباب

فالله سبحانه مهيمن ، أي شاهد على خلقه بما يصدر منهم من قول أو فعل ، ولهذا قال ﴿ ألا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾[1] فيكون المهيمن على هذا التقدير هو العالم بجميع المعلومات ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

الثاني : المهيمن هو المؤمن ، قلبت الهمزة هاء لأن الهاء أخف من الهمزة ، وله نظائر في اللغة ، كقولنا . هيهات ، وأيهات ، وهياك وإياك ، وعلى هذا التقدير المهيمن هو المؤمن .

الثالث : قال الخليل بن أحمد : المهيمن هو الرقيب الحافظ ، ومنه قول العرب هيمن فلان على كذا إذا كان محافظاً عليه .

الرابع : قال المبرد . المهيمن الحدب المشفق ، تقول العرب للطائر إذا طار حول وكره ورفرف عليه ، وبسط جناحه يذب عن فرخه قد هيمن الطائر ، قال أمية بن أبي الصلت :

مليك على عرش السماء مهيمن لعزته تعنو الوجوه وتسجد

الخامس : قال الحسن البصري ، المهيمن المصدق ؛ وهو في حق الله تعالى يحتمل وجهين ، أحدهما أن يكون ذلك التصديق بالكلام ؛ فيصدق أنبياءه بإخباره تعالى عن كونهم صادقين ؛ والثاني ، أن يكون معنى تصديقه لهم ، هو أنه يظهر المعجزات على أيديهم .

السادس : قال الغزالي : إسم لمن كان موصوفاً بمجموع صفات ثلاث ، أحدها العلم بأحوال الشيء ، والثاني : القدرة التامة على تحصيل مصالح ذلك الشيء ، والثالث المواظبة على تحصيل تلك المصالح ، فالجامع لهذه الصفات إسمه المهيمن ، وأن يجتمع على الكمال إلا الله سبحانه .

---

(١) يونس : ٦١ .

وأما المشايخ فقال بعضهم : المهيمن من كان على الأسرار رقيباً ، ومن الأرواح قريباً ؛ قال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾[1] . وقيل : المهيمن الذي يشهد خواطرك ، ويعلم سرائرك ؛ وينصر ظاهرك . وقيل المهيمن الذي يقبل من رجع إليه بصدق الطوية ، ويدفع عن نفسه الغضب والبلية . وقيل : المهيمن الذي يعلم السر والنجوى ، ويسمع الشكر والشكوى ، ويدفع الضر والبلوى .

القول في تفسير إسمه (العزيز)

قال تعالى : « العزيز » ؛ وقال حكاية عن عيسى عليه السلام : « وإن تغفرلهم فإنك أنت العزيز »[2] وقال « وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز »[3] واعلم أنه تعالى أثبت صفة العزة لنفسه ، فقال « ولله العزة ولرسوله »[4] وقال : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾[5] وقال حاكياً عن إبليس ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾[6] وفي إشتقاقه وجوه .

الأول : أن يكون بمعنى أنه لا مثل له ولا نظير ، من عز الشيء بكسر العين في المستقبل[7] ، ومنه يقال عز الطعام في البلد إذا تعذر وجوده عند الطلب : واعلم أنه سمى الشيء الذي يعسر وجدان مثله بالعزيز ؛ فبأن يسمى الشيء الذي يمتنع عقلاً أن يكون له نظير بالعزيز أولى .

الثاني : أن يكون بمعنى الغالب الذي لا يغلب . من عز يُعز بضم العين في المستقبل ، أي غلب يغلب .

---

(١) التوبة : ٧٨ .
(٢) المائدة : ١١٨ .
(٣) الجاثية : ٣٧ .
(٤) المنافقون : ٨ .
(٥) الصافات : ١٨٠ .
(٦) سورة : ص ٨٢
(٧) أي في المضارع فهو من باب فعل يفعل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وعزني في الخطاب ﴾[1] أي غلبني ، وتقول العرب : من عزَّ بَزَّ أي من غلب سلب ، فإذا قيل لمن غلب مع جواز أن يصير معلوماً أنه عزيز ، فالغالب الذي يمتنع أن يصير مغلوباً ، والقاهر الذي يستحيل أن يصير مقهوراً ، الأولى أن يسمى بالعزيز .

الثالث : أن يكون بمعنى الشديد القوي ، يقال عز يعَز بفتح العين في المستقبل إذا إشتد وقوي ، ومنه قوله تعالى ﴿ فعززنا بثالث ﴾[2] أي شددنا وقوينا ، وإذا سمي القوي الذي قد يضعف ، والقادر الذي قد يعجز بالعزيز ، فبأن يسمى القادر الذي يستحيل في حقه العجز عزيزاً أولى .

الرابع : أن يكون بمعنى المعز . فعيل بمعنى مُفعِل ، كالأليم بمعنى المؤلم ، والوجيع بمعنى الموجع ، واعلم أن لفظ العزيز بالمعنى الأول يرجع إلى التنزيه ، وبالثاني والثالث إلى صفات الذات ، وهي القدرة ، وبالرابع إلى صفات الفعل .

قال الغزالي : « العزيز هو الذي يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة فيه ، لم يطلق عليه اسم العزيز ، فكم من شيء يقل وجوده ، ولكن لا يحتاج إليه ، فلا يسمى عزيزاً ، وقد يكون بحيث لا مثل لها ، والانتفاع بها عظيم جداً ، ولكن يسهل الوصول إليه ، فلا يسمى عزيزاً كالشمس ؛ فإنه لا مثيل لها ، والانتفاع بها عظيم جداً ولكنها لاتوصف بالعزة ، فإنه لا يصعب الوصول إليها .

فأما إذا اجتمعت المعاني الثلاثة في شيء فهو العزيز ، ثم في كل واحد من هذه المعاني الثلاثة كمال ونقصان ، فالكمال في قلة الوجود أنه يرجع إلى واحد ، إذا لا أقل من الواحد ، ويكون بحيث يستحيل وجود مثله ، وليس هذا إلا لله ؛ فإن الشمس وإن كانت واحدة في الوجود ، ولكنها ليست واحدة في الامكان لأنه يمكن وجود مثلها .

---

(١) سورة ص : ٣٣ .

(٢) سورة يس : ١٤ .

وأما كونه منتفعاً به فالكمال فيه أن يكون جميع المنافع حاصلة منه ، ولا يحصل من غيره ، وما ذاك إلا لله سبحانه وتعالى ، فإنه هو المبدىء لوجود جميع الممكنات ، فإنه سبحانه هو الذي يحتاج إليه كل شيء في ذاته وصفاته وبقائه ، أما صعوبة الوصول إليه فالكمال فيه هو أن لا يكون لأحد قدرة عليه ، وتكون قدرته على الكل حاصلة ، والحق كذلك لأنه لا سبيل للعقول إلى الاحاطة بكنه صمديته ، ولا سبيل للابصار إلى الاحاطة بعظيم جلاله ، ولا سبيل لأحد من الخلق إلى القيام بشكر آلائه ونعمائه ، فثبت أن كمال هذه الصفات حاصلة لله سبحانه وتعالى لا لغيره ، فوجب القطع بأنه سبحانه وتعالى هو العزيز المطلق .

هذا كله كلام ذلك الإمام ، ولقد وفق في تقريره ، جعله الله هادياً له إلى منازل الرضوان ، ومدارج الغفران .

وأما حظ العبد من هذا الاسم ، فقال : العزيز من العباد من يحتاج إليه خلق الله في أهم أمورهم ، وهي الحياة الأخروية ، والسعادة الأبدية ، ومثل هذا الشخص مما يقل وجوده ، ويصعب إدراكه ، وهي مرتبة الأنبياء صلوات الله عليهم ، ويليهم الخلفاء الراشدون ، ثم العلماء ، ثم الملوك الذين يحكمون على وفق الدين والشرع ، وعزة كل أحد بقدر علو رتبته في الدين ، فإنه كلما كانت هذه الصفة فيه أكمل كان وجدان مثله أقل . وكان أشد عزة وأكمل رفعة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[1] .

أما المشايخ فقال بعضهم : العزة حقر الأقدار سوى قَدره ، ومحو الأذكار سوى ذكره ، وذلك لأنه إذا عظم الرب في القلب صغر الخلق في العين ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه » وإنما كان كذلك ؛ لأن الايمان متعلق بثلاثة أشياء . معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، وإذا تواضع له بلسانه وأعضائه ، فقد ذهب

---

(١) (المنافقون) : ٨ .

الثلثان ، فلو إنضم إليه القلب ذهب الكل ، وقال بعضهم : العزيز الذي لا يدركه طالبوه ، ولا يعجزه هاربوه .

وحكي أن رجلاً أمر بالمعروف على هرون الرشيد ، فغضب عليه هرون ، وكان له بغلة سيئة الخلق فقال : اربطوه معها حتى تقتله ، ففعلوا ذلك ، فلم تضره ، فقال : اطرحوه في بيت وطينوا عليه الباب ، ففعلوا فرأوه في البستان مع أن باب البيت كان مسدوداً كما كان : فقال : من الذي أدخلك هذا البستان ؟ قال : الذي أخرجني من البيت : فقال هرون : اركبوه دابة وطوفوا به في البلد ، وقولوا : إن هرون أراد أن يذل عبداً أعزه الله ، فعجز عنه .

القول في تفسير اسمه (الجبار)

قال تعالى : ﴿ العزيز الجبار ﴾[1] وفيه وجوه الأول : الجبار العالي الذي لا ينال ، ومنه يقال نخلة جبارة إذا طالت وعلت ، وقصرت الأيدي عن أن تنال أعلاها . ويقال : ناقة جبارة إذا عظمت وسمنت . وفرس جبار إذا كان هيكلاً مشرفاً ومنه قوله تعالى : ﴿ إن فيها قوماً جبارين ﴾[2] أي عظماء . قال أهل التفسير : هم بقية قوم عاد . ويقال رجل جبار إذا كان متعظماً متكبراً لا يتواضع ، ولا ينقاد لأحد ، وهذا الاسم في حق الله سبحانه وتعالى يفيد أنه سبحانه وتعالى بحيث لا تناله الأفكار ، ولا تحيط به الأبصار ، ولا يصل إلى كنه عزه عقول العقلاء ، ولا ترتقي إلى مبادىء إشراق جلاله علوم العلماء ، وهو بهذا المعنى من صفات التنزيه .

الثاني : الجبار بمعنى المصلح للأمور ، ويقال : جبرت الكسر إذا أصلحته ، وجبرت الفقير إذا أنعشته ، وكفيته أمره ، والجبار يفيد الكثرة والمبالغة في هذا المعنى ، ويقال : جبر الله مصيبته ، ومن الدعاء : يا جابر

---

(١) الحشر : ٢٣ .

(٢) المائدة : ٢٢ .

كل كسير ، ولا يقال هذا الاسم في حق الله تعالى إلا مع هذه الاضافة .

قال الفراء : والفعل منه جبر يجبر جبراً وجبراناً ، وقال العجاج : قد جبر الدين الإله فجبره أي أصلحه فصلح ، وهو فعل لازم ومتعد[1] ونظيره عمرت الدار فعمرت ، فعلى هذا الجبار في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه هو المصلح لأمور الخلق ، والمظهر للدين الحق ، والميسر لكل عسير ، والجابر لكل كسير ، وهذا المعنى يرجع إلى صفات الفعل .

الثالث : أن يكون الجبار من جبره على كذا أي أكرهه على ما أراد ، ويقال جبر السلطان فلاناً على الأمر وأجبره بالألف ، إذا أكرهه عليه .

واعلم أن أجبره بمعنى الاكراه أكثر من جبره ، وجبره من جبر الكسر ، والفقير أكثر من أجبره ، فعلى هذا الجبار في وصف الله تعالى هو الذي أجبر الخلق على ما أراد ، وحملهم عليه ، أرادوا أم كرهوا ، لا يجري في سلطانه إلا ما يريد ، ولا يحصل في ملكه إلا ما يشاء .

وسمعت أن الاستاذ أبا إسحق الاسفرائيني كان حاضراً في دار الصاحب ابن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، وكان رئيس المعتزلة ، فلما رأى الاستاذ قال : سبحان الذي تنزه عن الفحشاء ؛ فقال الاستاذ أبو إسحق في الحال : سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء . وأقول : تأملوا في هاتين الكلمتين ؛ فإن كل واحد منهما جمع جميع دلائل مذهبه في هذه الكلمة[2] واعلم أن الجبار بهذا المعنى ، وبالمعنى الثاني أيضاً من صفات الأفعال .

فإن قيل : الجبروت والتكبر في حق الخلق مذموم ، فلمَ يمدح الله به ؟

قلنا : الفرق أنه سبحانه قهر الجبابرة بجبروته ، وعلاهم بعظمته ، لا يجري عليه حكم حاكم ، فيجب عليه إنقياده ، ولا يتوجه عليه أمر آمر ،

---

(١) أي يكتفي بالفاعل : أو ينصب مفعولاً .

(٢) انظر ذلك مفصلاً في الكتب التي بحثت في الفرق الاسلامية ومنها كتاب الامام الرازي « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م .

فيلزمه امتثاله ، آمر غير مأمور ، قاهر غير مقهور : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يَسألون ﴾(١) .

وأما الخلق فهم موصوفون بصفات النقص ، مقهورون محجوبون ، تؤذيهم البقة ، وتأكلهم الدودة ، وتشوشهم الذبابة ، أسير جوعة ، وصريع شبعة ، ومن تكون هذه صفته كيف يليق به التكبر والتجبر ؟!

وأما المشايخ فقال بعضهم : الجبار الذي لا يرتقي إليه وهْم ، ولا يشرف عليه فهم ، وقيل : الجبار من لا فهم يلحقه ، ولا دهر يخلقه ، وقيل : الجبار من أصلح الأشياء بلا علاج ، وأمر بالطاعة بلا احتياج ، وكان بعضهم يقول : يا جبار عجبت لمن يعرفك كيف يستعين على أمر بأحد غيرك ، وعجبت لمن يعرفك كيف يرجو أحداً غيرك ، وعجبت لمن يعرفك كيف يلتفت إلى أحد غيرك .

أما حظ العبد من هذا الاسم ، فقال الغزالي : الجبار من العباد من ارتفع عن درجة الارتفاع ، ووصل إلى مقام الاستتباع ، ومن علامته : أنه لا يصير أسيراً بحب المال والجاه ، لأن كل من كان كذلك كان منقاداً بحب المال والجاه ، مكثاراً منها ، أما من قويت نفسه ، وأشرقت روحه ، وعظمت همته ، وصار بالنسبة إلى ما سوى الحق جباراً ، لا جرم لم يلتفت في دنياه وعقباه إلى ما سوى الله تعالى ، كما قال تعالى في صفة محمد ﷺ ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾(٢) .

القول في تفسير اسمه (المتكبر)

أحسن الناس كلاماً في تفسير هذا الاسم الغزالي قدس الله روحه ، فإنه قال المتكبر هو الذي يرى الكل حقيراً بالاضافة إلى ذاته ، فلا يرى العظمة

---

(١) الأنبياء:٢٣ .
(٢) النجم:١٧ .

والكبرياء إلا لنفسه ، وينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد . فإن كانت هذه الرؤية صادقة كان التكبر حقاً ، وكان صاحبها محبباً في ذلك التكبر ؛ ولا يتصور ذلك على الاطلاق إلا في حق الله سبحانه وتعالى ، ولئن كانت تلك الرؤية باطلة ، ولم يكن ما يراه من التفرد بالعظمة كما يراه ، كان التكبر باطلاً مذموماً ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة جل جلاله : ﴿ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحداً منهما قذفته في النار ﴾ ، ولما كان الأمر كذلك ظهر أن التكبر في حقه سبحانه وتعالى صفة مدح وكمال ، وفي حق غيره صفة نقص وإختلال .

ولنذكر بعد هذا ما قاله سائر الناس ، قال مجاهد : التكبر مشتق من الكبرياء والكبرياء في اللغة الملك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾[١] يعني الملك ، فعلى هذا المتكبر الملك الذي لا يزول سلطانه ، والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد ، وهو الله الواحد القهار .

وقال آخرون المتكبر بمعنى الكبير ، قال تعالى ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾[٢] أي أعظمته ، والحق سبحانه وتعالى هو الكبير الذي ليس لكبريائه نهاية والعظيم الذي ليس لعظمته غاية .

قال الزجاج : المتكبر في صفات الله ؛ هو الذي تكبر عن ظلم عباده .

واعلم أن هذه الوجوه كلها متكلفة ، والتحقيق ما ذكره الغزالي ؛ فإن قيل المتكبر على وزن المتفعل ، وهو يفيد التكلف ، والمتكلف هو الذي يظهر أمراً ولا يستحقه ، يقال : فلان يتعظم وليس بعظيم ، ويتسخى وليس بسخي .

إذا ثبت هذا فنقول : المسمى بهذا اللفظ إن كان ثابتاً في حق الله لم

---

(١) يونس: ٧٨ .
(٢) يوسف:٣١ .

يكن ذلك تكلفاً فلم يجز إطلاق لفظ المتفعل عليه ، وإن لم يكن ثابتاً في حقه تعالى لم يجز إثباته له .

قلنا قال الأزهري : التفعل قد يجيء بغير التكلف ، ومنه قول العرب فلان يتظلم أي يظلم ، وفلان يتظلم أي يشكو من الظلم ، وهذه الكلمة من الأضداد قد يعني بها الظالم ، وقد يعني بها المستزيد من الظلم ؛ فثبت أن هذا البناء غير مقصور على التكلف .

وأنا أقول : يمكن أن يجاب بوجه آخر ، وهو أن المتفعل هو الذي يحاول إظهار الشيء ، ويبالغ في ذلك الاظهار ، ثم إن كان صادقاً فيه ذلك الاظهار منه صف مدح ، وإن كان كاذباً فيه كان صفة ذم ، وعلى هذا التقدير يزول السؤال .

أما المشايخ فقد قالوا : المتكبر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت ، وتوحد بالعظمة والجبروت ، وقيل : المتكبر الذي بيده الاحسان ، ومنه الغفران ، وقيل : المتكبر الذي ليس لملكه زوال ، ولا في عظمته إنتقال .

وأما حظ العبد منه : فهو أن التكبر المحمود للعبد أن يتكبر عن كل ما سوى الحق سبحانه ، فهو يعبد الحق للحق ، لا لطلب ثواب ؛ أو هرب من عقاب ، وإلا فقد جعل الخلق غاية ، والحق وسيلة ، وهو عكس الحق ، وضد الصدق .

القول في تفسير اسمه (الخالق)

قال تعالى ﴿ هو الله الخالق ﴾[1] وقال : ﴿ خالق كل شيء فاعبدوه ﴾[2] وقال : ﴿ هل من خالق غير الله ﴾[3] وقال : ﴿ بلى هو الخلاق

---

(١) الحشر : ٢٤ .
(٢) الأنعام : ١٠٢ .
(٣) فاطر : ٣ .

العليم ﴾[1] وقال : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[2] وقال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[3] وفيه مسائل .

الأولى : في تفسير الخلق : اعلم أن الخلق جاء في اللغة بمعنى الايجاد ، والابداع ، والاخراج من العدم إلى الوجود ، والدليل على أنه جاء بمعنى التقدير وجوه .

الأول : قوله : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ، هذه الآية تقتضي كثرة الخالقين ، وثبت بالدلائل العقلية والسمعية أنه لا موجد إلا الله تعالى ، فوجب حمل الخلق في هذه الآية على التقدير .

الحجة الثانية قوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[4] ومعلوم أن المراد من قوله ﴿ كن فيكون ﴾ هو الايجاد والابداع ، وقوله ﴿ خلقه من تراب ﴾ مقدم عليه ، والشيء المتقدم على الايجاد ليس إلا التقدير فثبت أن المراد بقوله ﴿ خلقه من تراب ﴾ هو أنه قدره منه ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ فالخلق هو التقدير ، والأمر هو قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ .

الحجة الثالثة : إن الكذب في اللغة يسمى خلقاً ، قال تعالى : ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾[5] . ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾[6] . ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾[7] والكذب إنما يسمى خلقاً ، يقدِّر في نفسه ذلك الكذب ويضمره فدل هذا على أن التقدير يسمى بالخلق .

---

(١) سورة يس : ٨١ .
(٢) (المؤمنون) : ١٤ .
(٣) الأعراف : ٥٤ .
(٤) آل عمران : ٥٩ .
(٥) العنكبوت : ١٧ .
(٦) الشعراء : ١٣٧ .
(٧) سورة ص : ٧ .

الحجة الرابعة : قوله لعيسى عليه السلام ﴿ وإذا تخلق من الطين ﴾[1] والمراد التصوير . والتقدير .

الحجة الخامسة : قول الشاعر : [زهير والبيت من الكامل].

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري .

وأيضاً الإسكاف يسمى خالقاً ، لما أنه يقدر النعل بقالب مخصوص ، قال :

ولا يبسط بأيدي الخالقين ولا أيدي الخوالق ألا حبذا الأدم

فثبت بهذه الوجوه أن الخالق جاء في اللغة بمعنى التقدير ، فلنبحث الآن عن التقدير أيضاً ما هو ، فنقول: التقدير عبارة عن تكوين الشيء على مقدار معين ، ولا بد فيه من أمور ثلاثة :

أحدها : القدرة المؤثرة في وجود ذلك الشيء ، ثم إن كانت القدرة بحيث لا يتوقف تأثيرها في المقدور على آلة ، كما في حق الله سبحانه وتعالى كان التقدير هو نفس ذلك التحصيل والتكوين ، وإن كان يتوقف على آلة مخصوصة كما في حق العبد ، فإنه لا يمكنه تصوير الجسم المتباين وتشكيله إلا عند حركات الأصابع فها هنا سميت تلك الحركات القائمة بأصابعه تصويراً وتقديراً .

والثاني : الارادة المخصصة لذلك الشيء بذلك المقدار المعين ، دون ما هو أزيد منه وأنقص منه .

والثالث : العلم بذلك القدر الخاص ، وذلك لأن إرادة الشيء مشروطة بالعلم به ، ثم إن كان الفاعل عالماً بكل المعلومات كان غنياً في حصول ذلك العلم عن الفكرة والروية ، كما في حق الله سبحانه وتعالى ، وإن لم يكن كذلك لم يحصل له ذلك العلم بذلك المقدار الموافق للمصلحة إلا بالفكر والروية ، فها هنا قد تسمى تلك الفكرة والروية تقديراً وتخليقاً ، ولكنه على

---

(١) المائدة : ١١٠ .

سبيل المجاز ، وذلك لأن التقدير عبارة عن إيقاع الشيء على قدر معين ، وذلك لا يمكن إلا بعد العلم بأمرين . أحدهما : العلم بذلك القدر ، والثاني : العلم بكون ذلك القدر الموافق للمصلحة . وهذان العلمان لا يمكن حصولهما إلا بعد الفكرة فكانت الفكرة شرطاً لحصول هذا العلم في حق العبد ، وهذا العلم شرط لكون المريد مريداً لايقاعه على ذلك القدر ، ولكون القادر موجداً له على ذلك القدر ، فكانت الفكرة شرطاً لشرط التقدير لا مطلقاً ، بل في حق العبد ، فبهذا الطريق سميت الفكرة خلقاً وتقديراً ، هذا هو البحث عن حقيقة التقدير وماهيته .

أما بيان أن لفظ الخلق جاء في اللغة بمعنى الايجاد والابداع ، فيدل عليه وجوه : الأول : قوله ﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1] ولو كان الخلق ها هنا عبارة عن التقدير لصار معنى الآية إنّا كل شيء قدرناه بقدر ، فيكون تكريراً بلا فائدة .

الحجة الثانية قوله : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾[2] ولو كان الخلق عبارة عن التقدير لكان معنى الآية : وقدر كل شيء فقدره تقديراً .

الحجة الثالثة قوله : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء ﴾[3] .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد نفي خالق غير الله يرزقكم من السماء ، وهذا لا يقتضي نفي خالق غير الله .

قلنا بتقدير أن يصح الإيجاد من غير الله لا يمتنع إثبات خالق غير الله يرزقنا من السماء ، لأن الملائكة يصدق عليهم كونهم خالقين ، ولا يمتنع عليهم أن يرزقوا غيرهم ، ولذلك يقال رزق السلطان فلاناً كذا إذا ملكه ومكنه من التصرف فيه ، فثبت أن هذه الآية تقتضي نفي خالق غير الله ، ولا يمكن

(١) القمر : ٤٩ .
(٢) الفرقان : ٢ .
(٣) فاطر : ٣ .

حمل الخالق هاهنا على المقدر ، لما بينا أن في المقدورين كثرة ، فوجب أن يكون المراد منه الإيجاد والإبداع .

الحجة الرابعة : قوله ﴿ كما بـدأنا أول خلق نعيـده ﴾[1] ولا يليق بلفظ الخلق هاهنا إلا الإيجاد .

الحجة الخامسة : قوله : ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الـذين من دونه ﴾!![2] ذكر هذا على سبيل الإنكار ، وهذا صـريح في أن كـل من سوى الحق ليس بخالق ، فثبت بهذه الدلائل أن الخلق جاء في اللغة بمعنى الإيجاد والإبداع .

المسألةالثانية : زعم أبو عبدالله البصري من المعتزلة ، أن إطلاق اسم الخـالق على الله ليس على سبيـل الحقيقـة ؛ لأن الخلق في اللغـة عبـارة عن الفكـرة والرويـة ، وهذا على الله محـال ، وكان إطـلاق اسم الخالق على الله ليس على سبيل الحقيقة ، وهذا ضعيف من وجهين .

الأول : أنا بينا أن لفظ الخلق كما ورد بمعنى التقديـر ، فقد ورد أيضـاً بمعنى الإيجاد والإبداع ، وهذا المعنى ثابت في حق الله تعالى .

الثاني : سلمنا أن الخلق في اللغة عبارة عن التقدير فقط ، لكنـا بينا أن الفكرة ليست جزء ماهية التقدير ؛ بل هي شرط لشرط التقدير في حق العبد لا مطلقاً ، فلا يلزم من انتفاء الفكرة انتفاء التقدير .

المسألة الثالثة : معنى الخالق الباري المصور : اعلم أن قولـه تعالى : ﴿ هو الله الخالق البـارىء المصور ﴾[3] إمـا أن يكون المـراد هو المقـدر . أو الموجد ، فإن فسرنا الخالق هاهنا بـالمقدر حسن انتـظام هذه الأسمـاء الثلاثـة على هذا الترتيب ، وذلـك لأن التقديـر يرجـع حاصله إلى العلم ، فنقـول من قدماء الفلاسفة من ظن أنه سبحانـه وتعالى لا يعلم الأشيـاء ، بل قـالوا : إنـه

---

(١) الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) لقمان : ١٣ .

(٣) الحشر : ٢٤ .

سبحانه.إنية معللة ، فلفظ الخالق يدل على كونه سبحانه وتعالى عالماً بحقائق الأشياء ، وبجهات مصالحها .

ومنهم من سلم كونه سبحانه وتعالى عالماً بحقائق الأشياء ، لكنه يقول الهيولي[1] قديمة ، والبارىء يتصرف في فلك الهيولي القديمة ، فقوله البارىء رد على هؤلاء ، فإنه يدل على كونه تعالى موجداً لها عن العدم المحض ، ومبدعاً لها عن النفي الصرف .

ومنهم من سلم كونه تعالى عالماً بالأشياء ، وسلم كونه موجداً لهذه الذوات ، إلا أنه يقول صور النبات والحيوان إنما تصدر عن الطبيعة ، فالطبيعة هي التي تصور كل واحد من النبات والحيوان بصورته الخاصة ، وخلقته المعينة ، فقوله : « المصور » رد على هؤلاء ، فالخالق يدل على كمال علمه ، والبارىء يدل على كونه موجداً للذوات لا عن المادة ، والمصور يدل على أنه هو الذي صور هذه الأشياء ووضعها بكيفياتها ، فمن عرف ربه بهذه الأسماء الثلاثة فقد عرف معبوده بصفات الإلهية ، ونعوت الربوبية ، فظهر بهذا أن هذا الترتيب في غاية الحسن والفائدة .

ومثاله : أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق الإنسان عاقلاً فاهماً متحملاً لأمانة الله تعالى ، مخاطباً ، مكلفاً ، فلا بد وأن يقدر تركيب ذاته بقدر مخصوص وصفات مخصوصة ، ويؤلف أعضاءه على وجه مخصوص مطابق للمصلحة ، والحكمة على ما يشتمل عليه كتب التشريح ، ثم إذا حصل التقدير على هذا الوجه فلا بد من مادة عنها يتكون بدن الإنسان ، وهي الأجسام ، ولا بد من صورة بها يتكون بدن الإنسان ، وهي الأمزجة والقوى والتركيبات ، فهو تعالى « خالق » لأنه هو الذي قدر كل شيء في علمه بالمقدار النافع ، المطابق للمصلحة ، « وبارىء » لأنه أبدع تلك الأجسام ، وأخرجها من العدم إلى الوجود ، « ومصور » لأنه تعالى هو الذي أحدث المزاج والقوى والتراكيب في تلك الأجسام ، فإذا عرفت وجه الكلام في هذه

---

(١) الهيولي في الفلسفة المادة الأولى ، تنفعل وتحمل الصورة فتتولد الموجودات والجمع هَيُولَيَات .

الصورة الواحدة ، فاعرف مثله في جميع الأجسام العلوية ، وهي الأفلاك والكواكب ، وفي جميع الأجسام السفلية وهي العناصر ، والمعادن والنبات ، والحيوان ، وخاصة الإنسان ، وتأمل في كيفية تركيباتها ، وتأليفاتها ، حتى يقع في بحر لا ساحل له ، وكل ذلك كالتفسير لكونه تعالى خالقاً بارئاً مصوراً. هذا كله إذا فسرنا الخالق بالمقدر .

أما إذا فسرناه بالموجد والمبدع فإنه يصعب تفسير البارىء : فنقول : ذكروا في تفسير البارىء وجوها .

الأول : أن البارىء هو الموجد والمبدع ، يقال : برأ الله الخلق يبرأهم ، والبرية الخلق ، فعلية بمعنى مفعولة ، وأصله الهمز إلا أنهم اصطلحوا على ترك الهمزة فيه قال أبو عبيدة الهروي : العرب تترك الهمزة من خمسة أحرف : البرية وأصلها برأت ، والروية وأصلها رأوت ، في هذا الأمر ، والخابية وأصلها خبأت والنبوة وأصلها نبأت ، والذرية وأصلها ذرأت ، فعلى هذا التقدير لا فرق بين الخالق والبارىء ، وهما لفظان مترادفان وردا في معنى واحد .

الوجه الثاني : أن أصل البرء القطع والفصل ، قال الأخفش : يقال برئت العود وبروته إذا قطعته ونحته ، وبريت القلم بغير همز إذا قطعته وأصلحته ، ويقال : برأت من المرض أبرأ برأ وبريت أيضاً من المرض أبرأ ، ويقال برأت من فلان ودعواه أبرأ براءة ، وبرأ الرجل من شريكه ، وبرأ الرجل من امرأته إذا فارقها ، إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى خالق بمعنى أنه موجد للذوات والأعيان ، وبارىء بمعنى أنه فصل بعض الأشخاص عن بعض ، ومصور بمعنى أنه هو الذي يصور كل واحد من الأشخاص بصورته الخاصة ، وعلى هذا الوجه ظهر الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة .

الوجه الثالث : أن البارىء مشتق من البري وهو التراب ، هكذا قاله ابن دريد ، والعرب تقول بفيه البري أي التراب ، فالخالق يدل على أنه تعال أوجد الأشياء من العدم ، والباري يدل على أنه تعالى ركّب الإنسان من

التراب ، كما قال : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ﴾[1] ومصور من حيث أنه أعطاه الصورة المخصوصة ، كما قال : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾[2] .

قال أبو سليمان الخطابي : وللفظة الباري اختصاص بالحيوان أزيد مما لسائر المخلوقات ، فيقال برأ الله الإنسان ، وبرأ النسم ، ولا تقل برأ الله السماء والأرض ، وكانت يمين علي بن أبي طالب عليه السلام التي يحلف بها ؛ والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، وهذا يؤيد قول ابن دريد ، وأما المصور فهو مأخوذ من الصورة .

وفي اشتقاق لفظ الصورة قولان :

الأول : من الصَوَر وهو الإمالة قال تعالى : ﴿ فصرهن إليك ﴾[3] أي أملهن ؛ وفي حديث عكرمة « وحملة العرش كلهم صُور » يريد جمع أصور ، وهو مائل العين ، فالصورة هي الشكل المائل إلى الأحوال المطابقة للمصلحة والمنفعة .

والثاني : أن الصورة مأخوذة من صار يصير ، ومنه قولهم : إلى ماذا صار أمرك ، ومادة الشيء هي الجزء الذي باعتباره يكون الشيء ممكن الحصول ، وصورته هي الجزء الذي باعتباره يكون الشيء حاصلاً كائناً لا محالة ، فلا جرم كانت الصورة منتهى الأمر ومصيره .

إذا عرفت هذا فنقول : لا شك أن الأجسام متساوية في ذاتها ، ويرى كل جسم مختصاً بصورة خاصة ، وشكل خاص ، والذوات المتماثلة إذا اختلفت في الصفات كانت تلك الصفات جائزة العدم والوجود ، والجائز لا بد له من مرجح . ومخصص فافتقرت الأجسام بأسرها في صورها المخصوصة ، وأشكالها المخصوصة إلى مخصص قادر ، وهو الله سبحانه فثبت أنه سبحانه وتعالى هو المصور ، ثم إنه سبحانه خص صورة الإنسان بمزيد العناية ، كما

---

(١) طه : ٥٥ .
(٢) غافر : ٦٤ ، التغابن : ٣ .
(٣) البقرة : ٢٦٠ .

قال : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾[1] وقال : ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾[2] وقال بعد أن شرح خلق الإنسان : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[3] هذا هو الكلام في تفسير هذه الأسماء الثلاثة .

المسألة الرابعة : في كلام المشايخ في اسمه الخالق والبارىء والمصور : في هذه الأسماء قالوا : الخالق هو الذي بدأ الخلق بلا مشير ، وأوجدها بلا وزير ، وقيل : الخالق الذي ليس لذاته تأليف ، ولا عليه في قوله تكليف ، وقيل : الخالق الذي أظهر الموجودات بقدرته ، وقدر كل واحد منها بمقدار معين بإرادته ، وقيل : الخالق الذي خلق الخلق بلا سبب وعلة ، وأنشأها من غير جلب نفع ولا دفع مضرة .

حكي عن جعفر بن سليمان أنه قال : مررت بعجوز مكفوفة تنوح على نفسها فقلت لها : ما معاشك ؟ فقالت : دع هذه الفضول ، بلغت هذا المبلغ فما أحوجني إليك ولا إلى غيرك . ثم قالت : أما سمعت قول الخليل عليه السلام : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ﴾[4] .

أما البارىء فقالوا : من عرف أنه البارىء لم يكن للحوادث في قلبه أثر ، ولا للشواهد على سره خطر ، وقيل : من عرف أنه البارىء تبرأ عن حول نفسه وسطوته ، ولا يمن على الحضرة بعبوديته وطاعته ، وقيل من عرف أنه البارىء فني عن مساكنة الأغيار ، وسقط عن سره ملاحظة الآثار ، وقيل : من عرف أنه البارىء تبرأ عن المحظور ، والتجأ إلى الملك الغفور .

أما المصور فقالوا : إنه الذي سوى قامتك ، وعدل خلقتك ، قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾[5] ، وقيل : المصور من

---

(١) غافر : ٦٤ ، التغابن : ٣ .
(٢) البقرة : ١٣٧ .
(٣) (المؤمنون) : ١٤ .
(٤) الشعراء : ٧٨و٧٩و٨٠ .
(٥) التين : ٤ .

زين الظواهر عموماً ، ونور السرائر خصوصاً ، وقيل : المصور الذي ميز العوآم من البهائم بتسوية الخَلق ، وميز الخواص من العوام بتصفية الخُلق .

واعلم أنه تعالى كما زين الظواهر بالصورة الحسنة ، زين البواطن أيضاً بالسيرة الحسَنة ، وبهذا المعنى قال تعالى في تعظيم العلم : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[1] ، وقال في تعظيم الخلق : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[2] فالمرء مشهور بخلقه ، مستور بخلقه .

قال يحيى بن معاذ : إذا سكتُّ فأنا من الناس واحد ، وإذا نطقت فأنا في الناس واحد ، ولهذا قيل : المرء مخبوء تحت لسانه .

وقال عليه الصلاة والسلام « ما واحد خير من ألف مثله إلا الإنسان » .

المسألة الخامسة : حظ العبد من هذه الأسماء الثلاثة قليل ، أما الخالق فقد رجع حاصله إلى العلم ، وأما البارىء فقد رجع حاصله إلى القدرة ، فحظ العبد من الأول تكميل القوة النظرية بمعرفة الحقائق ، ومن الثاني تكميل القوة العملية بمحاسن الأخلاق ، وإليهما الإشارة بقول الخليل : ﴿ رب هب لي حكماً ﴾[3] . إشارة إلى تكميل القوة النظرية ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ إشارة إلى تكميل القوة العملية ، فإذا صار هكذا فقد صار تاماً في ذاته تماماً يليق بالبشرية ، فيجب بعده أن يشتغل بتكميل غيره ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي ﴾[4] وهذا هو حظ العبد من اسمه المصور ، لأنه بإرشاده يصور الحق في عقول الخلق .

---

(١) النساء : ١١٣ .
(٢) القلم : ٤ .
(٣) الشعراء : ٨٣ .
(٤) يوسف : ١٠٨ .

القول في تفسير اسمه (الغفار) وفيه مسائل

الأولى : الألفاظ المشتقة من المغفرة : اعلم أن الألفاظ المشتقة من المغفرة ورد أكثرها في حق الله سبحانه فأحدها الغافر ، قال تعالى : ﴿ غافر الذنب ﴾[1] .

وثانيها الغفور قال : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾[2] ﴿ وهو الغفور الودود ﴾[3] ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾[4] ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[5] ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفور رحيما ﴾[6] .

وثالثها : الغفار قال تعالى : ﴿ وإني الغفار لمن تاب ﴾[7] ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[8] ﴿ إلا هو العزيز الغفار ﴾[9] فقد ثبت بنص الكتاب أن هذه الأسماء الثلاثة المشتقة من المغفرة لله تعالى .

والعبد له أيضاً أسماء ثلاثة مشتقة من المعصية : أحدها الظالم ، قال تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾[10]، وثانيها الظلوم قال : ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾[11]، الثالث الظلام قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾[12]ومن أسرف في المعصية كان ظلاماً ، وكأنه قال عبدي لك ثلاثة

---

(١) غافر : ٣ .
(٢) الكهف : ٥٨ .
(٣) البروج : ١٤ .
(٤) الحجر : ٤٩ .
(٥) الزمر : ٥٣ .
(٦) النساء : ١١٠ .
(٧) طه : ٨٢ .
(٨) نوح : ١٠ .
(٩) الزمر : ٥ .
(١٠) فاطر : ٣٢ .
(١١) الأحزاب : ٧٢ .
(١٢) الزمر : ٥٣ .

أسماء في الظلم بالمعصية ، ولي ثلاثة أسماء في الرحمة بالمغفرة ، فإن كنتَ ظالماً فأنا غافر ، وإن كنت ظلوماً فأنا غفور ، وإن كنتَ ظلاماً فأنا غفار .

ثم إن صفاتك متناهية كما يليق بك ، وصفاتي غير متناهية كما يليق بي ، وغير المتناهي يغلب المتناهي ، فيا مسكين لا تكن من القانطين ، ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[1] .

واعلم أن الآيات الواردة في المغفرة كثيرة ، منها ما ورد بلفظ الماضي . قال تعالى في قصة داود عليه السلام : ﴿ فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك ﴾[2] وهذا يدل على أن كل من استغفر وأناب إلى الله حصلت له المغفرة .

ومنها ما ورد بلفظ المستقبل ، قال تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[3] وقال : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾[4] وقال ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾[5] وقال لنبينا ﷺ : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾[6] .

ومنها ما ورد بلفظ الأمر تعليماً للعباد ، قال في آخر سورة البقرة ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾[7] .

ومنها ما ورد بلفظ المصدر ، قال : ﴿ غفرانك ربنا ﴾[8] ﴿ وإن ربك لذو مغفرة ﴾[9] .

---

(١) الحجر : ٥٦ .
(٢) سورة ص : ٢٤ و ٢٥ .
(٣) النساء : ٤٨و١١٦..
(٤) الزمر : ٥٣ .
(٥) آل عمران : ١٤٥ .
(٦) الفتح : ٣ .
(٧) البقرة : ٢٨٦ .
(٨) البقرة : ٢٨٥ .
(٩) الرعد : ٦ .

المسألة الثانية : **الغفر في اللغة عبارة عن الستر** ، ومنه قيل لجنة الرأس مغفر ، وسمى زبين الثوب [وبره] غفراً ، لأنه يستر سداه ، إذا عرفت هذا فنقول : زعم الجمهور أن مغفرة الله لعباده عبارة عن أنه يستر ذنوبهم ، ويخفيها ولا يظهرها ، ولا يطلعهم عليها ، فضلاً عن أن يطلع غيرهم عليها .

واعلم أن هذا القول فيه نظر ، وذلك لأن الإظهار يضاد معنى الستر ، والله تعالى أظهر زلة آدم بقوله ﴿ فأزلهما الشيطان ﴾[1] وبقوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[2] وذكر هذه القصة في التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن ، في مواضع كثيرة فلو كانت المغفرة عبارة عن الستر ، لوجب أن لا تكون زلة آدم عليه السلام مغفورة وأيضاً قال أبونا آدم ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا ﴾[3] فمع هذا الإظهار طلب المغفرة فعلمنا أنها لا يمكن تفسيرها بالستر .

وقال موسى عليه السلام لما قتل القبطي : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾[4] أظهر الزلة ، ثم طلب المغفرة ، وأيضاً أظهر زلة داود عليه السلام ثم قال ﴿ فغفرنا له ذلك ﴾[5] وأيضاً قال لمحمد ﷺ : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾[6] ، وقال : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾[7] .

فهل هنا أظهر ذكر الذنب ، ثم قال : إنه غفره ، وكان من دعوات نبينا محمد ﷺ « اللهم اغفر لي مغفرة ظاهرة وباطنة ، واغفر ذنوب السر والعلانية » .

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز تفسير المغفرة بالستر ، وإذا ثبت هذا فنقول مغفرة الله تعالى مفسرة بالعفو والصفح على سبيل المجاز ، من حيث

---

(١) البقرة : ٣٦ .
(٢) طه : ١٢١ .
(٣) الأعراف : ٢٣ .
(٤) القصص : ١٦ .
(٥) ص : ٢٥ .
(٦) الفتح : ٢ .
(٧) غافر : ٥٥ .

إن المستور والزائل يشتركان في عدم الظهور ، والمشاركة في الوصف أحد أسباب حسن التجاوز ، والعفو عبارة عن إسقاط العقوبة وتركها ، قال أصحابنا فعلى هذا الغافر من صفات الفعل ، وهذا أيضاً فيه نظر لأنه عبارة عن ترك الفعل ، لا عن الفعل .

وأما الغفور فهو أبلغ من الغافر ، لأن هذا البناء للمبالغة كالصفوح والضحوك والقتول ، والغفار أبلغ من الغفور ، لأنه وضع للتكثير ، ومعناه أنه يغفر الذنب بعد الذنب أبداً .

واعلم أن الذين حملوا هذا اللفظ على الستر فسروا ذلك بالدعاء المشهور ، وهو قولهم يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، قالوا وهذا الستر إما في الدنيا أو في الآخرة ، أما الدنيا ففي أحوال النفس والبدن ، أما النفس فهو أنه سبحانه جعل مستقر الخواطر المذمومة ، والإرادات القبيحة في العبد ستر قلبه ، حتى لا يطلع عليه أحد ، فإنه لو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وساوسه ، وما ينطوي عليه ضميره من الغش والخيانة لمقتوه ، بل سعوا في إهلاكه ، ولكن الحق ستر تلك الخواطر عن الخلق .

وأما في أحوال البدن فانظر أنه تعالى جعل مفاتح بدنه التي تستقبحها الأعين مستورة في باطنه ، وجعل محاسنها ظاهرة مكشوفة .

وأما ما يتعلق بالآخرة فهو أنه تعالى يغفر الذنوب ، ولا يطلع أحداً عليها ، بل قد لا يطلع المذنب عليها أيضاً صوناً له عن ألم الخجل .

المسألة الثالثة في اللطائف المذكورة في آيات المغفرة . أما قوله تعالى ﴿ غافر الذنب ﴾[1] ففي تفسيره عبارات .

إحداها : غافر الذنب إكراماً ، وقابل التوب إنعاماً ، شديد العقاب للكافرين ، ذي الطول للسابقين ، والمقربين .

وثانيها : غافر ذنب المذنبين ، وقابل توبة الراجعين ، شديد العقاب

---

(١) غافر : ٣ .

للكافرين والمنافقين ذي الـطِوَل على المؤمنين والعارفين .

وثالثها : غافر الذنب للظالمين ، قابل التوب للمقتصدين شديـد العقاب للكافرين ذي الطول للسابقين والمقربين .

ورابعها قال أبو بكر الـواسطي : غـافر الـذنب لمن قال لا إلـه إلا الله ، قـابل التـوب لمن ثبت على معرفـة لا إله إلا الله ، شـديد العقـاب لمن أنكـر حقيقة لا إله إلا الله ، ذي الطول على من شاهد أسرار لا إله إلا الله .

أما النكت فمن وجوه : الأول : أنـه تعالى ذكـر في هذه الآيـة أربعاً من صفاته ، ثلاثاً منها للمؤمنين ، وواحدة للكافرين ، فالمغفرة ، وقبول التوبـة ، وذو الطول للمؤمنين ؛ وشديد العقاب للكافرين ؛ فالكافر لما حصلت له صفة واحـدة وهي شديـد العقاب مـا نجا أحـد من الكفار مـع كثرتهم من العقـوبـة الأبدية ؛ فالمؤمنون الذين حصلت لهم الصفات الثلاث كيف يعقل أن يصيروا محرومين عن الرحمة ، مع أنه تأكد ذلك بقوله ﴿ سبقت رحمتي غضبي ﴾ .

فإن قيل : ما الحكمة في أنـه تعالى ذكـر للمؤمنين ثلاثـة من الأسماء ، وللكافرين واحداً ؟

(قلنا) : لأن المؤمنين على ثلاث طبقات : منهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصـد ، ومنهم سابق بـالخيرات ، والكفـار كلهم واحد لقـوله ﴿ فمـاذا بعـد الحق إلا الضـلال ﴾[1] ولقـولـه عليـه الصـلاة والسـلام : « الكفـــر كله ملة واحدة » .

واعلم أنه تعالى كما ذكر للمؤمنين في هذه الآية صفات ثلاثاً ، وللكفار صفة واحدة ، وكذا ذكر أشربتهم على هذا التـرتيب ، فقال في حق الكـافرين ﴿ وسقوا ماء حميما ﴾[2] وقال للمؤمنين ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾[3] وقال

---

(١) يونس : ٣٢ .
(٢) محمد : ١٥ .
(٣) الإنسان : ٦ .

﴿ يسقـون من رحيق مختوم ختـامـه مسـك ﴾[1] وللسـابقين ﴿ وسقـاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾[2] .

النكتة الثانية : أنه تعالى ندب رسوله عليـه الصلاة والسـلام إلى إصلاح شأن الفقراء في أمور أربعة .

أحدها قوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾[3] فإذا نهى رسولـه عن طردهم، فكيف يليق بكرمه أن يطردهم .

والثانية : قـوله ﴿ واصبـر نفسك مـع الذين يـدعون ربهم ﴾[4] فـإذا أمر رسوله أن لا يفارقهم ، فكيف يليق بكرمه أن يبعدهم من رحمته .

وثالثها : قوله ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾[5] .

ورابعها : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾[6] والتقريب ظاهر .

وأما قوله : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعـاً ﴾[7] فروى ابن عبـاس : أن وحشياً لما قتل حمزة ذهب إلى الطائف وندم على فعله ، فكتب إلى النبي ﷺ هل لي من توبة ؟ فنزل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء ﴾[8] فقال وحشي : لعلي لا أدخل تحت هذه المشيئة ، فنزل قوله تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾[9] إلى قوله ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾[10]فقال وحشي : لعلي لا يكون عملي صالحـاً فنزل قـوله ﴿ قـل يا

---

(١) المطففين : ٢٥ .
(٢) الإنسان : ٢١ .
(٣) الأنعام : ٥٢ .
(٤) الكهف : ٢٨ .
(٥) الكهف : ٢٨ .
(٦) الضحى : ١٠ .
(٧) الزمر : ٥٢ .
(٨) النساء : ٤٨و١١٦ .
(٩) الفرقان : ٦٨ .
(١٠) الفرقان : ٧٠ .

عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾[1] الآية وفيها نكت .

الأولى : لم يقل الذين فسقوا ، أو شربوا ، أو زنوا ، بل ستر ذلك عليهم فقال : ﴿ الذين أسرفوا ﴾ فإذا إقتضى كرمه أن يصونك عن الخجالة في الدنيا ، فكيف يليق به أن يعذبك في الآخرة .

الثانية : إن العبد إذا جنى ، وتعلق الأرش برقبته ، فإما أن يبيعه المولى ، وإما أن يَلزمه الأرش ، وها هنا لا سبيل إلى البيع ، فإن الكريم إذا باع المعيوب فكيف يرغب فيه العاجز اللئيم ، فلا جرم وجب على المولى أداء الأرش من خزانة الرحمة والكرم .

الثالثة : قال ﴿ يا عبادي الذين ﴾ أضافهم إلى نفسه ، فعيبهم إنما ظهر منهم ، وزينتهم إنما ظهرت من المولى ، وما يظهر من المولى أقوى مما يظهر منهم .

الرابعة : قال ﴿ أسرفوا على أنفسهم ﴾ يعني أنهم إنما قصروا في حق أنفسهم لا في حقي ، فكفاهم ضراً أن قصروا في حق أنفسهم ، فلا ينبغي أن يلحق بصاحب المعصية مصيبة أخرى .

الخامسة : قال في آخر الآية ، ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ يعني لا ينبغي أن يظنوا أنه إنما شرع المغفرة والرحمة في حقكم ، بل هذه عادته ، فإنه هو الغفور الرحيم ، ونظيره قوله ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[2] لم يقل إنه غفار ، بل قال (كان غفاراً) من الأزل إلى الأبد ، موصوفاً بصفة الغفارية ، فلا ينبغي أن تتعجبوا من أن يغفر ذنوبكم .

وأما قوله ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾[3] فقد روي : أن بعض الصحابة كانوا يضحكون ، فمر الرسول عليه الصلاة والسلام بهم ، فقال : أتضحكون والنار بين أيديكم ؟ فحزنوا جداً ، ثم رجع القهقري ،

---

(١) الزمر : ٥٣ .
(٢) نوح : ١٠ .
(٣) الحجر : ٤٩ .

فقال : جاءني جبريل عليه السلام وقال : يقول الله تعالى لمَ تُقنط عبادي من رحمتي ؟ ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ ، وفيه لطائف :

إحداها : قال عليّ عليه السلام : حروف القرآن ثلثمائة ألف ، وخمسة وعشرون ألفاً ، وثمانية وسبعون حرفاً فلو لم يكن في القرآن بشارة لأمة محمد ﷺ سوى هذا الحرف الواحد وهو الياء ، في قوله ﴿ عبادي ﴾ لكفتهم ، فكما أنه ليس بين الدال والياء في قوله عبادي حجاب ، فكذا ليس بين المؤمن العاصي وبين رحمة الله حجاب .

وثانيها : قوله ﴿ نبىء ﴾ خطاب مع الرسول ، وعبادي كناية عن المؤمنين ، والياء كناية عن الرب ، فالله تعالى ذكر الرسول أولاً ، والعصاة ثانياً ، وذكر نفسه ثالثاً ، والاشارة فيه شفاعتك من قدام المذنبين ، ورحمتي من خلفهم ، وهم بين الشفاعة والرحمة فكيف يمكن أن يضيعوا .

وثالثها : حكي عن المأمون : أنه دخل عليه ولد ابنه ، وولد ابنته ، فقال لهما : أنتما ابن من ؟ فانتسب ابن بنته إلى أبيه ، وانتسب ابن ابنه إليه ، فأمر حتى ملأ حجره من الجواهر ، وحجر الآخر من السكر ، وقال ذاك انتسب للأجانب ، وهذا إلي ، والنكتة أن من انتسب إلى ملك مخلوق وجد الجوهر ، فمن انتسب إلى ملك الملوك لا يجد جوهر الرحمة .

ورابعها : التكرير في قوله ﴿ إني أنا الغفور الرحيم ﴾ ومثله في قوله ﴿إني أنا أخوك﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام أجلس إخوته على المائدة، فجلس كل أخوين من أب وأم معاً ، فبقي بنيامين وحده . فبكى ، فقال له يوسف عليه السلام ولمَ تبكي ؟ فقال : كان لي أخ من أب وأم ، فمات أو فقد ، فقال يوسف : أتريد أن أكون أخاك ؟ فاحتشم بنيامين منه ، فقال يوسف : إني أنا أخوك ، فذهبت الحشمة ، وانبسط ، بقوله : إني أنا أخوك ، كذلك المذنب يكون في وحشة الذنب ، فقال الرب ﴿ إني أنا الغفور الرحيم ﴾ لتذهب عنه الوحشة ، ويحصل له الفرح بالرحمة .

المسألة الرابعة : في كلام المشايخ في اسمه تعالى غافر وغفور وغفار : قال بعضهم : إنه غافر لأنه يزيل معصيتك من ديوانك ، وغفور لأنه ينسي الملائكة أفعالك ، وغفار لأنه ينسيك ذنبك حتى كأنك لم تفعل ، وقيل الغافر في الدنيا ، والغفور في القبر ، والغفار في عرصة القيامة ، وقيل : الغافر لمن له علم اليقين ، والغفور لمن له عين اليقين ، والغفار لمن له حق اليقين .

واعلم أنه تعالى قال : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[1] فكأنه قال : يا من رجيت عمرك في البطالات ، وأفنيت أيامك في المخالفات ، ثم ندمت قبل الوفاة والفوات ، وجدت من الله تبديل السيئات بالحسنات ، لأن قوله ﴿ ثم ﴾ يقتضي التراخي ، كأنه قال : ما تبت عاجلاً ثم تبت آجلاً في آخر عمرك .

حكي أن رجلاً تاب بعد أن شاخ ، فكان يقول في مناجاته إلهي أبطأت في المجيء ، فهتف به هاتف إلى متى تقول أبطأت في المجيء ، إنما أبطأ في المجيء من مات ولم يتب .

المسألة الخامسة : حظ العبد من هذا الاسم ، أن يستر من غيره ما يستره الله منه ، قال عليه الصلاة والسلام : « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عليه عورته يوم القيامة » .

واعلم أنه لا ينفك مخلوق عن كمال ، ونقص ، وحسن ، وقبح ، فمن تغافل عن المقابح ، وذكر المحاسن فهو ذو نصيب من هذا الاسم .

روي أن عيسى عليه السلام مر مع الحواريين بكلب ميت ، قد عظم نتنه ، فقالوا : ما أنتن هذه الجيفة ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أحسن بياض أسنانه تنبيهاً على أنه يجب أن لا يذكر من الشيء إلا ما هو أحسن أحواله .

---

(١) النساء : ١١٠ .

القول في تفسير اسمه (القهار)

قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾[1] وقال : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[2] وقال : ﴿ والله غالب على أمره ﴾[3] وقال : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[4] والقهر في اللغة هو الغلبة ، وصرف الشيء عن طبيعته على سبيل الالجاء ، قال تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾[5] والقهار فعّال مبالغة من القاهر فيقتضي تكثير القهر .

واختلف العلماء ، فقال بعضهم : القهر قدرة على وصف مخصوص ، كما أن الرحمة إرادة على صفة مخصوصة ، والقاهر هو القادر على منع غيره أن يفعل بخلاف ما يريده ، فالقهار يكون من صفات الذات .

وقال آخرون : بل القهار هو الذي يمنع الغير من الجري على وفق إرادته ، وعلى هذا التفسير يكون من صفات الفعل .

واعلم أن قهره تعالى على وجوه .

أولها : قال بعض المحققين : إنه قهار للعدم والوجود والتحصيل ، وذلك لأن الممكن لو ترك وحده لكان معدوماً ، فكأن ماهية الممكن تقتضي العدم ، إلا أنه سبحانه وتعالى منزه يقهر هذه الحالة ، ويبدل العدم بالوجود .

وثانيها : أن أصغر كوكب في الفلك أضعاف جرم الأرض ، ثم إن هذه الأفلاك مع ما فيها من الكواكب يمسكها سبحانه وتعالى بقدرته ، معلقة في الهواء ، كما قال تعالى ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾[6] .

---

(١) الأنعام : ١٨ .
(٢) غافر : ١٦ .
(٣) يوسف : ٢١ .
(٤) الصافات : ١٧٣ .
(٥) الضحى : ٩ .
(٦) فاطر : ٤١ .

وثـالثهـا : أنـه تعـالى يمـزج بين العنـاصـر الأربعـة[1] ، وهي متنـافـرة بطبائعها ، فيكون إمتزاجها بقهر الخالق .

ورابعها : إن الروح جوهر لطيف ، روحاني ، نـوراني ، والبدن جـوهر كثيف ظلماني ، وبينهما منافرة عـظيمة ، ثم إنـه تعالى أسكن الـروح في هذا الجسد ، فيكون ذلك بقهره .

وخامسها : أنه تعالى يـذل الجبابـرة والأكاسـرة تارة بـالأمراض ، وتـارة بالنكبات ، وتارة بالموت .

وسادسها : أن العقول مقهورة عن الوصول إلى كنه صمديته ، والأبصار مقهورة عن الاحاطة بأنوار عزته .

وسـابعها : إن جميـع الخلق مقهـورون في مشيئتـه ، كمـا قـال ﴿ ومـا تشـاؤ ون إلا أن يشاء الله ﴾[1] وبـالجملة فلا تـرى شيئاً سـواه إلا كان مقهـوراً تحت أعلام عزته ، ذليلاً في ميادين صمديته .

رأي المشايخ في اسمه تعالى القهار : أما المشايخ فقالوا : القاهر الذي قهر نفوس العابدين ، فحبسها على طاعته ، والقهار الذي قهر قلوب الـطالبين فآنسها بلطف مشاهدته .

وقيل : القاهر الذي يغلب من غالبه ، ولا يعجزه من طلبه .

وقيل : القهار الذي يطلب منك الفناء عن رسومك ، والبـراءة من قدرك وعلومك .

وقيل القهار الذي طاحت عنـد صولتـه صولـة المخلوقين ، وبادت عنـد سطوته قوى الخلائق أجمعين ، قال تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم : لله الواحـد القهار ﴾[3] فأين الجبابرة والأكـاسرة عنـد ظهور هـذا الخطاب . وأين الأنبيـاء

---

(١) هي عند القدماء . الماء والهواء والنار والتراب .

(٢) الإنسان : ٣٠ .

(٣) غافر : ١٦ .

والمرسلون ، والملائكة المقربون في هذا العتاب ، وأين أهل الضلال والالحاد ، والتوحيد والارشاد ، وأين آدم وذريته ، وأين إبليس وأتباعه ، وكأنهم بادوا وانقضوا ، زهقت النفوس ، وتبددت الأرواح ، وتلفت الأجسام والاشباح ، وتفرقت الأوصال ، وبقي الموجود الذي لم يزل ولا يزال .

حظ العبد من هذا الاسم : أما حظ العبد منه فاعلم أن القهار من العباد من قهر أعداءه ، وأعدى عدوه نفسه التي بين جنبيه ، فإذا قهر شهوته وغضبه ، وحرصه ، ووهمه ، وخياله ، فقد قهر أعداءه ، ولم يبق لأحد سبيل عليه ، إذ غاية أعدائه أن يسعوا في إهلاك بدنه ، وذلك إحياء لروحه ؛ فإن من مات وقت الحياة الجسمانية عاش عند الموت الجسماني : كما قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[1] .

وقال أفلاطون موتوا حتى لا تموتوا ، واتعبوا لا تتعبوا .

وأما أنه كيف السبيل إلى قهر الشهوة والغضب ، فتارة بالرياضة ؛ كما قال : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[2] وتارة بالجذب ، وهو أكمل الطريقين كما قال عليه الصلاة والسلام : « جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين ».

القول في تفسير اسمه (الوهاب)

وفيه مسائل الأولى : معنى الهبة : قال تعالى ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾[3] وقال : ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾[4] وقال عن زكريا

---

(١) آل عمران : ١٦٩ .
(٢) العنكبوت : ٦٩
(٣) آل عمران : ٨ ، ص ٤٥ .
(٤) الشورى : ٤٩ :

عليه السلام : ﴿ هب لي من لـدنك ذريـة طيبة ﴾[1] وعنـه : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾[2] .

واعلم أن الهبة عبارة عن التمليك بغير عـوض ؛ والوهـاب مبالغـة ، إذا عـرفت هذا فنقـول الهبة لا تحصـل إلا من الله تعالى في الحقيقـة ؛ وذلك أن الهبة لها ركنان أحدهما التمليك ، والآخر بغير عوض ، أما التمليك فلا يصح من العباد لوجوه .

الأول : أنـه تعالى مـا لم يخلق العادة الـداعية الجـازمـة في قلبـه ، لا يصدر عنه ذلك الفعل ، ففاعل تلك الداعية الملزمة هو الفاعل لذلك .

الثاني : إن العبد جاهل بكنه أفعاله ، والجاهل بالشيء لا يكون موجـداً له ، فالعبد غيرموجد لأفعال نفسه ، بل موجدها هـو الله تعالى ، فـالواهب في الحقيقة هو الله تعالى .

الثـالث : لولا أنـه تعـالى قضى بحصـول تلك الهبـة في الأزل ، وعلم ذلك ، لما حصلت ؛ لأن حدوث شيء على خلاف إرادة الله تعـالى من علمه وحكمه محال ، ففاعل تلك العطية في الحقيقة هو الله سبحانه .

الرابع : إن العبـد ملك لله ، المملوك لا يملك شيئاً ، قـال الله تعالى . ﴿ ضـرب الله مثلاً عبـداً مملوكاً لا يقـدر على شيء ﴾[3] أثبت أن التمليك لا يصح من العبد .

وأما أنه بغيـر عوض فنقـول : بتقديـر أن يصح تمليـك من العبد إلا أنـه يمتنع أن يكون ذلك التمليك بغير عوض ، ويدل عليه أنه إنما يفعل الفعل إما لتحصيل المدح في العاجل ، أو الثواب في الآجل ، فـإن فرض الكـلام فيمن لـم يؤمر بالثواب ولـم يحضر هناك أحد يمدحه ، والمنعم عليـه أعمى أو مغشياً

---

(١) آل عمران : ٣٨ .

(٢) مريم : ٥ .

(٣) النحل : ٧٥ .

عليه ، فهنا هنا لا ينعم للثواب ولا للثناء ، ولكنه إنما ينعم لدفع الرقة الجنسية عن القلب ، وذلك عوض فإن لم يوجد شيء من هذه الأسباب لم يصدر عنه الفعل البتة ، فثبت أن قيد كونه بغير عوض في حق العبد محال ، ولما ثبت أن ماهية الهبة مركبة من قيدين ، وثبت امتناع كل واحد منهما في حق العبد ، امتنع صدور الهبة منه ، أما الحق سبحانه فكل واحد من القيدين حاصل في هبته ، أما التمليك فلأنه مالك الملك فيصح منه التمليك .

وأما بغير عوض فلأنه منزه عن الزيادة والنقصان ، فكان فعله منزهاً عن الأعواض والأغراض ؛ ثم نقول : هب أنه يصح من العبد أن يهب شيئاً إلا أنه يمتنع أن يكون وهاباً ، وذلك لأن الوهاب هو الذي كثرت مواهبه ، وإتسعت عطاياه ، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً ونوراً لا في حال دون حال ، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ، ولا ولداً لعقيم ، ولا هدى لضال ، ولا عافية لذي بلاء ، والله سبحانه وتعالى يملك جميع ذلك ، دامت عطاياه ، وتوالت أياديه ، فكان الوهاب هو لا غيره .

المسألة الثانية اختلفوا في تفسير قولنا إنه تعالى يملك عبيده شيئاً : فقيل معناه إخبار الله تعالى عن أن ذلك الشيء ملكه ، فيرجع هذا إلى كلامه فيكون من صفات ذاته .

وقيل معناه : تمكينه من ذلك الفعل ، وهذا فيه نظر ، لأنه ليس كلما مكنهم من شيء فقد وهب ذلك الشيء ، فإنه تعالى مكنهم من الكفر والمعاصي ، وما وهبها منهم .

المسألة الثالثة : قالت المشايخ : الوهاب من يكون جزيل العطاء والنوال ، كثير المن والافضال ، واللطف والاقبال ، يعطي من غير سؤال . ولا يقطع قواله عن العبد في حال .

وقيل : الوهاب الذي يعطيك بلا وسيلة ، وينعم عليك بلا سبب ولا حيلة .

وقيل : الوهاب الذي يعطي بلا عوض ويميت بلا غرض .

وحكي : أن حاتماً الأصم كان صائماً ، فلما أمسى قُدم إليه الطعام ، فجاء سائل فدفع ذلك إليه ، ففي الحال جاءه طبق عليه من كل لون من الأطعمة والحلوى ، فأتاه سائل ، فأعطاه إياه ، فجاء إنسان بصرة فيها دنانير كثيرة ، فصاح : الغوث الغوث من خلف ، وكان في جواره إنسان يسمى خلفاً ، فتسارع الناس إليه ، وقالوا : لم تُؤذِ الشيخ حاتماً ؟ فقال حاتم : إني لا أستغيث منه ، وإنما عجزت عن شكر الله لكثرة ما يعجل لي من الخلف .

وحكي : أن الشبلي سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفي فقال : أي اسم من أسماء الله تعالى يجري على لسان أبي علي ؟ فقال : الوهاب ، فقال الشبلي : فلهذا كثر ماله .

المسألة الرابعة : حظ العبد منه : أن يبذل كل ما سوى الله تعالى ، وأن يقتصر على خدمة مولاه في دنياه ، وعقباه .

القول في تفسير اسمه (الرزاق)

وفيه مسائل الأولى معنى الرزق : قال الله تعالى ﴿ إن الله هو الرزاق ﴾[1] ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها ﴾[2] وكان من دعاء داود عليه السلام : يا رازق البغاث في عشه يريد فرخ الغراب ، وذلك أنه يقال إذا انفقأت عنه البيضة خرج أبيض كالشحمة ، فإذا رآه الغراب أنكره لبياضه فيتركه فيسوق الله تعالى إليه البق ، فيقع عليه لزهومته ، فيلتقطها ، ويعيش بها إلى أن ينبت ريشه ، ويسود ، فيعاوده الغراب عند ذلك ، ويألفه ويلقطه الحب ، فهذا معنى رزقه البغاث .

---

(١) الذاريات : ٥٨ .

(٢) هود : ٦ .

واعلم أن رزق الأبدان بالأطعمة ، ورزق الأرواح بالمعارف ، وهذا أشرف الرزقين ، فإن ثمرتها حياة الأبد ، وثمرة الرزق الظاهر قوة الجسد إلى مدة قريبة الأمد ، ومن أسباب سعة الرزق الصلاة ، قال تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴾[1] .

ومن آداب العبودية أن يرجع العبد إلى ربه في طلب كل ما يريده ، ألا ترى موسى عليه السلام طلب الرؤية من ربه ، وهي أعظم المقامات ؛ فقال ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾[2] ولما جاع طلب الرغيف ، فقال : ﴿ رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ﴾[3] فطلب النفيس والخسيس من مولاه .

وعن علي كرم الله وجهه أنه قال : لست مطالباً بطلب الرزق ، وأمرت بطلب الجنة فتترك ما أمرت بطلبه ؛ وتطلب ما أمرت بتركه .

وقال : عيسى عليه السلام لا تغتموا لبطونكم ، انظروا إلى الطير تغدو وتروح ، ولا تحرث ولا تحصد ، والله يرزقها ، فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير ، فانظروا إلى الوحوش ، فإنها تبقى أدرازاً مع أنها لا تزرع ولا تحصد ، والله يرزقها .

المسألة الثالثة : قالوا الرزاق من غذى نفوس الأبدان بتوفيقه ، وحلى قلوب الأخيار بتصديقه .

وقيل : الرزاق من خص الأغنياء بوجود الأرزاق ، وخص الفقراء بشهود الرزق .

وقيل : الرزاق من رزق الأشباح فوائد لطفه ، والأرواح عوائد كشفه .

وقيل : الرزاق الذي يرزق من يشاء من عباده القناعة ، ويصرف دواعيهم عن ظلمة الصناعة .

---

(١) سورة طه : ١٣٢ .
(٢) الأعراف : ١٤٣ .
(٣) القصص : ٢٤ ..

المسألة الرابعة حظ العبد من هذا الاسم أمران : أحدهما أن يرضى بقسمة القسام ، والثاني : أن يجعل يده خزانة لربه ، فكل ما وجده أنفقه على عباده كما أمر الله به في قوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾[١] وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾[٢] .

القول في تفسير اسمه (الفتاح)

قال تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وعندة مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[٥] وقال : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[٦] والفتح أصله فتح الباب ، ويقال للآلة التي بها يفتح الباب المغلق . مفتاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾[٧] والفتح في الحرب الظفر ، ومنه ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾[٨] والمراد فتح مكة ، والافتتاح الابتداء بالشيء ، ومنه إفتتاح الحراج[٩] .

إذا عرفت هذا فنقول : الفتاح في وصفك لله يحتمل معنيين : أحدهما : أنه الحاكم بين الخلق ، وذلك أن الحاكم يفتح الأمر المستغلق بين الخصمين ، والله تعالى ميز بين الحق والباطل ، وأوضح الحق وبيّنه ،

---

(١) الفرقان : ٦٦ .
(٢) الاسراء : ٢٩ .
(٣) الأعراف : ٨٩ .
(٤) فاطر : ٢ .
(٥) الأنعام : ٥٩ .
(٦) سبأ : ٢٦ .
(٧) القمر : ١١ .
(٨) الفتح : ١ .
(٩) الحراج : وقوف البضاعة مع الدلال عن ثمن لا مزيد عليه ومعناه هنا افتتاح المزاد .

ودحض الباطل وأبطله ، فهو الفتاح .

الثاني : أنه الذي يفتح أبواب الخير على عباده ، ويسهل عليهم ما كان صعباً ، ثم تارة يكون هذا الفتح في أمور الدين وهو العلم ، وأخرى في أمور الدنيا فيغني فقيراً وينصر مظلوماً ، ويزيل كربة ، وفيه قال الاستاذ أبو منصور البغدادي :

يا فاتحاً لي كل باب مرتج إني لعفو منك عني مرتجي
فامنن عليَّ بما يفيد سعادتي

أما المشايخ : فقالوا ، الفتاح الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته ، وفتح على العاصين أبواب مغفرته .

وقيل الفتاح الذي يعينك على الشدائد ، وينيلك وجوه الزوائد .

وقيل : الفتاح الذي فتح على النفوس باب توفيقه ، وعلى الأسرار باب تحقيقه .

وقيل : الفتاح الذي لا يغلق وجوه النعمة بالعصيان ، ولا يترك إيصال الرحمة إليهم بالنسيان .

وقيح الفتاح الذي حكمه حتم ، وقضاؤه جزم .

وأما حظ العبد منه ، فأمران : أحدهما أن يجتهد حتى يفتح كل ساعة على قلبه باباً من أبواب الغيب والمكاشفات ، الثاني : أن يفتح كل ساعة على عباد الله أبواب الخيرات والمسرات .

القول في تفسير اسمه (العليم)

اعلم أن الألفاظ المجانسة لهذا الاسم كثيرة : أحدها : إثبات العلم لله تعالى ، قال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾[1] وقال : ﴿ ولا يحيطون بشيء

(١) لقمان : ٣٤ .

من علمه ﴾[1] وقال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾[2] وقال : ﴿ ولا تضع إلا بعلمه ﴾[3] وقال : ﴿ فاعلموا إنما أنزل بعلم الله ﴾[4] .

وثانيها : العالم ، قال الله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾[5] وقال : ﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً ﴾[6] وقال : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض ﴾[7] .

وثالثها : العلام ، قال تعالى : حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾[8] .

ورابعها : الأعلم ، قال تعالى : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾[9] وقال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾[10].

وخامسها : المعلم ، قال عن الملائكة . ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾[11] وقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾[12] وقال ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾[13] وقال : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾[14] .

وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز أن يقال لله : يا معلم ، وهذا من أقوى الدلائل على أن أسماء الله ليست قياسية ، وأيضاً تدل على أن الألفاظ

---

(١) البقرة : ٥٥ .

(٢) النساء : ١٦٦ .

(٣) فصلت : ٤٧ ، فاطر : ١١ .

(٤) هود : ١٤ .

(٥) جزء من الآية ٧٣ من سورة الأنعام ، ٩ من الرعد ، ٩٢ من (المؤمنون) ١٨ من التغابن .

(٦) الجن : ٢٦ .

(٧) فاطر : ٣٨ .

(٨) المائدة : ١١٦ .

(٩) الاسراء : ٥٤ .

(١٠) الأنعام : ١٢٤ .

(١١) البقرة : ٣٢ .

(١٢) الرحمن : ١ و٢ .

(١٣) النساء : ١١٣ .

(١٤) الكهف : ٦٥ .

الموهمة الواردة في حق الأنبياء عليهم السلام يجب الاقتصار عليها ، ولا يجوز ذكر الألفاظ المشتقة منها ، قال تعالى ﴿ فعصى آدم ربه فغوى ﴾[1] فلا يجوز أن يقال كان آدم عاصياً .

وقال حاكياً عن ابنه شعيب عليه السلام ﴿ يا أبت استأجره ﴾[2] فلا يجوز أن يقال كان موسى أجيراً ، وذلك لأن المعنى كما أنه معتبر فكذلك الأدب معتبر .

وقال : ﴿ وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾[3] وقال : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى ﴾[4] وجاء أيضاً بلفظ المضارع . ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ﴾[5] وقال : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾[6] .

واعلم أن هذه الألفاظ ، وإن كانت واردة في القرآن ، لكن شيئاً منها لم يرد في التسعة والتسعين .

وسابعها : العليم ، وهو من جملة الأسماء الواردة في التسعة والتسعين ، وأيضاً وارد في كثير من الآيات قال تعالى : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[7] وقال : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾[8] ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾[9] ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم ﴾ .

واعلم أن بناء فعيل وفعول للمبالغة ، كقادر وقدير ، وخابر وخبير ، وناصر ونصير ، وعالم وعليم ، وأيضاً صابر وصبير . وأيضاً صابر وصبور ، وشاكر وشكور ، وغافر وغفور .

---

(١) طه : ١٢١ .
(٢) القصص : ٢٦ .
(٣) الأنفال : ٦٦ .
(٤) المزمل : ٢٠ .
(٥) الحجر : ٩٧ .
(٦) الرعد : ٨ .
(٧) يس : ٣٨ .
(٨) غافر : ٢ .
(٩) هود : ٥ الأنفال : ٤٣ .

والحكمة في وضع هذا البناء إن كل من فعل فعلاً قل أو كثر . ضعف أو قوي . فإنه يجوز أن يشتق له منه إسم الفاعل ؛ كما تقول دخل فهو داخل . وخرج فهو خارج . فإذا إحتيج إلى أن يميز بين الفعل الذي يظهر من الفاعل مرة واحدة ، وبين الذي يظهر منه غالباً ، أو الذي ظهر فعله على سبيل الخلق والعادة ، أو على سبيل التكليف ، وجب العدول إلى هذه الأمثلة ليتميز بواسطتها بعض هذه الأقسام عن بعض .

ومما يدل على أن بناء فعيل للمبالغة وجوه

الأول : أنه يقال سميع فهو سامع ، ورحيم فهو راحم ، أما بناء فعيل فإنه لا يستعمل إلا عند قصد تأكيد الفعل ، لأنا إذا قلنا سميع بصير دل على تأكيد معنى السمع والبصر ، وتمكن هذا الفعل من طباع الموصوف به ، كالخلق الثابت ، والطبع اللازم .

الثاني : إن الغالب في القرآن لفظ العليم ، والقدير ، وأقل منه لفظ العالم والقادر ، وهذا يدل على ما ذكرناه .

الثالث : قوله ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾[1] فلما كان العليم أعلى من ذي العلم ، دل على المبالغة .

وثامنها : العلامة ، وهذا اللفظ لا يستعمل في حق الله تعالى ، لأنه لم يرد لا في القرآن ولا في الأخبار ، بل يقال : رجل علامة إذا وصف بكثرة العلم ، كما يقال نسابة ، وقوالة ، وعيابة ، وهو بعينه العلام ، إلا أنهم أدخلوا الهاء في آخر هذه الكلمة لغرض المبالغة ، وإنما لم يستعمل ذلك في حق الله تعالى لأنها صفة لمن ترقى عن القلة والنقصان إلى الكثرة والكمال ، بسبب التكلف والارتياض ، فلهذا السبب لم يذكر هذا اللفظ في حق الله تعالى .

---

(١) يوسف : ٧٦ .

المسألة الثانية : **اعلم أن علم الله تعالى مخالف علوم المحدثات من وجوه .**

أحدها أنه بالعلم الواحد يعلم جميع المعلومات ، بخلاف العبد .

وثانيها : أن علمه لا يتغير بتغير المعلومات بخلاف العبد .

ثالثها : أن علمه غير مستفاد من الحواس ، ولا من الفكر بخلاف العبد .

ورابعها : أن علمه ضروري الثبوت ، ممتنع الزوال ، قال تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾[1] وقال : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾[2] وعلم العبد جائز الزوال .

وخامسها : إن الحق سبحانه وتعالى لا يشغله علم عن علم ، بخلاف العبد .

وسادسها أن معلومات الحق غير متناهية ، بخلاف العبد .

المسألة الثالثة : **قولهم في العليم** . قالوا : العليم الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه قاصية ولا دانية ، وقيل : من عرف أنه عليم بحاله صبر على بليته ، وشكر على عطيته ، واعتذر عن قبيح خطيئته .

القول في تفسير اسميه (القابض ـ الباسط)

قال تعالى : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾[3] وفيه مسائل .

الأولى : **تقوية أحدهما بالآخر** الأحسن في مثل هذين الاسمين أن تقوّى أحدهم في الذكر بالآخر ، ليكون ذلك أدل على القدرة والحكمة ،

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .
(٢) مريم : ٦٤ .
(٣) البقرة : ٢٤٥ .

ولهذا السبب قال الله تعالى : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ ؛ وإذا ذكرت القابض مفرداً عن الباسط كنت قد وصفته بالمنع والحرمان ، وذلك غير جائز .

المسألة الثانية : معناهما في اللغة . القبض في اللغة الأخذ ، والبسط التوسيع والنشر ، وهذان الأمران يعمان جميع الأشياء ، فكل أمر ضيقه فقد قبضه ، وكل أمر وسَّعه فقد بسطه ، ونحن نشير إلى معاقد الأقسام .

الأول الرزق ، فقال تعالى : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر ﴾[١] وذلك البسط ليس الاسراف ، والقبض لا البخل ، ولكن له سبحانه فيها أسرار خفيه قال تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوْا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾[٢] وقال : ﴿ ولولا أن تكون الناس أمة واحدة ﴾[٣] الآيات .

الثاني : القبض والبسط في السحاب ، قال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾[٤] .

الثالث : في الظلال والأنوار ، ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾[٥] .

الرابع : قبض الأرواح وبسطها ، فعند قبضها يحصل الموت ، وعند بسطها تحصل الحياة .

الخامس : قبض الأرض ، قال : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾[٦] وبسطها إنما جعل في الدنيا ، قال : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾[٧] أي بساطاً .

---

(١) الرعد : ٢٦ .
(٢) الشورى : ٢٧ .
(٣) الزخرف : ٣٣ .
(٤) الروم : ٤٨ .
(٥) الفرقان : ٤٦ .
(٦) الزمر: ٦٧ .
(٧) النبأ : ٦ .

السادس : قبض الصدقات ، قال تعالى : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾[1] .

السابع : قبض القلوب ، وبسطها .

واعلم أنهما يشبهان الخوف والرجاء ، في كل واحد منهما حالة تحصل بحصول محبوب في المستقبل ، وزوال مكروه ، فصاحب الخوف والرجاء مشتغل بالمستقبل ، أما صاحب القبض والبسط فإنه مشتغل بالوقت لا التفات له إلى الماضي والمستقبل ، ثم القبض والبسط حالتان يقبلان الأشد والأضعف ، فقد يشتد القبض بحيث لا مساغ لغيره فيه ، لأنه مأخوذ عنه بالكلية ، وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام . « لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل » .

وقد يكون أضعف من ذلك ، وكذا البسط ، وقد يكون تاماً بحيث لا يؤثر فيه شيء أصلاً ، وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « حبب إلى من دنياكم ثلاث » الحديث ، وقد يكون دون ذلك ، وقد يكون القبض معلوم السير ، وقد لا يكون ، فيجد قبضاً لا يدري ما موجبه ، وسبيل صاحب هذا القبض التسليم ، حتى يمضي ذلك الوقت ، لأنه لو تكلف إزالته إزداد قبضه ، وإذا استسلم زال ، فإنه تعالى قال ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾[2] .

وكان الجنيد يقول : الخوف يقبضني ، والرجاء يبسطني ، فإذا قبضني الخوف أفناني ، وإذا بسطني الرجاء أحياني .

المسألة الثالثة : في معنى القابض الباسط : قالوا : القابض الذي يكاشفك فيقيك ، والباسط الذي بجلاله يكاشفك بجماله فيبقيك .

وقيل : القابض الذي يقبض الصدقات من أربابها فيربيها ، والباسط الذي يبسط النعمة ويهنيها .

---

(١) التوبة : ١٠٤ .

(٢) البقرة : ٢٤٥ .

وقيل : القابض الذي يخوفك من فراقه ، والباسط الـذي يؤمنك بعفـوه وإطلاقه .

المسـألة الـرابعة : رأي الغـزالي : قال الغـزالي : القابض البـاسط من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتى جوامع الكلم ، فتارة يبسط قلوب العبـاد ، بدلائل الرجاء ، وتارة يقبضها بدلائل الخوف من الكبرياء .

القول في تفسير اسميه (الخافض ـ الرافع)

قـال تعـالى : ﴿ يـرفـع الله الـذين آمنـوا منكم ﴾[1] والخفض والـرفـع معناهما معلوم فإن كانا في الدين فهما الاضلال والارشاد ، إما في المعـرفة أو في الطاعة ، وإن كانا في الدنيا فهما إعلاء الـدرجات وإسقـاطها ، ومنـه قولـه تعالى في صفة القيامة : ﴿ خافضة رافعـة ﴾[2] أي خافضـة للكفار في أسفـل الدركات ، ورافعة للأبرار أعلى الدرجات .

واعلم أنّا إن حملنا الرفع والخفض على هذا كانا من صفات الأفعـال ، ومنهم من فسـرهما بـالذم والمـدح ، وعلى هـذا المعنى يكـونـان من صفـات الذات .

رأي المشايخ في هـذين الاسمين . أما المشـايخ فقـالوا : خفض قـوماً لأنه ذكرهم في الأزل بالاهانة ، ورفع آخرين لأنه ذكرهم بالاعانة .

أما حظ العبد : فهو أن يرفـع جانب الـروح ، ويخفض جانب النفس ، أو ينصر أولياء الله ، وينازع أعداء الله .

---

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) الواقعة : ٣ .

القول في تفسير اسميه (المعز ـ المذل)

قال تعالى ﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾(١) وقد عرفت أنه يجب في أمثال هذين الأسمين ذكر كل واحد منهما مع الآخر(٢) .

واعلم أن كمال الروح في أن تعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، فإذا صبر العبد بحيث يصير مستغرقاً في شهود أنوار الربوبية ، منقطع الفكر عن كل ما سوى الله ، فهذا هو الاعزاز المطلق ، وإن كان بالضد من ذلك فهو الاذلال المطلق ، وفيما بين هذين الطرفين أوساط مختلفة ، وتحقيقه هو أن العزة في عدم الحاجة ، وكمال هذا المعنى لله سبحانه ، فلهذا قال : ﴿ فإن العزة لله جميعاً ﴾(٣) ثم كل من كان أقرب إلى حضرة الله كان حصول هذا المعنى في حقه أكثر ، فلهذا قال ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(٤) هذا ما يتعلق بالاعزاز والاذلال في أحوال الأرواح .

أما ما يتعلق بعالم الأشباح ، فالصحة ، والحسن ، والمال ، والجاه ، وشرف النسب ، وكثرة الأعوان والأنصار ، وإحتياج الخلق إليه ، وقلة إحتياجه إليهم .

واعلم : أنّا إن فسرنا المعز والمذل بما ذكرناه كانا من صفات الأفعال ، ومن الناس من فسر الاعزاز بمدح الله إياه ، والاذلال بذمه إياه ، وعلى هذا الوجه يكونان من صفات الذات .

أما المشايخ فقالوا : المعز الذي أعز أولياءه بعصمته ، ثم غفر لهم برحمته ثم نقلهم إلى دار كرامته ، ثم أكرمهم برؤ يته ومشاهدته ، والمذل الذي أذل أعداءه بحرمان معرفته ، وركوب مخالفته ، ثم نقلهم إلى دار عقوبته ، وأهانهم بطرده ولعنته .

---

(١) آل عمران : ٢٦ .
(٢) انظر القول في اسميه تعالى القابض الباسط .
(٣) النساء : ١٣٩ .
(٤) (المنافقون) : ٨ .

قال بعضهم : ما أعز الله عبداً بمثل ما يدله على ذل نفسه ، وما أذل الله عبداً بمثل ما يشغله بعز نفسه .

القول في تفسير اسمه (السميع)

قال تعالى : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾[1] وقال : ﴿ أم يحسبون أنّا لا نسمع سرهم ونجواهم بلىٰ ﴾[2] وقال : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾[3] وقال : ﴿ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾[4] ولو كان السميع هو العليم لكان ذلك تكراراً .

واعلم أنا نعرف حقيقة الصوت ، فإذا سمعناه وجدنا حالة زائدة على ما كان حاصلاً قبل العلم ، وتلك الحالة مزيد انكشاف وظهور ، سميناه بالسمع .

فنقول : لفظ السامع والسميع موضوع في اللغة لهذا الانكشاف والتجلي ، فلما ورد في حق الله سبحانه اعتقد ثبوت جنس هذا الانكشاف في حق الله تعالى ولم نقل الحاصل لله نوع هذا الانكشاف ، بل قلنا : جنسه ، وذلك لأن الانكشافات الحاصلة لله تعالى بالنسبة إلى الانكشافات الحاصلة للعبيد كنسبة ذاته إلى ذوات العبيد ، وكنسبة وجوده إلى وجود العبيد ، ولما كان لا مشاركة بين الذاتين ، وبين الوجودين ، إلا في الاسم ، وكذا القول بين الانكشافين .

واعلم أن الحاصل عند عقول الخلق من معاني صفات الله سبحانه خيالات ضعيفة ، ورسوم خفية ، وجلت صفاته عن مناسبة صفات المحدثات ، وتقدست صمديته وعزته عن مشابهة الممكنات ، وقد يكون

---

(١) طه : ٤٦ .
(٢) الزخرف : ٨٠ .
(٣) المجادلة : ١ .
(٤) البقرة : ٢٢٧ .

السماع بمعنى القبول والإجابة كقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من قول لا يُسمع » أي من دعاء لا يستجاب ، ومنه قول المصلي : سمع الله لمن حمده ، قيل : معناه قبل الله حمد من حمده .

قول المشايخ في هذا الاسم : أما المشايخ فقالوا : إنه تعالى يسمع دعوات عباده ، وتضرعهم إليه ، ولا يشغله نداء عن نداء ، ولا يمنعه إجابة دعاء عن دعاء .

وقيل : السميع الذي أجاب دعوتك عند الاضطرار ، وكشف محنتك عند الافتقار ، وغفر زلتك عند الاستغفار ، وقبل معذرتك عند الاعتذار ، ورحم ضعفك عند الذلة والانكسار .

وقيل : السميع الذي يسمع المناجاة ، ويقبل الطاعات ، ويقيل العثرات .

القول في تفسير اسمه (البصير)

قال تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾[1] والبصير هو المبصر ، فعيل بمعنى مفعل ، كقولهم أليم بمعنى مؤلم ، وتحقيق الكلام في الابصار . كما ذكرناه في السميع .

قول المشايخ في هذا الاسم : أما المشايخ فقالوا : من عرف أنه البصير زين باطنه بالمراقبة ، وظاهره بالمحاسبة .

وقيل : إذا عصيت مولاك فأعصه في موضع لا يراك .

وقيل السميع : الذي يسمع السر والنجوى ، والبصير الذي يبصر ما تحت الثرى .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .

وأما حظ العبد منه : فهو قوله عليه الصلاة والسلام : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

القول في تفسير اسمه (الحكم)

وفيه : مسائل الأولى : قال الزجاج الحاكم والحكم واحد : كالواسط والوسط ، وأصل الحكم المنع ، ومنه الحكمة ، لأنها تمنع الفرس من التمرد ، وكذا الحكمة تمنع الرجل عن السفاهة ، ومنه الحكم لأنه يمنع الخصمين عن التعدي ، ومنه قولهم « في بيته يؤتى الحكم » ووصف الله نفسه بأنه أحكم الحاكمين ومنه قوله : ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[1] وقوله ﴿ له الحكم وإليه ترجون ﴾[2] وقوله : ﴿ أنت تحكم بين عبادك ﴾[3] .

واعلم أن الحكم بهذا التفسير هو كلامه ، فيكون من صفات الذات ، وقد يقال أيضاً : حكم لفلان بالنعمة أي أنعم عليه ، وحكم على فلان بالنقمة إذا أوقعه في المحنة ، فعلى هذا يكون ذلك من صفات الفعل ، وقد يستعمل الحكم أيضاً بمعنى الحكيم ، وسيجيء بيانه .

المسألة الثانية قال أكثر العقلاء إن حكم الله تعالى بجميع الكليات والجزئيات قد حصل من الأزل إلى الأبد ، وأما المعتزلة : فقد سلموا ذلك في كل الحوادث إلا في أحوال الحيوانات .

لنا وجوه : الأول : أن أفعال العباد موقوفة على إرادتهم . وهي حادثة ، فلا بد لها من مؤثر ، والمؤثر إما أن يكون حادثاً أو قديماً ، فإن كان حادثاً كان الكلام فيه كالأزل ويفضي إلى التسلسل ، ولا يمكن حصولها بنفسها بأسرها دفعة لأن وجود أسباب ومسببات لا نهاية لها دفعة واحدة محال ، بل لا

---

(١) الأنعام : ٦٢ .
(٢) القصص : ٧٠ .
(٣) الزمر : ٤٦ .

بـد وأن يكون كـل واحد مسبـوقاً بـآخر لا إلى بـداية ، وهـذا قـول الفـلاسفـة الالهيين ؛ ولأجل هذا الحرف أثبتوا حـوادث لا أول لها ، وزعمـوا أن الأفلاك قديمة .

وأما إن كان المؤثر في حدوث تلك الارادة شيئاً قديمـاً ، فذلـك القديم يمتنع أن يكون موجباً بـالذات ، وإلا لـزم من قدم العلة قـدم المعلول ، فيلزم كون الارادة المحدثة قديمـة ، وذلك محـال ، فلا بـد وأن يكون ذلـك القديم فاعلاً مختاراً وهذا مذهب جمهور أصحاب السنة والجماعة .

وعلى التقديرين فجميع الكليات والجزئيات مقدرة بأوقات مخصوصـة ، وأحوال مخصوصة ، لا يجوز على المتقدم أن يتأخر ، ولا المتأخر أن يتقدم ، فثبت أن على القـولين لا بـد من القـطع بـأن حكم الله في جميـع الكليـات والجزئيات حاصل في الأزل ، ومعلوم أن الحكم الأول لا دافع له .

الحجـة الثانيـة : أنه تعـالى علم أن بعضهـا يقـع ، وبعضهـا لا يقـع ، والعلم بـالوقـوع مضاد لعـدم الوقـوع والعلم بعـدم الـوقـوع مضـاد للوقـوع ، والضدان لا يجتمعان ، لكن إبطال علم الله محال ، فإزالة هذا الضد محال ، فدخول الضد الآخر في الوجود محال ، فما علم أن يقع كان واجب الـوقوع ، وما علم أنه لا يقع كان محال الوقوع .

الحجة الثالثة : أنه تعـالى حكم على أبي لهب بأنـه لا يؤمن ، ومعنى هـذا الحكم الاجبار . وهـذا الخبر ممتنـع الزوال ، فكـان دخول الايمـان في الـوجـود محـالاً . هـذا عمــدة القـائلين بثبـوت الحكم المـطلق في جميـع الكليات ، والجزئيات .

واحتجوا : بأنه لو كـان الأمر كـذلك لكـان وقوع مـا انعقد سبب وقـوعه واجبـاً ، ووقوع مـا لم ينعقد سبب وقـوعه ممتنعـاً ، فيكون كـل الأسبـاب إمـا واجبـاً ، وإما ممتنعـاً ، ولو كـان كذلـك لما بقي لأحـد قـدرة على الفعـل ولا إختيـار في إقـدام ولا إحجـام ، إلا أن هـذا بـاطـل بـالضـرورة ، فـإني أعلم بالضرورة إني إن شئت الفعل فعلت ، وإن شئت الترك تركت .

والجواب : هب إنك تجد ذلك من نفسك ، فهل تجد منها إنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت ، أو مشيئة الترك حصلت . وظاهر أن الأمر ليس كذلك ، وإلا لزم التسلسل ، بل إذا شئت الفعل فشئت أم أبيت فعلت ، وبالعكس ؛ فلا حصول للمشيئة فيك بك ، ولا للفعل عقيبها بك ، فالانسان مضطر في صورة مختار .

واعلم أن أظهر آيات القرآن للمعتزلة قوله : ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(١) ومن تأمل هذه الآية علم أنها من أقوى الدلائل على قولنا ؛ وذلك لأنها تقتضي توقف الفعل على المشيئة ؛ وحصول هذه المشيئة موقوف على مشيئة الله بدليل العقل والنقل ، أما النقل فقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾(٢) .

وأما العقل : فالدليل الذي قررناه في أول هذه المسألة . وإذا كان الفعل منا موقوفاً على مشيئتنا وهي موقوفة على مشيئة الله تعالى لزم القطع بتوقف فعلنا على مشيئة الله . وهذا برهان قاطع .

واعلم أن قوله عليه الصلاة والسلام : « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » إشارة إلى هذه الحجة . فإن المراد من الاصبعين داعية الفعل . وداعية الترك . والقلب واقف فيما بين هاتين الداعيتين أبداً . فإنه إن حصلت داعية الفعل حصل الفعل . وإن لم تحصل داعية الفعل بقي الفعل على العدم . ومعلوم أنه لا خروج عن طرفي النقيض ؛ وإنما عبر عن هاتين الداعيتين بالاصبعين ؛ لأن الشيء الذي يكون بين اصبعي الانسان لا يكون له في التصرف فيه صعوبة ولا عسر البتة ، بل يكون في غاية اليسر . فلما كان القلب مسخراً لهاتين الداعيتين لا جرم ؛ عبر عنهما بالاصبعين ولهذا السر كان صلوات الله عليه يقول : « يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك » بل القلب إنما سمي قلباً لتقلبه من حال إلى حال بحسب توارد الدواعي المختلفة عليه ،

---

(١) الكهف : ٢٩ .

(٢) الإنسان : ٣٠ .

هذا تمام الكلام في هذا الباب ؛ وإنه في غاية القوة والوضوح .

المسألة الثالثة حظ العبد من هذا : أن ينقطع تعلق قلبه عن المستقبل ، بل يصير مشغول القلب بأنه ما يصيبه إلا الذي جرى في الأزل ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب » .

وقال أيضاً : « المقدور كائن والهم فضل » وليس المراد من قوله والهم فضل أن هذا الهم خارج عن المقدور ، بل المراد منه أنه لا تأثير له في دفع المقدور ، فإن هذا الهم أيضاً من نتائج القضاء والقدر ؛ فلو صار دافعاً للقضاء والقدر لصار الفرع مبطلاً للأصل . وهو محال . وتمام الكلام في مسألة القدر مذكور في الكتب الحكمية والكلامية .

المسألة الرابعة : قول النبي ﷺ : « السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه » مبرهن بالبراهين القاطعة المذكورة .

كان بعض المحققين يقول : كل واحد يخاف الخاتمة . وأنا أخاف الفاتحة . وإن الحكم الالهي لا يزول بحيل العبيد . فكم من ربيع تورد أشجاره وبرزت أنواره . وظهرت ثماره . وظن أهله أنهم ظفروا بمقاصدهم فأصابتهم الآفة . وفاجأتهم البلية . فأصبح أهله على حسرة . وأمسوا على ذلة . قال تعالى ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾[1] وهكذا كم من عبد ظهرت عليه آثار السعادة ، وأنوار المحبة والقربة . ثم أصبح من المطرودين !!

رأي المشايخ : ثم قال المشايخ : الحكم الذي لا يقع في وعده ريب . ولا في فعله عيب .

وقيل : الحكم الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة . وعلى النفوس بالانقياد والطاعة .

---

(١) يونس : ٢٤ .

القول في تفسير اسمه (العدل)

إتفقت الأمة على اطلاق هذا الاسم على الله . وهو مصدر عدل يعدل عدلاً فهو عادل . وهذا المصدر أقيم مقام الاسم . فالعدل أقيم مقام العادل . كالرب أقيم مقام الراب . والبر أقيم مقام البار . والرضا مقام الراضي . وحقيقته ذو العدل كقوله : ﴿ وأشهدوا ذَوَيْ عدل منكم ﴾[1] ويقال : عدلت الشيء أعدله عدلاً ، إذا قومته ، ومنه الاعتدال في الأمور ، وهو الاستقامة فيها .

إذا عرفت هذا فنقول : ذكر أصحابنا لهذا الاسم تفسيرين . أحدهما أن يكون العدل بمعنى المعتدل وهذا مجاز ، وحقيقته كونه سبحانه وتعالى منزهاً عن النقائض الحاصلة في طرفي الإفراط والتفريط ، وجانبي التشبيه والتعطيل ، ومعنى أنه عدل في أفعاله ، أي أنه لا يظلم ، ولا يجور .

واعلم أن المعتزلة تمسكوا بهذا الاسم ، وأبرقوا وأرعدوا فيه ، فقالوا : إذا كان يخلق الكفر في الكافر ثم يعذبه عليه أبداً سرمداً ، فكيف يحصل العدل ، وأي معنى للجور فوق هذا ، وكما أن اسم الحكم متمسك أهل الجبر ، فاسم العدل متمسك أهل القدر .

وأصحابنا يعارضون الخلق والارادة ، فالعلم على ما لخصناه ، ولا جواب لهم البتة عنه .

قول المشايخ في هذا الاسم : أما المشايخ فقالوا : العدل هو الذي له أن يفعل ما يريد ، وحكمه ماض في العبيد .

أما حظ العبد من هذا الاسم : فهو أن يحترز عن طرفي الافراط والتفريط ففي أفعال الشهوة يحترز عن الفجورالذي هو الافراط ، وعن الجمود الذي هو التفريط ، ويبقى على الوسط وهو العفة ، وفي أفعال الغضب يحترز

---

(١) الطلاق : ٢ .

عن التهور الذي هو الافراط ، والجبن الذي هو التفريط ، ويبقى على الوسط وهو الشجاعة وفي الحكمة العملية يحترز عن الافراط الذي هو الدهاء والمكر ، وعن التفريط الذي هو البله ؛ ويبقى على الوسط وهو الحكمة العملية ، وإذا اجتمعت هذه الأوساط كان مجموعها هو العدالة ؛ وهو المراد بقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾[1] وذلك لأن الحاكم على الطرفين لا بد وأن يكون معتدلاً وسطاً ، فلما جعل هذه الأمة حاكمة على سائر الأمم ، لا جرم جعلهم في الوسط موصوفين بالاعتدال مبرئين عن طرفي الافراط والتفريط في الغلظة والرخاوة .

القول في تفسير اسمه (اللطيف)

قال تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾[2] وقال : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[3] ، واعلم أن اللطيف له تفاسير أربعة .

أحدها : أن الشيء الصغير الذي لا يحس به لغاية صغره يسمى لطيفاً ، والله سبحانه وتعالى لما كان منزهاً عن الجسمية والجهة لم يُحس به ، فأطلقوا اسم الملزوم على اللازم ، فوصفوا الله تعالى بأنه لطيف ، بمعنى أنه غير محسوس ، وكونه لطيفاً بهذا الاعتبار يكون من صفات التنزيه .

ثانيها : اللطيف هو العالم بدقائق الأمور وغوامضها ، يقال : فلان لطيف اليد إذا كان حاذقاً في صنعته ، مهتدياً إلى ما يشكل على غيره ، وعلى هذا التفسير كونه لطيفاً عبارة عن علمه ، فيكون اللطف من الصفات الذاتية .

وثالثها : اللطيف هو البر بعباده ، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهيء مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، ومنه قوله : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ﴾ واحتج من فسر اللطيف بهذا التفسير ، بأن قال :

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) الشورى : ١٩ .

(٣) الملك : ١٤ .

حمله عليه أولى من حمله على العلم ، بدليل قوله ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ ، ولا شك أن الخبير هو العالم ، فلو كان اللطيف أيضاً عبارة عن العالم لزم التكرار ، وهو غير جائز .

ورابعها : ما ذكره الغزالي فقال : هذا الاسم إنما يستحقه من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ، ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع هذا العلم وهذا العمل تم معنى اللطيف ؛ ثم لا يتصور كمال هذا العلم إلا لله سبحانه وتعالى ، أما علمه بالغوامض والخفايا فلا شك فيه ، فإن الخفي والجلي بالنسبة إليه في العلم سيان ، وأما رفقه في الأفعال ، ولطفه فيها ، فلا يدخل تحت الحصر .

وها هنا : نذكر دقائق حكمة الله تعالى في خلق السموات ، والكواكب ، والعناصر ، والانسان ، وسائر الحيوانات ، والنبات ، ثم قال : بل لو أردنا أن نذكر لطفه في تفسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها ، لعجزنا عنه ، فإنه قد تعاون على إصلاح تلك اللقمة خلق لا يحصى عددهم ، من مصلح الأرض ، وزارعها ، وساقيها ، وحامل حبها ، ومنقيها ، وطاحنها ، وعاجنها ، إلى غير ذلك . فهو سبحانه وتعالى من حيث دبر الأمور حكيم ومن حيث أوجدها جواد ، ومن حيث رتبها مصور ، ومن حيث وضع كل شيء في موضعه عدل ، ومن خيث لم يترك فيها دقائق وجوه اللطف والرفق لطيف ، ولن يعرف حقيقة هذه الأسماء البتة من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال .

ومن لطفه بعباده . أنه أعطاهم فوق الكفاية ، وكلفهم دون الطاقة ، وسهل عليهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة وهي العمر ، فإنه لا نسبة له البتة إلى دوام الأبد .

قول المشايخ في هذا الاسم : وأما المشايخ فقالوا : اللطيف الميسر لكل عسير الجابر لكل كسير .

وقيل : اللطيف من وفق للعمل في الابتداء ، وختمه بالقبول في

الانتهاء ، وقيل : اللطيف من ولي فستر ، وأعطى فأغنى ، وأنعم فأجزل ، وعلم فأجمل .

وأما حظ العبد من هذا الاسم فهو : الرفق بعباد الله ، واللطف بهم في الدعوة إلى الله كما قال : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾[1] وقال بعض المحققين : العارف إذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح ، لا بعنف معسر ، وكيف هو مستبصر بسر الله في القدر .

القول في تفسير اسمه (الخبير)

قال تعالى ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾[2] وقال : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾[3] وقال ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾[4] وله تفسيران .

الأول : هو العالم بكنه الشيء ، المطلع على حقيقته ، وهو المراد بقوله ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ يقال : فلان خبير بهذا الأمر وله به خبرة ، وهو أخبر به من فلان ، أي أعلم ، إلا أن الخبير في صفة المخلوقين إنما يستعمل في العلم الذي يتوصل إليه بالاختبار والامتحان ، والله منزه عنه .

والثاني : ما ذكره الشيخ عبد الملك الطبري ، وهو : أن الخبير بمعنى المخبر ، فهو فعيل بمعنى مفعل ، وهو كثير في كلام العرب ، كالسميع بمعنى المسمع والبديع بمعنى المبدع ، فيكون الخبير هو المخبر ، وهو عبارة عن كلامه .

أما حظ العبد منه فهو : أن يكون شديد البحث والفحص عن محاسن الأخلاق ومقابحها ، وعن أن ما معه من الصفات والأخلاق من أي القسمين ، وأن لا يغتر في هذا الباب بأنواع تلبيس إبليس .

---

(١) طه : ٤٤ .
(٢) الملك : ١٤ .
(٣) البقرة : ٢٢٤ .
(٤) الفرقان : ٥٩ .

قول المشايخ في هذا الاسم : وأما المشايخ فقالوا : من عرف أنه خبير كان بزمام التقوى مشدوداً ، وعن طريق المنى مصدوداً ، قال علي بن الحسين من أراد عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بـلا سلطان ، وغنى بلا فقـر ؛ فليخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، قـال تعالى : ﴿ ولـو يؤاخذ الله النـاس بظلمهم مـا ترك عليها من دابة ﴾[1] .

القول في تفسير اسمه (الحليم)

حاصل كلامهم أن الحليم هو الذي لا يعجل بالانتقام ، وأنا أقول : من لا يعجـل الانتقام إن كـان على عزم أن ينتقم بعـد ذلك فهـذا يسمى حقوداً ، وإن كان على عزم أن لا ينتقم البتـة فهذا هـو العفو والغفـران ، فأين الحلم ؟ وما معناه ؟ ويمكن أن يقال إنه إنما يكون حليماً إذا كان على عـزم أن لا ينتقم البتـة ، ولكن بشرط أن لا يـظهر ذلـك ، فإن أظهـره كان ذلـك عفواً ، وبهـذا الوجه ظهر الفرق بين العفو وبين الحلم .

واعلم أن حلم الله عن المذنبين عظيم ، قال تعالى : ﴿ ولـو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ .

وروي أن إبـراهيم عليه السـلام رأى رجـلاً مشتغـلاً بمعصيـة ؛ فقـال : اللهم أهلكه ؛ فهلك ، ثم رأى ثانياً ، وثالثاً ، فدعا فهلكوا ، فـرأى رابعاً فهم بالدعاء عليه ؛ فأوحى إليه : قف يـا إبراهيم ، فلو أهلكنـا كل عبـد عصى لما بقي إلا القليل ؛ ولكن إذا عصى أمهلناه ، فـإن تاب قبلنـاه ، وإن أصر أخـرنا العقاب عنه ، لعلمنا بأنه لا يخرج عن ملكنا .

ويروى أن شاباً كان كثيـر الذنـوب ، ولكنه مـا كان من المصـرين ؛ بل كان يتوب ثم يرجع إلى الذنب ، فلما كثر ذلك منـه قال الشيـطان : إلى متى تتوب وتعود ، وأراد أن يقنطه من رحمة الله ؛ فلما جاء الليل قام وتوضأ وصلى

---

(١) النحل : ٦١ .

ركعتين ، ثم رفع بصره إلى السماء وقال : يا من عصمت المعصومين ، ويا من حفظت المحفوظين ، ويا من أصلحت الصالحين ، إن عصمتني تجدني معصوماً ؛ وإن أهملتني تجدني مخذولاً ، ناصيتي بيدك ، وديوني بين يديك ، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . فقال الله سبحانه وتعالى للملائكة يا ملائكتي أما سمعتم قوله ، اشهدوا أني قد غفرت له ما مضى من ذنوبه ؛ وعصمته فيما بقي من عمره .

وذكر مالك بن دينار قال : كان لي جار ، وكان يتعاطى من الفواحش ، وجيرانه يتأذون لسببه ، فشكوا منه إليَّ ، فأحضرناه وقلنا : إما أن تتوب ، وإما أن تخرج من المحلة ، فقال : لا أفعل واحداً منهما فقلنا : نشكوك إلى السلطان ، فقال : السلطان يعرفني ؛ فقلنا : ندعو الله عليك ، فقال : الله ارحم بي منكم ، فغاظني ذلك ، فلما أمسيت قمت وصليت ودعوت عليه فهتف هاتف ، وقال : لا تدع عليه ، فإن الفتى من أولياء الله قال : فندمت على ما فعلت ، وخرجت من الدار ، وذهبت إلى باب داره ؛ ودققت عليه الباب ، فلما خرج ورآني ظن أني جئت لاخراجه من المحلة ، فأخذ يعتذر ، فقلت ما جئت لذلك لكني رأيت كذا وكذا ؛ قال : فوقع عليه البكاء ؛ وتاب إلى الله وخرج من الدار ، وتاب الله عليه بعد ذلك ، فاتفق أني خرجت إلى الحج فرأيت في المسجد حلقة ، فتقدمت إليهم فرأيت ذلك الشاب عليلاً مطروحاً ، فما لبث حتى قالوا : قضى الشاب ، يرحمه الله .

أما حظ العبد من هذا الاسم : فاعلم أن الحلم في الانسان من محاسن الاخلاق ، والدليل عليه : أن الخليل عليه السلام دعا ربه فقال : ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾[١] فأجاب الله دعاءه بقوله ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾[٢] وهذا يدل على أن الحلم من الأخلاق المحمودة .

---

(١) الشعراء : ٨٣ .
(٢) الصافات : ١٠٦ .

قول المشايخ في هذا الاسم : أما المشايخ فقالوا : الحليم من كان صفاحاً عن الذنوب ، ستاراً للعيوب .

وقيل : الحليم هو الذي غفر بعد ما ستر .

وقيل : الحليم الذي يحفظ الود ، ويحسن العهد ، وينجز الوعد .

وقيل : الحليم الذي يسبل ستر عفوه على المنهمكين ، ويسحب ذيل عفوه على المتهتكين .

وقيل : الحليم الذي لا يستخفه عصيان عاص ، ولا يستفزه طغيان طاغ .

القول في تفسير اسمه (العظيم)

قال تعالى : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾[1] واعلم أن الشيئين إذا اشتركا في معنى من المعاني ، ثم كان أحدهما زئداً على الآخر في ذلك المعنى سمي الزائد عظيماً ، والناقص حقيراً ، سواء كانت تلك الزيادة في المقدار والحجمية ، أو في سائر المعاني والدليل عليه أن الذي يكثر علمه يقال إنه عظيم في العلم ، والذي يكثر ملكه وقدرته يقال : إنه عظيم في الملك . ومنه يقال : فلان عظيم القرية أي سيدها ، وهو معنى قول المشركين ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ والقرآن العظيم ﴾[3] ، وكتب رسول الله ﷺ : من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم .

فثبت بما ذكرنا أن الشيئين إذا اشتركا في معنى وكان أحدهما زائداً على الآخر في ذلك المعنى زيادة كثيرة سمي الزائد عظيماً ، وإذا ثبت هذا ظهر أنه ليس للمجسمة أن يتمسكوا بهذا اللفظ في إثبات كونه تعالى جسماً ، إذا

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .
(٢) الزخرف : ٣١ .
(٣) الحجر : ٨٧ .

عرفت هذا فنقول : إنه سبحانه أعظم من كل عظيم من وجوده ، فإنه دائم الوجود أزلاً وأبداً ، وغيره ليس كذلك ، وإنه أعظم من كل عظيم في علمه ، وقدرته ، وقهره ، وسلطانه ، ونفاذ حكمه ، وأعظم من كل عظيم في أن العقول لا تصل إلى كنه صمديته ، والأبصار لا تحيط بسرادقات عزته .

وإذا اعتبرت عظمته من هذه الوجوه عرفت أن كل ما سواه فهو حقير بالنسبة إليه ، فالمخلوق وإن حصل عنده علوم كثيرة لكنها متناهية ، فأي نسبة لها إلى العلم المتعلق بما لا نهاية له من المعلومات ، وكذا القول في القدرة ، والعزة الازلية والأبدية ، بل يصير كل ما سواه بالنسبة إلى كماله وعظمته كالعدم المحض ، والنفي الصرف ، كما قال : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾(1) .

وكل ما في الوجود من العرش ، والكرسي ، واللوح ، والقلم ، والأنوار ، والظُلم ، والسموات ، والكواكب ، والماء ، والهواء ، والنار ، وعالم الأرواح وما سيخلقه إلى قيام الساعة ، وأضعاف أضعاف ذلك بالقياس إلى مقدوراته كالذرة بالقياس إلى البحر الأعظم ، بل إلى العرش العظيم ، بل هذه النسبة باطلة لأن الذرة وإن كانت حقيرة فهي جسم ، والعرش وإن كان كبيراً فهو متناه ، وللمتناهي إلى المتناهي نسبة لا محالة ، أما جملة هذه المخلوقات ، وجملة ما سيدخل منها في الوجود فكلها متناهية ، ومقدورات الله غير متناهية ، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي البتة ، فلهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾(2) أي لا فرق بين تخريب العرش ، والكرسي ، والسموات ، والأرضين ، وبين تخريب بيت بقة ، أو بعوضة ، ولا فرق بين خلق الله ألف ألف عالم ، وبين خلق بقة أو بعوضة ؛ وإليه الاشارة بقوله ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾(3) .

---

(1) القصص : ٨٨ .
(2) لقمان : ٢٨ .
(3) النحل : ٤٠ .

فسبحانه من ملك تحيرت العقول في أنـوار صمديتـه ؛ وبطلت الأفهـام في إشراق عزته .

أما حظ العبد منـه : فاعلم أن الشيئين إذا اشتـركا في أمـر من الأمور ، وكان أحدهما ناقصاً فيه ؛ والآخر كاملاً ؛ فإذا وصـل الناقص إلى الكـامل فني الناقص في الكامل ؛ ألا ترى أن القطرة من الماء إذا وقعت في البحـر فكأنهـا فنيت ؛ والشعلة من النار إذا قربت من الخندق العظيم المملوء من النار فكأنها فنيت ؛ وصوت البقة إذا حصل مع صوت البوق فكـأنه فني ، وكـذا القول في جميع المدركات ؛ فكذلـك من كان نـاقصاً في الملك إذا وصـل إلى من كان كـاملاً فيـه فكأنـه يفنى ، ويضمحل ؛ وذلـك لأن اشتغال قلبـه بذلـك الكمال يمنعه عن الشعور بمـا معه من تلك الصفـة الناقصـة ، فلهذا السبب يستعـظم التلميذ استاذه ، ويستعظم العبد سيده ؛ إذا عرفت هذا فكون العبد عظيماً إما أن يكون في الدين أو في الـدنيا ؛ فـإن كان في الـدين فقد قـال عليه الصـلاة والسلام : « من تعلم وعلم وعمل بما علم ثم علم الغير فذلك يـدعى عظيمـاً في السماء » وأما في الدنيا فلا يخفي حاله .

قول المشايخ في هذا الاسم : أما المشايخ فقالوا : العظيم هو الذي لا تكون عظمته بتعظيم الأغيار ، وجل قدره عن الحد والمقدار ، وقيل : العظيم الذي ليس لعظمته بداية ، ولا لجلاله نهاية .

وأما تفسير الغفور فقد تقدم في تفسير الغفار .

القول في تفسير اسمه (الشكور)

وفيه مسائل ـ الأولى معنى الشكور : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنـا لغفور شكـور ﴾[1] وقال : ﴿ وكـان

---

(١) فاطر : ٣٤ .

سعيهم مشكوراً ﴾[1] وإذا كان العبد مشكوراً على طاعته ، كان الشاكر لا محالة هو المعبود ، وقد ورد لفظ الشاكر أيضاً قال تعالى : ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾[2] .

واعلم أنك قد عرفت أن الشكور مبالغة من الشاكر ، والشكر في أصل اللغة هو الزيادة ، يقال شكير فلان أي عياله الصغار ، وشكير الشجر ما نبت في أصلها من القضبان الصغار ، وناقة شكيرة وشكرى إذا كانت ممتلئة الضرع من اللبن ، وشكرت الأرض إذا كثر النبات فيها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف ، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور .

إذا عرفت هذا فنقول : الشكر في حق العباد إما أن يكون مفسراً بالعمل أو بالقول ، فإن كان مفسراً بالعمل فهو عبارة عن إتيان الشاكر بأفعال موافقة لرضا المشكور ، إذا عرفت هذا فنقول : إن العبد إذا أطاع ربه ، ثم إن الرب تعالى أعطاه الجزاء الأوفى كان ذلك شكراً للعبد ، وكلما كان الجزاء أوفى كان الشكر أكمل وأتم ، ولا شك أنه سبحانه وتعالى هو الذي يجازي العمل القليل بالثواب العظيم ، ألا ترى أنه يعطي بالعمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة ، بل الانسان إذا بقي على الكفر سبعين سنة ثم أسلم ، وفي الحال مات فإنه سبحانه وتعالى يعطيه الجنة أبداً سرمداً ، وأيضاً إن العبد يأتي بطاعات مخلوطة بالرياء ، والرب يعطيه الثواب الخالص عن الكدورة والجفاء ، وأيضاً العبد عواد إلى الذنوب ، والرب عواد إلى المغفرة والرحمة ، فثبت أن الزيادة في المجازاة على هذا الوجه لا يقدر عليها إلا الله ، فوجب أن يقال لا شكور في الحقيقة إلا الله .

وأما إن كان الشكر في حق العبد مفسراً بالثناء على المشكور ، فالرب سبحانه وتعالى إذا أثنى على عبده فقد شكره ، وهو يقول ﴿ الصابرين

(1) الاسراء : ١٩ .
(2) النساء : ١٤٧ .

والصادقين ﴾[1] الآية ويقول ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾[2] الآية .

ونعم ما قال الغزالي : إن كان الذي أخذ فأثنى شكوراً . فالذي أعطى وأثنى أولى أن يكون شكوراً .

ومن الناس من قال : إنه تعالى يجازي عن الشكر فسمى جزاء الشكر شكراً ؛ لأنه حصل مقابلته ،كماسمى جزاء السيئة سيئة ، قال تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[3] .

المسألة الثانية حظ العبد منه : أن العبد إما أن يشكر الخالق ، أو مخلوقاً آخر ، أما شكرك الخالق فكماله غير مقدور للعبد ، وبيانه من وجوه .

الأول : أن شكر النعمة مشروط بمعرفة تلك النعمة ، ومعرفة نعم الله تعالى غير حاصلة ، قال سبحانه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[4] فإذا كانت معرفة النعم شرطاً لإمكان الشكر ، وكانت هذه المعرفة غير حاصلة ، كان الشكر غير ممكن .

الثاني : إن شكر النعمة مخلوق للمنعم على مذهبنا ، وذلك الشكر أعظم قدراً من تلك النعم ، فكيف يعقل شكر نعمته من غير نعمته ، وأما عند من يقول : إن فعل العبد ليس بمخلوق للرب ، فلا شك أن صدور هذا الفعل من العبد لا يكون إلا بتوفيق الرب وإعانته ، وإعطاء القدرة والعقل والآلة والتوفيق ، وكل واحد من هذه الأشياء أعظم من تلك النعمة ؛ فيرجع هذا أيضاً إلى ما ذكرناه من أنه يقتضي شكر نعمته ؛ وهو غير جائز .

الثالث : أنه يعطى على هذا الشكر نعمة زائدة ؛ قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم[5] فإن وقع هذا الشكر في مقابل النعمة السابقة بقيت هذه

---

(١) آل عمران : ١٧ .
(٢) الأحزاب : ٣٥ .
(٣) الشورى : ٤٠ .
(٤) النحل : ١٨ ، إبراهيم : ٣٤ .
(٥) إبراهيم : ٧ .

النعمة اللاحقة بلا شكر ؛ وإن وقع في مقابلة اللاحقة بقيت السابقة بلا شكر ؛ وعلى التقديرين لا يفي شكر العبد بنعمة الرب .

الرابع : أنه يعطيك مع إستغنائه عنك ، وأنت تشكره مع افتقارك إليه ؛ فكيف يقع هذا الشكر الصادر عن الحاجة والضرورة في مقابلة الانعام الذي هو محض التفضيل والاحسان .

الخامس : قال أبو بكر الواسطي : الشكر شرك ؛ فسئلت عن تفسيره ؛ فقلت معناه ـ والله أعلم ـ أن من اعتقد أن الانعام من الحق والشكر من العبد يتعادلان ويتقابلان ؛ مثل من يبعث إلى إنسان هدية فيهاديه الآخر بما يساويها ؛ فهذا هو الشرك لأنه جعل نفسه في مقابلة الحق ، وفي معارضته . وكيف لا يقول ذلك ولو أن ملكاً عظيماً أعطى بعض عبيده مملكة عظيمه ، وأموالاً جليلة . فجلس ذلك العبد في زاوية في داره ، وحرك اصبعه . وزعم أنه جعل تحريك الاصبع شكراً لذلك الانعام العظيم فإن كان عاقل يقضي عليه بالجنون .

إذا عرفت هذا . فنقول : تفكر في أقسام نعم الله عليك ، كنت معدوماً محضاً فجعلك موجوداً ، ثم أعطاك الصورة الحسنة في الظاهر ، والعقل الذي هو أشرف الصفات في الباطن ، وشق سمعك وبصرك ، وهداك إلى معرفته ، وعرَّضك للثواب العظيم ، وأثنى عليك في كتابه الكريم ، ثم إنك إذا حركت لسانك وقلت الحمد لله ، فاعتقدت أن تحريك اللسان بذكر هذه الكلمات يفي بشكر هذه النعمة العظيمة ، فهذا الانسان في البعد عن العقل أعظم من الانسان الذي وصفناه ، هذا هو الكلام في شكر الرب سبحانه .

وأما شكر مخلوق لمخلوق آخر ، فهو مشروع في الظاهر ، قال عليه الصلاة والسلام « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » لكن الشكر في التحقيق ليس إلا لله ، وبيانه من وجوه .

الأول : أنه تعالى لو لم يخلق في قلبه داعية الانعام عليك لامتنع عقلاً أن ينعم عليك ، لأن الفعل بدون المرجح محال . وإذا خلق تلك الداعية في

قلبه امتنع عقلاً أن لا ينعم عليك ، وإذا كان كذلك فالعبد معزول في الحالين . والضار والنافع في الحقيقة هو الله تعالى .

الثاني : إن إنعام العبد لا يتم إلا بإنعام الله ، فإنه تعالى لولا أنه خلق الحنطة والشعير وإلا فكيف يمكن الأمير والوزير من الانعام بهما ، وأيضاً فلولا أنه تعالى خلق آلات الطحن والخبز وإلا لما أمكن الانتفاع بذلك الانعام .

وأيضاً فلولا أنه تعالى أعطى صحة البدن والقوة الهاضمة في المعدة ، وإلا لما أمكنه الانتفاع بذلك الانعام ، فإذا تأملت علمت إن إنعام الأمير مسبوق بوجوه لا تحصى من إنعام الله ، وملحوق بوجوه لا تحصى من إنعامه ، وترى إنعام الأمير فيما بينهما كالقطرة في البحر ، فمن بقي مغتراً بتلك القطرة ، غافلاً عن كل البحر كان ذلك غاية الجهالة .

الثالث : ﴿ إن إنعام الأمير مكدر من وجوه . أحدها أنك ربما إحتجت إلى شيء ولا يعطيكه . لكونه محتاجاً إليه . والحق سبحانه غني عن الكل . قال : وهو يطعم ولا يطعم ﴾[1] .

وثانيها : ربما إحتجت إلى شيء إلا أنه لا يمكنك من الوصول إليه . فتبقى محروماً عن عطيته . والحق سبحانه مكنه من الوصول إلى باب رحمته في كل الأوقات قال : ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾[2] .

وثالثها : إنك إذا قصرت في خدمة الأمير قطع عنك إنعامه . والكافر يقصر بأعظم الوجوه في حق الحق . ولا يقطع عنه إنعامه .

ورابعها : إن الأمير إذا أعطى أظهر المنة . والحق سبحانه يعطي بلا منة . قال :﴿وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾[3] .

---

(١) أنعام : ١٤ .
(٢) غافر : ٦٠ .
(٣) القلم : ٢ .

فإن قلت : فقد قال : ﴿ بل الله يمن عليكم ﴾[1] وقال : ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾[2] .

قلنا إنما ذكر ذلك في مقابلة أنهم كانوا يمنون . ولو أنهم تركوا ذلك لما خوطبوا بهذا الخطاب .

المسألة الثالثة : في معنى الشكور : الشكور الذي إذا نول أجزل ، وإذا أطيع بالقليل قبل .

وقيل : هو الذي يقبل القليل . ويعطي الجزيل .

وقيل : هو الذي يقبل اليسير من الطاعات . ويعطي الكثير من الدرجات وقيل : حقيقة الشكر الغيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم .

القول في تفسير اسمه (العلي)

قال سبحانه : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾[3] وقال : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾[4] وقال : ﴿ الكبير المتعال ﴾[5] فقدم في الآية الثانية لفظ العلي على لفظ الكبير . وفي الآية الثالثة عكس الترتيب . وفيه سر عجيب .

اعلم أن العلي فعيل من العالي . وهو مشتق من العلو وهو مقابلة السفل . ثم العلو والسفل قد يحصلان في الأمور المحسوسة تارة . وفي المعقولة أخرى .

أما في المحسوسة فكما يقال للعرش أعلى من الكرسي . والسماء أعلى من الأرض . والعلوية والفوقية بهذا المعنى لا تتأتى إلا في الأجسام .

---

(١) الحجرات : ١٧ .
(٢) إبراهيم : ١١ .
(٣) البقرة : ٢٥٥ .
(٤) غافر : ١٢ .
(٥) الرعد : ٩ .

ولما تقدس الحق عن الجسمية ، تقدس علوه عن أن يكون بهذا المعنى .

وأما في الأمور المعقولة . فكقوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[1] ومعلوم أن هذه الرفعة ليست إلا في كمال الدرجة ويقال لفلان درجة عالية في العلم والزهد ، ولا يراد به العلو في الجهة ، بل في الشرف والمنقبة ، ويقال : إن الخليفة أعلى درجة من السلطان ، أي بالحشمة والعظمة ، ويقال : فلان من علية الناس ، أي من إشرافهم .

إذا عرفت هذا فنقول : لا تفرض مرتبة شريفة إلا والحق تعالى في أعلى الدرجات منها ، وذلك لأن الموجود إما مؤثر وإما أثر ، والمؤثر أشرف من الأثر ، والحق سبحانه مؤثر في الكل ، والكل أثره ، فكان أعلى من الكل في هذا المعنى .

وأيضاً الموجود إما واجب وإما ممكن ، والواجب أعلى وأشرف من الممكن ، والحق سبحانه هو الواجب لذاته ، فكان أعلى من الكل .

وأيضاً الموجود إما كامل مطلقاً ، وإما أن لا يكون كذلك ، والكامل على الاطلاق أعلا درجة ممن ليس كذلك ، والله سبحانه هو الكامل بالاطلاق فكان أعلى من الكل ، وكذا القول في كمال العلم ، وكمال الحياة ، والدوام ، والجود ، والرحمة ، وقس عليها نظائرها ، فثبت أنه سبحانه أعلى من جميع الموجودات في المراتب العقلية ، وجل وتقدس عن أن يكون علوه عليها في المكان والجهة .

وإذا عرفت العلو بهذا المعنى عرفت الفوقية في قوله سبحانه : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾[2] وفي قوله : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾[3] ثم نقول : يرجع حاصل هذا العلو إلى أحد امور ثلاثة إلى أنه لا يساويه شيء في الشرف

---

(١) المجادلة : ١١ .
(٢) الأنعام : ١٨ و٦١ .
(٣) النحل : ٥٠ .

والمجد والعزة ، فحينئذ يكون هذا الاسم من أسماء التنزيه ، أو إلى أنه قادر على الكل والكل تحت قدرته وقهره ، فيكون هذا الاسم من أسماء الصفات المعنوية ، أو أنه متصرف في الكل فيكون من أسماء الأفعال .

أما حظ العبد منه : فاعلم أن الكمالات الحقيقية إما العلم أو القدرة أو الطهارة عن مقابليهما ، وكل من كان أزيد من غيره في ذلك كان أعلى منه .

قول المشايخ في هذا الاسم : وأما المشايخ فقد قالوا العلي الذي علا عن الدرك ذاته ، وكبرت عن التصور صفاته .

وقيل : هو الذي تاهت الألباب في جلاله ، وعجزت العقول عن وصف كماله .

القول في تفسير اسمه (الكبير)

قال تعالى ﴿ وهو العلي الكبير ﴾[1] وقال ﴿ وكبره تكبيراً ﴾[2] وقال ﴿ وربك فكبر ﴾[3] وقال ﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾[4] ، واعلم أنه ورد في حق الله تعالى ألفاظ من هذا الجنس .

أحدها : هذا اللفظ ، أعني الكبير .

وثانيها : المتكبر ، وقد تقدم تفسيره .

وثالثها : الأكبر ، وهذا اللفظ ورد في القرآن في صفاته ، قال سبحانه : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[5] وقال ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[6] ، أما في ذات الله تعالى فلم يرد في القرآن ، ولكنه ورد في السنة المتواترة ، وهو قولنا : الله أكبر .

---

(١) غافر : ١٢ .
(٢) الإسراء : ١٢١ .
(٣) المدثر : ٣ .
(٤) الجاثية : ٣٧ .
(٥) التوبة : ٧٢ .
(٦) العنكبوت : ٤٥ .

ورابعها : الكبرياء ، قال : ﴿ وله الكبرياء ﴾[1] ، ولنتكلم في هذه الصفات : أما الكبير ففيه وجهان :

الأول : أنه في مقابلة الصغير ، وقد يعتبر الصغر والكبر في المقادير ، والحق سبحانه وتعالى منزه عن المقدار والحجمية ، فلا يكون كبره بحسب الجثة والحجمية ، وقد يعتبر الكبر والصغر في الدرجات العقلية ، فيقال فلان كبير القوم ، وإن كان أصغرهم في الجثة ، ويقال فلان كبير في الدين ، أي له درجة عالية ، وقال تعالى ﴿ إنه لكبيركم ﴾[2] وقال : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾[3] إذا عرفت هذا فنقول : ثبت أن الحق سبحانه وتعالى أكمل الموجودات وأشرفها ، فيكون سبحانه وتعالى كبيراً بالقياس إلى كل ما سواه ، وكل ما سواه فهو صغير بالقياس إليه .

الثاني : أنه كبير ، بمعنى أنه كبُر عن مشابهة المخلوقات ، وعلى الوجهين فهو من أسماء التنزيه .

وأما الأكبر ، ففيه وجهان : الأول ، أنه أكبر من كل ما سواه من الموجودات ، ويحتمل أن يكون قول المصلي الله أكبر من هذا ، كأنه يقول : الله أكبر من كل ما سواه ، وإنما قدم هذا القول أمام الصلاة ، لأن المصلي إذا عرف هذا المعنى قبل الشروع في الصلاة لم يشتغل خاطره بشيء سوى الله تعالى ، ولم يتعلق قلبه بغير الله .

وكان المبرد يطعن في هذا الوجه ويقول : هذا اللفظ إنما يستعمل في شيئين بينهما مجانسة ، ولا مجانسة بين الله وبين غيره ، فكيف يستعمل هذا اللفظ .

وجوابه : إن الناس قد يستعظمون غير الله ، فهذا القول يظهر أن الله سبحانه وتعالى أولى بالتعظيم والاجلال من غيره .

---

(١) الجاثية : ٣٧ .
(٢) طه : ٧١ .
(٣) الأنعام : ١٢٣ .

وكان أبو عبيدة يقول : الله أكبر ، معناه الله كبير ، وأنشد قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول[1]

وأما الكبرياء ، فقد قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » وفي تخصيص الكبرياء بالرداء ، والعظمة بالازار ، ما يدل على أن الكبرياء أعلى شأناً من العظمة ، وأبعد عن أوهام الخلق وأفهامهم، إلا أن هذا يعارضه شيء آخر وهو أنه خصص العظمة بالعرش ، فقال ﴿ رب العرش العظيم ﴾[2] وخصص الكبرياء بالسموات والأرض ، فقال ﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾[3] وفيه أسرار روحانية عجيبة .

وأما حظ العبد منه : فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « جالس العلماء ، وصاحب الحكماء ، وخالط الكبراء » .

قال المحققون : العلماء على ثلاثة أقسام ، العلماء بأحكام الله فقط وهم العلماء أصحاب الفتوى ، والعلماء بذات الله فقط وهم الحكماء ، والعلماء بالقسمين وهم الكبراء ، فالأولون كالسراج يحترق في نفسه ، ويضيء على غيره ، والقسم الثاني حالهم أكمل من الأول ؛ لأنهم أشرقت قلوبهم بمعرفة الله ، وأشرقت أسرارهم بأنوار جلال الله ، إلا أنه كالكنز تحت التراب لا يصل أثره إلى غيره ، أما القسم الثالث فهو أشرف الأقسام ، وهو كالشمس التي تضيء للعالم ، لأنه تام وفوق التمام .

---

(١) أي عزيز في الشرف طويل في المجد على رأي أبي عبيدة وقد فسره كثير من الأدباء أن المفضل عليه محذوف ومعناه أعز وأطول من كل عزيز وطويل .

(٢) التوبة : ١٢٩ .

(٣) الجاثية : ٣٧ .

القول في تفسير اسمه (الحفيظ)

قال تعالى : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾[1] وقال : ﴿ فالله خير حافظاً ﴾[2] وقال : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾[3] وقال : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾[4] .

واعلم أن الحفيظ أشد مبالغة من الحافظ كالعليم والعالم ، وللحفظ معنيان : أحدهما ضد السهو والنسيان ، ويرجع معناه إلى العلم ، فهو تعالى حفيظ للأشياء بمعنى أنه يعلم جملها وتفاصيلها علماً لا يتبدل بالزوال ، والسهو والنسيان .

والثاني : الحفيظ الذي هو ضد التضييع ، وهو حراسة ذات الشيء ، وجميع صفاته وكمالاته عن العدم ، قال تعال : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾[5] أي لا تهملوها ولا تضيعوها . فهو سبحانه وتعالى حافظ السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ ، وحافظ للكتب التي أنزلها عن التحريف والتبديل ، قال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

ثم تأمل أحوالك في دينك ودنياك ، أما الدين فانظر إلى الأكابر الذين زاغوا بأدنى شبهة ، أما ابليس فانظر كم عبد الله وكم أطاعه ، ثم ضل بأدنى شبهة !! وانظر إلى أكابر الطبيعيين ، وحذاق المهندسين والمنجمين ، كيف زاغوا بأخس شبهة !! حتى تعرف أنك إنما بقيت على الحق بحفظ الحق وعنايته ، وانظر إلى الخليل عليه السلام مع جلالة قدره كيف قال : ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾[6] وقال : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .
(٢) يوسف : ٦٤ .
(٣) الحجر : ٩ .
(٤) الصافات : ٧ .
(٥) البقرة : ٢٣٨ .
(٦) الشعراء : ٨٣ .

لـك ﴾[1] وقال الكليم عليـه السـلام . ﴿ رب اشـرح لي صـدري ﴾[2] وقـال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ ولـولا أن ثبتناك ﴾[3] الآيـة ، وقال : ﴿ والله يعصمـك من الناس ﴾[4] وقال المؤمنون ، ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾[5] .

وأما الدنيا فاعرف كم فيها من جهـات الآفات ، وأسبـاب المخافـات !! ثم تأمل من الذي دفعها عنك ، كما قـال : ﴿ قل من يكلؤكم بـالليل والنهـار من الرحمن ﴾[6] وأيضاً وكَّل على عباده أشخاصاً من الملائكة ليحفـظوهم عن الآفات ، قال تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفـظونه من أمـر الله ﴾[7] أي بـأمـره ، وأيضـاً يحفظ على الخلق أعمـالهم ، ويحصى عليهم أقـوالهم ، كما قـال : ﴿ إنه عليم بـذات الصدور ﴾[8] وكمـا قـال ﴿ إنّـا كنـا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[9] .

بل ها هنا بحث أعلى مما ذكرناه ، وهو أنه ثبت بالبرهان أن كل مـا كان ممكن الوجود فإنه كما يحتاج إلى المرجح حال حدوثه ، فكذا يحتاج إليه حال بقائه ، ولولا المبقي لما بقي شيء من الممكنات ، فالحق سبحانه وتعـالى هو الـذي يحفظ جميع الممكنـات من العود إلى العـدم ، وأيضاً الحق سبحـانـه وتعـالى هو الـذي يحفظ السموات عن الهـوى والسقوط ، كمـا قـال ﴿ إن الله يمسـك السموات والأرض أن تـزولا ﴾[10]وهو الـذي خلق الأرض على وجـه البحر ، ثم إنه بقـدرته يحفـظها عن الغـوص بكليتها في البحـر . مع أن طبـع الأرض الغـوص في الماء ، وهـو الذي مـزج بين العنـاصـر المتضـادة الفـرارة

---

(١) البقرة : ١٢٨ .
(٢) طه : ٢٥ .
(٣) الاسراء : ٧٤ .
(٤) المائدة : ٧٦ .
(٥) آل عمران : ٧ .
(٦) الأنبياء : ٤٢ .
(٧) الرعد : ١١ .
(٨) الأنفال : ٤٣ .
(٩) الجاثية : ٩٢ .
(١٠) فاطر : ٤١ .

بعضها عن بعض بالطبع ، فهو سبحانه وتعالى ركب أبدان الحيوانات منها ، وأمسك كل واحد منها مع ضده على خلاف مقتضى طبعه .

وأما حظ العبد : أما في قوته النظرية فهو أن يجتهد في حفظها عن اتباع الشبهات والبدع ، وأما في قوته العملية فهو أن يحفظها عن الانقياد لمقتضى الشهوة والغضب ، وقد بينا فيما تقدم أن الفضيلة في الوسط ، والرذيلة في الطرفين[1] ، والوسط بين الشمس والظل هو الخط المستقيم ، وهو طول لا عرض له البتة ، فكان أحدًّ من السيف لا محالة ، وأدق من الشعرة ، وإنه هو الصراط المستقيم الذي يجب عليه السعي في هذا اليوم ، وهو طريق ممدود على متن جهنم ، فيجب على الانسان أن يحفظ نفسه عن الميل إلى الطرفين .

ومن المعلوم أن المشي في الدنيا على هذا الصراط المستقيم مختلف ، فمنهم من يمشي عليه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمشي عليه بأنواع التعب والشدة .

أما المشايخ : فقالوا : الحفيظ الذي صانك في حال المحنة عن الشكوى . وفي حال النعمة عن البلوى .

وقيل : الحفيظ من هداك إلى التوحيد ، وخصك في الخدمة بأنواع الحفظ والتسديد .

وقيل : الحفيظ الذي حفظ سرك عن ملاحظة الأغيار ، وصان ظاهرك عن موافقة الفجار .

قال بعضهم : ما من عبد حفظ جوارحه إلا حفظ الله عليه قلبه ، وما من عبد حفظ الله عليه قلبه إلا جعله حجة على عباده .

---

(١) كالكرم بين الاسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن .

القول في تفسير اسمه (المقيت)

قال تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾[1] وفي تفسيره وجوه :

الأول : قال ابن عباس : المقيت المقتدر ، واحتج فيه بقول الشاعر :

وذي ضغن كففت النفس عنه　　وكنت على مساءته مقيتاً

أي مقتدراً ، قال الأزهري : وأخبرت عن شمر أنه قال : ثلاثة أحرف في كتاب الله نزلت بلغة قريش ، قوله : ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾[2] أي يحركونها ، وقوله : ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾[3] أي نكل بهم من ورائهم ، وقوله ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾[4] أي مقتدراً .

الثاني معناه المتكفل بإيصال أقوات الخلق إليهم ، قال الفراء : يقال قاته وأقاته بمعنى واحد ، قال وجاء في الحديث ﴿ كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ويقيت ﴾ .

الثالث : معناه الشاهد ، يقال أقات على الشيء إذا شهد عليه .

الرابع : قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : المقيت الحفيظ .

وأما المشايخ : فقالوا : المقيت من شهد النجوى ، فأجاب ، وعلم البلوى فكشف واستجاب .

واعلم أن أحوال الأقوات مختلفة ، فمنهم من جعل قوته المطعومات ، ومنهم من جعل قوته الذكر والطاعات ، ومنهم من جعل قوته المكاشفات والمشاهدات . فقال في الأولين : ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[5] .

وسئل بعضهم عن القوت ، فقال : القوت ذكر الحي الذي لا يموت ،

---

(١) النساء : ٨٥ .
(٢) الاسراء : ٥١ .
(٣) الأنفال : ٥٧ .
(٤) النساء : ٨٥ .
(٥) البقرة : ٢٩ .

وهو صفة الفريق الثاني ، وقال عليه السلام : « أبيت عند ربي يطعمني ويسقين » وهو صفة القسم الثالث .

القول في تفسير اسمه (الحسيب)

قال تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾[1] وفي تفسيره وجوه .

الأول : أنه الكافي ، فعيل بمعنى مفعل ، كقولك أليم بمعنى مؤلم ، تقول العرب نزلت بفلان فأكرمني ، وأحسبني أي أعطاني ما كفاني ، حتى قلت حسبي . ومنه قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ﴾[2] .

واعلم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالله ، فإنه ليس في الوجود إلا هو . ومخلوقاته ؛ فكل كفاية حصلت فإنما حصلت إما به أو بشيء من مخلوقاته ؛ وكل كفاية حصلت بمخلوقاته فهي في الحقيقة إنما حصلت به . لأنه لولا أنه سبحانه وتعالى خلقها وأعدها لجهات الحاجات وإلا لما حصلت تلك الكفاية ، وكان الكافي في الحقيقة هو الله .

فإن قيل : فإذا كان الكافي هو الله سبحانه وتعالى . فلم قال : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين ﴾ ؟ فإذا كان هو كافياً فأي حاجة إلى من أتبعه من المؤمنين .

قلنا : نقل عن ابن عباس أنه قال : معنى الآية الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين : وهو تفسير حسن .

الوجه الثاني : أن الحسيب بمعنى المحاسب كالنديم بمعنى المنادم . والجليس بمعنى المجالس . قال تعالى : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾[3] أي محاسباً . فإن الله تعالى يحاسب خلقه يوم القيامة قال عليه

---

(١) الأحزاب : ٣٩ ، النساء : ٦ .
(٢) الأنفال : ٦٤ .
(٣) الاسراء : ١٤ .

الصلاة والسلام : « إنّ الله تعالى يدخل الجنَّة سبعين ألفاً من هذه الأمة بغير حساب وإنَّ عكَّاشة منهم . وإن كل واحد يشفع في سبعين ألفاً .

ومنهم من يحاسبه حساباً يسيراً وهم المؤمنون الصالحون . ومصيرهم إلى نعيم أبدي لا يزول . ومنهم من يحاسبه حساباً شديداً على النقير والقطمير وهم الكفار المجرمون ؛ فيكون مرجعهم إلى الجحيم .

واعلم أن محاسبة الله للعبيد تذكيرهم بما عملوا في الدنيا من الحسنات والسيئات وتعريف جزاء أعمالهم من الثواب والعقاب . فيرجع ذلك أيضاً إلى صفات الفعل .

الوجه الثالث : أن الحسيب بمعنى الشريف . والحسب الشرف . والحسيب الشريف الذي له خصال الشرف . فعلى هذا الحسب لله بمعنى أن صفات المجد والشرف ونعوت الكمال والجلال ليست إلا له .

وأما حظ العبد : فإن فسرناه بالكافي فهو أن يجتهد العبد في أن يصير سبباً في الظاهر لكفاية حاجات المحتاجين . وإن فسرناه بالمحاسب فنصيب العبد منه ما قاله عليه الصلاةوالسلام : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » وإن فسرناه بالشرف فشرف العبد ليس إلا في معرفة الله وطاعته .

وأما المشايخ فقالوا : الحسيب من يعد عليك أنفاسك . ويصرف بفضله عنك باسك .

وقيل الحسيب الذي يرجى خيره . ويؤمن شره .

وقيل : هو الذي يَكفي بفضله . ويصرف الآفات بطوْله .

وقيل : هو الذي إذا رفعت إليه الحوائج قضاها . وإذا حكم بقضية أبرمها وأمضاها .

القول في تفسير اسمه (الجليل)

اعلم أن لفظ الجليل غير وارد في القرآن . إلا أن الجليل هو الذي له الجلال وهذا وارد في سورة الرحمن مرتين : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[1] ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾[2] .

واعلم أن الكريم فيهما اسم للكامل في الذات . والجليل اسم للكامل في الذات والصفات معاً . فالجليل يفيد كمال الصفات السلبية والثبوتية . أما السلبية فهو أنه تعالى منزه عن الضد والند . والمكان والزمان . وأما الثبوتية فهي العلم المحيط ، والقدرة الشاملة .

وإذا عرفت حقيقة الجلال فنقول : الجليل فعيل . وهو يحتمل أن يكون بمعنى المفعل وبمعنى المفعول وبمعنى الفاعل ، أما الأول فإنه سبحانه يجل المؤمنين ، ويكرمهم ويعظمهم ، ويجزل ثوابهم ، ويرجع ذلك إلى صفات الفعل ، وأما بمعنى المفعول فهو أنه سبحانه يستحق أن يعترف بجلاله وكبريائه العاقلون ، ولا يجحدون إلهيته ولا يكفرون به ، وأما بمعنى الفاعل فمعناه كونه في ذاته موصوفاً بصفات الجلال على ما شرحناه .

وأما حظ العبد منه : فهو براءته عن العقائد الباطلة ، والأخلاق الذميمة ، واتصافه بالمعارف الحقة ، والأخلاق الفاضلة .

أما المشايخ : فقالوا : الجليل الذي جل من قصده ، وذل من طرده ، وقيل الذي جل قدره في قلوب العارفين ، وعظم خطره في نفوس المحبين .

وقيل : الذي جل في علو صفاته أن يشرف عليه أحد ، وتعذر بكبريائه أن يعرف كمال جلاله حينئذ .

وقيل : الجليل الذي كاشف القلوب بوصف جلاله ، وكاشف الأسرار

---

(١) الرحمن : ٢٧ .

(٢) الرحمن : ٧٨ .

بنعت جماله ، وقيل : الجليل الذي أجن الأولياء بفضله ، وأذل الأعداء بعدله .

القول في تفسير اسمه (الكريم)

قال تعالى : ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾[1] وأيضاً الأكرم ، قال تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾[2] .

واعلم أن العرب تسمى كل صفة محمودة كرماً ، قال عليه الصلاة والسلام : « يوسف أكرم الناس » يعني بالنسب ، ويقال : فلان كريم الطرفين يريدون شرفه في النسب ، وقد يطلقون لفظ الكريم على الصورة الحسية ، قال تعالى حكاية عن نسوة مصر في حق يوسف عليه السلام : ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾[3] وقال في صفة الجنة : ﴿ مقام كريم ﴾[4] وقد يطلقون لفظ الكريم على الشيء العزيز ، قال تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[5] .

وقد يطلقون لفظ الكريم على الشيء الذي تكثر منافعه ، ومنه قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام : ﴿ إني ألقي إليَّ كتاب كريم ﴾[6] جاء في تفسيره : كتاب جليل خطير ، وقيل : وصفتْه بذلك لأنه كان مختوماً ، وقيل : كان حسن الخط، وقيل : لأنها وجدت فيه كلاماً حسناً ، ولهذا المعنى يقال للناقة الجوادة : كريمة ، وذلك لغزارة لبنها ، وكثرة دَرها ، وقيل لشجرة العنب : كرمة بمعنى كريمة ، وذلك لكثرة خيرها ، وقرب جناها .

إذا عرفت هذا فنقول : الكرم بمعنى الشرف والطهارة غير حاصل إلا لله

---

(١) الأنفطار : ٦ .
(٢) العلق : ٣ .
(٣) يوسف : ٣١ .
(٤) الدخان : ٢٦ .
(٥) الحجرات : ١٣ .
(٦) النمل : ٢٩ .

سبحانه وتعالى ، لأنه هو الموجود الواجب لذاته ، المنزه عن قبول العدم بوجه من الوجوه ، وإن فسرناه بمعنى العزة فالعزيز المطلق هو الله ، وإن فسرناه بالذي تكثر منافعه وفوائده ، فذا لا يصدق إلا على الحق سبحانه ، لأنه هو المبدأ لوجود جميع الممكنات ، والموجد لكل المحدثات .

ومن كرمه سبحانه أنه يبتدىء بالنعمة من غير استحقاق ، ويتبرع بالاحسان من غير سؤال ، ويقول الداعي في دعائه : يا كريم العفو ، فقيل إن من كرم عفوه أن العبد إذا تاب عن السيئة محاها عنه ، وكتب له مكانها حسنة ، ومن كرمه أنه في الدنيا يستر ذنوبهم ، ويخفي عيوبهم ، ومنه يقال : الكريم متغافل .

ومن كرمه أنهم إذا استغفروه غفر لهم ، قال تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[1] ومن كرمه أن يغفر لهم ، ولا يذكرهم أنواع معاصيهم وقبائحهم وفضائحهم .

ومن كرمه أنهم إذا أتوا بالطاعات اليسيرة أعطاهم الثواب الجزيل ، وشرفهم بالثناء الجميل ، ومن كرمه أنه جعلهم أهلاً لمعاهدته ، فقال : ﴿ أوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾[2] بل أهلاً لمحبته ، فقال : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[3] .

ومن كرمه أنه جعل الدنيا ملكاً للعبد ، فقال ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[4] والآخرة أيضاً ملكاً لهم ، فقال : ﴿ وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾[5] .

ومن كرمه أنه سخر للانسان كل ما في السموات والأرض ، فقال :

---

(١) نوح : ١٠ .
(٢) البقرة : ٤٠ .
(٣) المائدة : ٥٤ .
(٤) البقرة : ٢٩ .
(٥) آل عمران : ١٢٣ .

﴿ وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه ﴾[1] .

وأما الأكرم ، فهو تعالى أكرم الأكرمين ، وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم ، كما جاء الأعز والأطول ، بمعنى العزيز والطويل .

وأما حظ العبد من هذا الاسم ، فهو أن يستعمل الكرم في التجاوز عن ذنوب المسيئين ، وفي إيصال النفع إلى جميع أصناف الخلق .

وأما المشايخ : فقال بعضهم الكريم الذي يعطي من غير منة ، وقال ، الجنيد : الكريم الذي لا يحوجك إلى وسيلة ، وقيل : الكريم الذي لم يؤيس العصاة من قبول توبتهم ويتوب عليهم من غير مسألتهم ، وقيل الكريم الذي إذا أعطى أجزل ، وإن عصي أجمل .

وقال الحارث المحاسبي : الكريم الذي لا يبالي من أعطى ، وقيل : الكريم الذي لا يضيع من توسل إليه ، ولا يترك من التجأ إليه ، وقيل : الكريم الذي إذا أبصر خللاً جبره ، وما أظهره ، وإذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره .

القول في تفسير اسمه (الرقيب)

قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم ﴾[2] وقال : ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾[3] ، وفيه وجهان .

الأول : الرُّقوب دوام النظر على وجه الحفظ ، والرقيب في نعوت الآدميين هو الموكل بحفظ الشيء ، المترصد له ، المحترز عن الغفلة فيه ، يقال فيه رقبت الشيء أرقبه رقبة إذا راعيته وحفظته ، قال تعالى ﴿ ما يلفظ من

---

(١) الجاثية : ١٣ .
(٢) المائدة : ١١٧ .
(٣) الأحزاب : ٥٢ .

قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[1] يـريد بـه الملك الذي يكتب أعمـاله ، ويحصى عليـه ألفاظـه وألحاظـه والله سبحانـه رقيب لعباده بمعنى أنـه يـرى أحـوالهم ، ويعلم أقوالهم .

أمـا الـرؤ يـة فقـولـه : ﴿ إنني معكمـا أسمـع وأرى ﴾[2] وأمـا العلم : فقوله : ﴿ الله يعلم مـا تحمل كـل أنثى وما تغيض الأرحـام وما تـزداد ﴾[3] ، وقال : ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾[4] وقال : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾[5] .

الـوجه الثـاني : الارتقـاب هـو الانتـظار ، قـال تعـالى ﴿ فـارتقب إنهم مـرتقبون ﴾[6] وهـذا في حق الله محال ، فيحمـل على لازمه ، فـإن المنتـظر للشيء يكون طالباً لأن يوصل إليه مـطلوبه ، وهـا هنا الحق سبحـانه طلب من العباد أن يوصلوا إلى حضرته عبوديتهم ، وخضوعهم ، وخشوعهم .

أما حظ العبد من هذا الاسم : فاعلم أن كون العبد مـراقباً لنفسـه عبارة عن علم العبد بإطلاع الحق على ما في داخل قلبه وضميره ، فاستـدامته لهـذا العلم هي المسماة بمراقبته للرب سبحانـه ، وهذه المـراقبة مفتـاح كل خيـر ، وذلـك لأن العبد إذا تيقن أن الحق مـراقب لأفعالـه ، مـطلع على ضمـائـره ، مبصر لأحواله ، سامع لأقواله ، خاف سطوات عقابه في كل حال ، وهابـه في كل موضع ومقال ، علماً منه بأنه الرقيب القريب ، والشاهد الذي لا يغيب .

وأمـا المشايـخ فقـالـوا : الـرقيب الـذي هـو من الأسـرار قـريب وعنـد الاضطرار مجيب .

وقيـل : الرقيب هـو المطلع على الضمـائر ، الشـاهـد على السـرائـر ،

---

(١) سورة ق : ١٨ .
(٢) طه : ٦٤ .
(٣) الرعد : ٨ .
(٤) الأنعام : ٥٩ .
(٥) الحديد : ٤ .
(٦) الدخان : ٥٩ .

وقيل : الرقيب يعلم ويرى ، ولا يخفى عليه السر والنجوى .

وقيل : الرقيب الذي يسبق علمه جميع المحدثات ، وتتقدم رؤيته جميع المكونات ، وقيل الرقيب الحاضر الذي لا يغيب .

كان لبعض المشايخ جمع من التلامذة ، وكان قد خص واحداً منهم بمزية التربية فقالوا : ما السبب فيه ؟ فقال الشيخ : أبينه لكم ، ثم دفع إلى كل واحد من تلامذته طيراً ، وقال : اذبحه حيث لا يراك أحد ، فمضوا ثم رجع كل واحد منهم وقد ذبح طيره ، وجاء ذلك التلميذ بالطير حياً ، فقال الشيخ هلا ذبحته ؟ فقال : أمرتني أن أذبحه حيث لا يراني أحد ، ولم أجد موضعاً لا يراني الله فيه ، فقال الشيخ لهذا السبب أخصه بمزيد التربية .

وحكي أن ابن عمر مر بغلام يرعى غنماً ، فقال : بع مني شاة . فقال : إنها ليست لي . فقال ابن عمر ، قل لمالكها إن الذئب أخذ واحدة منها ، فقال الغلام ، فأين الله ، فاشتراه ابن عمر ؛ وأعتقه ؛ واشترى الغنم ووهبها منه فكان ابن عمر يقول بعد ذلك في كل ساعة ، فأين الله .

القول في تفسير اسمه (المجيب)

قال تعالى : ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾[١] ، وقال : ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾[٢] ، وقال : ﴿ فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[٣] ، وله معنيان .

أحدهما : بمعنى الإجابة ، يقال أجبته اجيبه إجابة وجواباً بمعنى واحد ، وفي المثل . أساء سمعاً فساء إجابة ، وعلى هذا التفسير إجابته : كلامه .

---

(١) غافر : ٦٠ .
(٢) النحل : ٦٢ .
(٣) البقرة : ١٨٦ .

إنه مجاب الدعوة ، وهو المراد بقوله ﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ وفي الخبر . ﴿ إن الله يستحي أن يرد يد عبده صفراً ﴾ وعلى هذا التفسير يرجع إلى صفات الأفعال .

أما حظ العبد : فاعلم أن الله تعالى دعاك إلى طاعته ؛ وأنت تدعوه ليرضيك فإن أجبت دعاءه أجاب دعاءك ؛ قال تعالى ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾[1] فهذا أجاب دعاء الله ، أما إجابة دعاء الناس فإذا سألك أحد شيئاً فلا تزجره ، قال تعالى : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾[2] ؛ قال عليه الصلاة والسلام « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إلى ذراع لقبلت » .

أما المشايخ فقالوا : المجيب الذي يجيب المضطرين ، ولا تخيب لديه آمال الطالبين .

القول في تفسير اسمه (الواسع)

قال تعالى : ﴿ والله واسع عليم ﴾[3] وقال : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾[4] وقال : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾[5] وقال : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾[6] .

واعلم أن هذا الاسم مشتق من السعة ، والواسع المطلق هو الله سبحانه . فهو وسع وجوده جميع الأوقات ، بل قبل الأوقات . لأنه موجود أزلاً وأبداً . ووسع علمه جميع المعلومات فلا يشغله معلوم عن معلوم . ووسعت قدرته جميع المقدورات فلا يشغله شأن عن شأن ووسع سمعه جميع

---

(١) الأنفال : ٢٤ .
(٢) الضحى : ١٠ .
(٣) البقرة : ٢٤٧ .
(٤) الأعراف : ١٥٦ .
(٥) البقرة : ٢٥٥ .
(٦) غافر : ٧ .

المسموعات فلا يشغله دعاء عن دعاء . ووسع إحسانه جميع الخلائق فلا يمنعه إغاثة ملهوف عن إغاثة غيره . ويخطر ببالي أنه إنما ذكر اسم الواسع عقيب اسمه المجيب ؛ لأن التقدير كأن سائلاً سأل وقال كيف يمكنه إجابة الكل . وكيف يسمع أصواتهم دفعة واحدة ؟ وكيف يعلم ضمائرهم دفعة واحدة ؟ وكيف يقدر على تحصيل مراداتهم دفعة واحدة ؟

فأجبت عن هذا السؤال : بأن هذا إنما يصعب في حق الواحد منا لضيق قدرتنا وعلمنا ، أما الحق سبحانه فهو الذي يسع علمه جميع المعلومات . وقدرته جميع المقدورات ؛ فلا يستعذر عليه إجابة المحتاجين .

واعلم أنّا نشاهد في الخلق من يكون ضيق العلم والقدرة . حتى أن عقله وفهمه لا يصلح إلا لنوع واحد من العلوم . وقدرته لا تصلح إلا لنوع واحد من الأعمال . ومنهم من يكون واسع العلم والقدرة فيصلح عقله وفهمه لأكثر العلوم . وقدرته لأكثر الأعمال . بل قد يبلغ الانسان في سعة العلم والقدرة إلى أن يجمع بين الأعمال الكثيرة دفعة واحدة . ولقد أخبرني الثقات عن بعض الأفاضل من الشعراء أنهم عينوا له خمسة أنواع من الوزن والقافية . فكان يلعب بالشطرنج . ويملي على الكل تلك الأشعار .

وإذا رأينا أن العلوم والقدرة قابلة للأشد والأضعف . والأكمل والأنقص وبلغت في درجة الكمال البشري إلى حيث يمكن الانسان من الجمع بين أفعال كثيرة . وكذلك لا يبعد أن يتزايد هذا الكمال ، وهذه القوة ، إلى أن ينتهي إلى قدرة تتسع لتدبير جميع الممكنات ، وإلى علم يتعلق بجميع المعلومات .

وأما حظ العبد من هذا الاسم فقد تلخص مما ذكرناه .

وقد كان في المشايخ من كان طريقه القبض والحزن : فكانوا يتشوشون بأعظم المشوشات .

وأما المشايخ فقالوا : الواسع الذي لا نهاية لبرهانه ، ولا غاية لسلطانه . وقيل : واسع في علمه فلا يجهل ، واسع في قدرته فلا يعجل .

وقيل : الواسع الذي لا يعرب عنه أثـر الخواطـر في الضمائـر ، وقيل : الواسع الذي لا يُحد غناه . ولا تعد عـطاياه ، وقيـل : الواسـع الذي إفضـاله شامل ، ونواله كامل .

وحكي عن بعضهم قال : كنت في البادية وحدي فعييت ، فقلت : يـا رب ضعيف زمن ، وقد جئت إلى ضيافتـك . فوقـع في قلبي أنه ربمـا يقال : من دعـاك ؟ فقلت : يا رب مملكتـك واسعة تحتمـل الـطفيلي . فـإذا هـاتف يهتف من ورائي ، فـالتفتُّ فإذا أعـرابي على راحلة ، فقـال : يـا عجمي إلى أين ؟ قلت إلى مكـة قال : أودعـاك ؟ قلت لا أدري ، قـال أوليس في كتـابـه الاستـطاعـة ؟ قلت ، نعم ولكني طفيلي ، فقـال نِعم مـا فعلت ، المملكـة واسعة ، أيمكنك أن تراعي الجمل ؟ قلت نعم ، فنـزل عن راحلته وأعـطانيها وقال ، سر عليها إلى بيت الله .

القول في تفسير اسمه (الحكيم)

قال تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾[1] وقال : ﴿ وإن تغفر لهم فـإنك أنت العـزيـز الحكيم ﴾[2] وقـد ذكـرنـا إشتقـاق لفظ الحكمـة في تفسيـر الحكم ، فنقول : في الحكيم وجوه .

الأول : أنــه فعيــل بمعنى مفعــل ، كـأليم بمعـنى مـؤلـم ، ومـعنـى الاحكام في حق الله تعالى في خلق الأشيـاء ، هو إتقـان التدبيـر فيها ، وحس التقدير لها ، إذ ليس ذلك في كل الخليقة ، ففيهـا ما لا يـوصف بوثـاقة البنيـة كالبقة والنملة وغيرها ، إلا أن آثار التدبيـر فيها ـ وجهـات الدلالات فيهـا على قـدرة الصانـع وعلمـه ـ ليس أقـل من دلالـة السمـوات والأرض ، والجبـال ، والبحار ـ على علم الصانع وقدرتـه ، وكذا هـذا في قولـه ﴿ الذي أحسن كـل

(١) البقرة : ١٢٩ .
(٢) المائدة : ١١٨ .

شيء خلقه ﴾[1] ليس المراد منه الحسن الرائق في المنظر . فإن ذلك مفقود في القرد والخنزير ، وإنما المراد منه حسن التدبير في وضع كل شيء موضعه بحسب المصلحة ، وهو المراد بقوله ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾[2] .

والثاني : إن الحكمة عبارة عن معرفة أفضل المعلومات بأفضل العلوم ، فالحكيم بمعنى العليم ، قال الغزالي : وقد دللنا على أنه لا يعرف الله إلا الله ، فيلزم أن يكون الحكيم الحق هو الله ، لأنه يعلم أصل الأشياء ، وهو هو أصل العلوم وهو علمه الأزلي الدائم الذي لا يُتصور زواله ، المطابق للعلوم مطابقة لا يتطرق إليه خفاء ، ولا شبهة .

الثالث : الحكمة عبارة عن كونه مقدساً عن فعل ما لا ينبغي ، قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبث ﴾[3] وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض ولا بينهما باطلاً ﴾[4] .

قالت المعتزلة : إذا كان كل القبائح والمنكرات إيجاده وإرادته ، فأين الحكمة ؟ .

قلنا : الباطل هو التصرف في ملك الغير ، فمن تصرف في ملك نفسه فأي فعل فعله كان حكمة وصواباً .

أما حظ العبد : فقالوا : الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، والعبد وإن كان قليل الحظ من العلوم ومن القدْر ، فتلك العلة إنما تظهر بالنسبة إلى علم الله ، وقدرته ، وبالنسبة إلى علم الملائكة وقدرتهم ، إلا أن الذي حصل منه البشر فهو عظيم الخطر ، الذي يدل عليه أنه الله عظمه ، فقال : ﴿ ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾[5] وطلب

---

(١) السجدة : ٧ .
(٢) الفرقان : ٢ .
(٣) (المؤمنون) : ١١٥ .
(٤) آل عمران : ١٩١ .
(٥) البقرة : ٢٦٠ .

إبراهيم عليه السلام ذلك ، فقال : ﴿ رب هب لي حكماً ﴾[1] ومدح الله داود عليه السلام به ، فقال : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[2] قالت الحكماء : الحكمة هو العلم .

والعلم إما أن يكون علماً بما لا يكون وجوده بإختيارنا وفعلنا ، وهو الحكمة النظرية ، أو بما يكون وجوده بإختيارنا وفعلنا ، وهو الحكمة العملية ، أما الحكمة النظرية فهي إما أن تكون وسيلة أو مقصودة بالذات ، أما الوسيلة فهي علم المنطق ، وحاصله يرجع إلى إعداد الآلات التي بها يمكن الانسان من اقتناص التصورات والتصديقات المحمولة على وجه لا يقع في الغلط إلا نادراً .

وأما المقصود فاعلم : إن الأشياء على ثلاثة أقسام : إما أن يجب كونها في مادة ، أو يجب أن لا تكون في مادة ، أو يجوز كلا الأمرين فيه ، أما الذي يجب أن يكون في مادة ، فإما أن يجب أن يكون في مادة معينة ، والعلم الباحث عن هذا القسم من الموجودات مسمى بالعلم الطبيعي ، وإما أن لا يجب أن يكون في مادة معينة ، بل كان يجب أن يكون في مادة ما ، فالعلم الباحث عن هذا القسم من الموجودات يسمى بالعلم الرياضي .

وأما القسم الثاني : وهو الذي يجب أن لا يكون في المادة أصلاً ، فالعلم الباحث عن هذا القسم من الموجودات هو المسمى بالعلم الالهي .

وأما القسم الثالث : وهو الذي قد يكون في مادة ، وقد لا يكون ، فالعلم الباحث عن هذا القسم هو المسمى بالعلم الكلي ، وهو كالعلم بالوحدة ، والكثرة ، والعلّية ، والمعلولية ، والتمام والنقصان ، فهذا مجموع أقسام الحكمة النظرية .

أما الحكمة العملية : فهي إما أن تكون بحثاً عن أحوال نفس الانسان

---

(١) الشعراء : ٨٣ .

(٢) سورة ص : ٢٠ .

مع بدنه الخاص به ، وهذا يسمى علم الأخلاق ، أو عن أحوال نفسه مع أهل منزله وهذا يسمى علم تدبير المنزل ، أو عن أحوال نفسه مع أهل العالم ، وهذا يسمى علم السياسة . فهذا هو الاشارة إلى أقسام العلوم الحكمية ، فمن عرف هذه الأقسام ثم عمل بقوانين العلوم العملية كان حكيماً مطلقاً .

أما المشايخ فقالوا : الحكيم هو الذي يكون مصيباً في التقدير ، ومحسناً في التدبير ، وقيل : الحكيم الذي ليس له أغراض ، ولا على فعله اعتراض .

القول في تفسير اسمه (الودود)

قال تعالى : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾(١) والود هو الحب ، وفيه وجهان .

الأول : أنه فعول بمعنى فاعل ؛ فالودود بمعنى الوادّ ، أي يحبهم ، كما قال ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾(٢) ومعنى قولنا : إنه تعالى يحب عبيده أي يريد إيصال الخيرات إليهم .

واعلم أن الود بهذا التفسير قريب من الرحمة ، لكن الفرق بينهما أن الرحمة تستدعي مرحوماً ضعيفاً ، والود لا يستدعي ذلك ، بل الانعام على سبيل الابتداء من نتائج الود .

الثاني : أن يكون معنى كونه ودوداً أن يوددهم إلى خلقه ، كما قال : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾(٣) .

الثالث : أن يكون فعول بمعنى المفعول ، كما قيل : رجل هيوب بمعنى مهيب ، وفرس ركوب ، بمعنى مركوب ، فالله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه ، لكثرة وصول إحسانه إليهم .

---

(١) البروج : ١٤ .
(٢) المائدة : ٥٤ .
(٣) مريم : ٩٦ .

أمـا حظ العبد من هـذا الاسم : فهو أن يكـون كثيـر التـودد إلى النـاس بالطرق المشروعة ، ومن ذلك لما كسرت رباعية النبي ﷺ قال :[1] اللهم أهدِ قـومي فـإنهم لا يعلمـون ، وقـال لعلي عليـه السـلام : إن أردت أن تسبق المقربين فصل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك .

أمـا المشايـخ فقالـوا : شرط المحبـة أن لا يزداد بـالوفـاء ، ولا ينتقص بالجفاء .

جلس الشبلي في البيمارستان ، فـدخل عليـه قوم ، فقـال : من أنتم ؟ فقالوا نحن محبوك ، فأقبل يرميهم بـالحجارة ففـروا ؛ فقال : لـو كنتم محبين لي لما فررتم عن بلائي .

وقيل : الودود هو المتحبب إلى أوليائه بمعرفتـه ، وإلى المذنبين بعفـوه ورحمته ، وإلى العوام برزقه وكفايته .

وقيـل : الودود الـذي إذا أحبك قـطعك عن الأغيـار ، وأزال عن قلبـك ملاحظة الرسوم والآثار .

القول في تفسير اسمه (المجيد)

قال تعالى : ﴿ وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد ﴾[2] وقال : ﴿ إنه حميد مجيد ﴾[3] والمجيـد فعيل من المـاجد ، كـالعليم من العالم ، والقـدير من القادر ، وفي المجد قولان .

أحـدهما : أنـه الشرف التـام الكـامـل ، قـال تعـالى : ﴿ ق. والقـرآن المجيد ﴾[4] أي الشريف ، فلله الشـرف والمجد ، والعلو والعـظمة في ذاتـه

---

(١) وذلك في غزوة أحد .

(٢) البروج : ١٤ و١٥ .

(٣) هود : ٧٣ .

(٤) سورة ق : ١ و٢ .

وصفاته وأفعاله ، وهو عين ما ذكرناه في العظيم .

الثاني : أن المجد في أصل اللغة عبارة عن السعة ، يقال رجل ماجد إذا كان سخياً مفضلاً كثير الخير ، قال ابن الأعرابي : مجدت الابل إذا وقعت في مرعى خصيب ، ومجدت الدابة مخففا إذا أعلفتها ملء بطنها ، وفي المثل : ﴿ في كل شجر نار ، واستمجد المِرخ والعَفار ﴾[1] أي استكثر منها ، قال تعالى : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ وصفه بالمجيد لكثرة فوائده ، إذا عرفت هذا فالمجيد في صفة الله تعالى يدل على كثرة إحسانه وأفضاله .

فإن قيل : ذكر المجيد في الأسماء التسعة والتسعين مرة ، فأي فائدة في ذكر الماجد في موضع آخر ، قال أبو سليمان الخطابي : يحتمل أن يكون إنما أعيد هذا الاسم ثانياً ، وخولف بينه وبين المجيد في البناء ليؤكد به المعنى الواحد الذي هو الغني ، فقوله الواجد الماجد بمعنى الغني المغنى ، فالواجد يدل على كونه قادراً على كل ما أراد ، والماجد يدل على أنه مع كمال قدرته كثير الجود ، والرحمة ، والفضل ، والاحسان .

أما المشايخ فقالوا : المجيد الذي عزه غير مستفتح ، وفعله غير مستقبح ، وقيل : المجيد الذي بره جميل ، وعطاؤه جزيل .

القول في تفسير اسمه (الباعث)

قال : ﴿ وإن الله يبعث من في القبور ﴾[2] والبعث هو الاثارة والانهاض ، يقال : بعث بغيره فانبعث . فالباعث في صفة الله تعالى يحتمل وجوهاً .

الأول : أنه تعالى باعث الخلق يوم القيامة ، كما قال : ﴿ وإن الله

(١) يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض .
(٢) الحج : ٧ .

يبعث من في القبور﴾، ومنه قوله: ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾[1] وقال: ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾[2] وقال : ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾[3] .

الثاني : أنه تعالى باعث الرسل إلى الخلق ، قال تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم ﴾[4]أوقال : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾[5] .

الثالث : أنه تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة بخلق الارادات والدواعي في قلوبهم .

الرابع : أنه يبعث عباده عند العجز بالمعونة والاغاثة ، وعند الذنب بقبول التوبة .

وأما حظ العبد : فهو أن الروح في أول الأمر لا يكون عنده شيء من المعارف والعلوم ، والروح بدون العلم كالبدن بدون الروح ، قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾[6] وقال : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾[7] فالعبد إذا سعى في التعلم فكأنه بعث روحه بعد الموت ، وإذا سعى في تعليم الجهلاء فكأنه يبعث أرواحهم بعد موتها .

وأما المشايخ فقالوا : إنه باعث الهمم إلى الترقي في ساحات التوحيد ، والتنقي من ظلم صفات العبيد ، وقيل الباعث : الذي يبعثك على عليات الأمور ، ويرفع عن قلبك وساوس الصدور ، وقيل : الباعث الذي يصفي الأسرار عن الهوس ، وينقي الأفعال عن الدنس .

---

(١) يس : ٥٢ .
(٢) البقرة : ٥٦ .
(٣) الكهف : ١٩ .
(٤) يونس : ٧٤ .
(٥) النحل : ٣٦ .
(٦) الأنعام : ١٢٢ .
(٧) النحل : ٢ .

وقال الجنيد : كن في باطنك مع الله روحانيـاً ، وفي ظاهـرك مع الخلق جسمانياً .

القول في تفسير اسمه (الشهيد)

قال تعالى : ﴿ وكفى بـالله شهيداً ﴾[1] وقـال : ﴿ قل كفى بـالله شهيداً بيني وبينكم ﴾[2] وقال : ﴿ وأنت على كل شيء شهيـد ﴾[3] وقال : ﴿ شهـد الله ﴾[4] وقال : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾[5] .

واعلم أن الشهيد مبالغة من الشاهـد ، كالعليم من العـالم ، والقدرة من القادر والنصير من الناصر ، وفي تفسيره وجوه :

الأول : أنه العالم ، قـال الغزالي : إنـه تعالى عـالم الغيب والشهادة ، والغيب عبارة عما بطن ، والشهادة عبارة عما ظهر ، فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم ، وإذا أضيف إلى الغيبة والأمور البـاطنة فهـو الخبير ، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة الحاضرة فهو الشهيد .

الثاني : الشاهد والشهيد ، هو الحاضر المشاهد ، قال تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾[6] أي من حضره ، وهذا الحضور إن كـان بالعلم فهو الوجه الأول ، وإن كان بالرؤ ية والابصار كان ذلك وجهاً ثانيـاً . قال عليـه الصلاة والسلام : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

الثالث : الشهيد والشاهد هو الذي يظهر بقـوله لـلأمر المتنـازع فيه بين الخصمين ويظهر به صدق المدَّعي ، وثبوت حقه على خصمه ، فقوله ﴿ شهد

---

(١) النساء : ٧٩ .
(٢) الرعد : ١٣ .
(٣) المائدة : ١١٧ .
(٤) آل عمران : ١٨ .
(٥) الرعد : ٩ .
(٦) البقرة : ١٨٥ .

الله ﴾ مفسراً بهذا الوجه وكذا قوله ﴿ إلا كنا عليكم شهوداً ﴾ .

الرابع : أنه شهيد بمعنى أنه بيَّن توحيده وعدله ، وصفات جلاله بنصب الدلائل ، ووضع البينات ، وفسر بعضهم قوله ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ بنصب الدلائل على التوحيد .

الخامس : أنه شهيد بمعنى المشهود له ، وذلك أن العباد يشهدون له بالوحدانية ويقرون له بالعبودية ، فيكون فعيلاً بمعنى مفعول ، ويتأكد هذا الوجه بقوله تعالى ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ﴾[1] فالله طلب الشهادة من عباده على وحدانيته ، فشهدوا له بذلك ، فكان مشهوداً له في هذه الدعوى ، أما الشهيد في صفة الناس فهو الذي قتله المشركون في المعركة ، وذكر في علة هذا الاسم وجوهاً .

الأول : إن ملائكة الرحمن يحضرون ، ويرفعون روحه إلى منازل القدس ، فيكون فعيلاً بمعنى مفعول .

الثاني : يسمى شهيداً مبالغة من الشاهد ، معناه أنه شاهد لطف الله ورحمته ، وما أعد له من الدرجات .

الثالث : قال النضر بن شميل : الشهيد هو الحي ، لأن كل من كان حياً كان شاهداً ومشاهداً للأحوال ، والشهيد حي بعد أن صار مقتولاً ، قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾[2] .

الرابع : سمي شهيداً لأنه شهد الوقعة في المعركة .

الخامس : سمي شهيداً لأنه من جملة من سيشهد يوم القيامة على الأمم الخالية ، قال تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾[3] .

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ .
(٣) البقرة : ١٥٣ .

واعلم أن كونه تعالى شهيداً يوجد الطرب للأولياء ، والخوف للأعداء ، أما الطرب فيحكى أن رجلاً كان يُضرب بالسياط ، وهو يصبر ولا يظهر الجزع ، فقال له بعض المشايخ : أما تجد الألم فلم لا تصيح ؟! فقال : إنما أضرب لأجل محبوبي وهو حاضر ، ناظر إليّ ، عالم بأني أضرب لأجله ، فسهّل على ذلك بسبب نظره .

فإذا كان نظر المخلوق يخفف ألم الضرب فكون الخالق شهيداً أولى : بأن يخفف عن العبد تعب الطاعات ، وألم المكروهات ، كما قال : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[1] وأما أنه موجب الخوف للأعداء فلأن إساءة الأدب في حضور السلطان يوجب عظيم الجرم .

أما كلام المشايخ في هذا الاسم : فقال بعضهم : الشهيد الذي على الأسرار رقيب ، ومن الأحباب قريب ، وقيل : الشاهد الذي نور القلب بمشاهدته ، والأسرار بمعرفته ، وقيل : الذي يشهد سرك ونجواك ، في دنياك وعقباك ، وقيل : الشهيد الذي هو أعز جليس ، ولا يحتاج معه إلى أنيس .

القول في تفسير اسمه (الحق)

قال تعالى : ﴿ ثم رُدوا إلى الله مولاهم الحق ﴾[2] وقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه الباطل ﴾[3] وهو أيضاً محق الحق ، قال : ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾[4] ، وأيضاً وعده حق ، قال تعالى : ﴿ إن وعد الله حق ﴾[5] .

واعلم أن الحق هو الموجود ، والباطل هو المعدوم ، وإذا كان الشيء

---

(١) الطور : ٤٨ .
(٢) الأنعام : ٦٢ .
(٣) لقمان : ٣٠ .
(٤) يونس : ٨٢ .
(٥) لقمان : ٣٣ .

واجب الوجود لذاته كان اعتقاد وجوده ، والاقرار بوجوده يكون مستحق التقدير والاثبات ، فلا جرم يسمى هذا الاعتقاد ، وهذا الاقرار حقاً ، أما إذا كان واجب العدم كان اعتقاد وجوده ، والاقرار بوجوده مستحق العدم ، فلا جرم يسمى هذا الاعتقاد وهذا الاقرار باطلاً .

إذا عرفت هذا فنقول : الشيء إما أن يكون واجباً لذاته ، أو ممتنعاً لذاته ، أو ممكناً لذاته ، أما الواجب لذاته فإنه حق محض لذاته ، وأما الممتنع لذاته فهو باطل محض لذاته ، والممكن لذاته فمثل هذا لا يترجح وجوده على عدمه إلا بإيجاد موجد ، فلو لم يوجد ذلك الموجد لبقي على العدم ، فإذاً كل ممكن فهو من حيث هو باطل وهالك ، فلهذا قال ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[1] ولهذا المعنى يقول العارفون : لا موجود في الحقيقة إلا الله .

وأيضاً فكل ممكن فهو إنما يكون موجوداً بتكوين واجب الوجود ، فواجب الوجود هو الذي يجعل كل ما سواه حقاً ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾ فهو سبحانه حق لذاته ، ويحق الحق بكلماته ، فما أحسن مطابقة هذه الدلائل البرهانية على هذه الرموز القرآنية .

ولما ثبت أنه سبحانه حق لذاته ، كان اعتقاد وجوده ، واعتقاد كونه موصوفاً بصفات التعالى والعظمة حق الاعتقادات ، لأن المعتقد لما كان ممتنع التغير امتنع تغير ذلك الاعتقاد من كونه حقاً إلى كونه باطلاً ، وكذا الاقرار به والاخبار عن وجوده ، فهو سبحانه أحق الحقائق بأن يكون حقاً ، ومعرفته أحق المعارف بالحقيقة ، والاقرار به أحق الأقوال بالحقية ، ثم ها هنا سؤالات .

الأول : ما معنى قول الحسين بن منصور [الحلاج] : أنا الحق ؟

والجواب : أما القول بالاتحاد فظاهر البطلان ، لأنه إذا إتحد شيئان فإن بقيا فهما إثنان ، وإن فنيا كان الثالث شيئاً آخر ، وإن بقي أحدهما وفني الآخر

---

(١) القصص : ٨٨ .

إمتنع الاتحاد ، لأن الموجود لا يكـون نفس المعدوم ، فبقي أن يـطلب لكلام هذا الرجل تأويل . وتأويله من وجوه .

الأول : أنّا بينّا بالبرهان النير أن الموجود هو الحق سبحانه ، وإن كل ما سواه فهو باطل ، فهذا رحل ما سوى الحق عن نـظره ، وفنيت نفسه أيضاً عن نظره ، ولم يبق في نظره مـوجود غيـر الله ، فقال في ذلـك الوقت أنـا الحق ، كـأن الحق سبحانـه أجرى هـذه الكلمة على لسـانه ، حـال فنائـه بالكليـة عن نفسه ، وإستغراقه في أنوار جلال الله تعالى ، ولهذا المعنى لما قيـل له : قـل أنا بالحق أبَى ، فإنه لو قال أنا بالحق لصار قوله أنا إشارة إلى نفسه ، والـرجل كان في مقام محو ماسوى الله .

التأويل الثاني : أنه ثبت أنـه سبحانـه هو الحق ، ومعـرفته هي المعـرفة الحقية ، وكما أن الاكسير إذا وقع على النحاس قلبه ذهباً ، فكذا إكسير معرفة الله إذا وقـع على روحه انقلبت روحـه من الباطليـة إلى الحقيـة ، فصـار ذهبـاً إبريزاً ، فلهذا قال : أنا الحق .

التأويل الثالث : أن من غلب عليه شيء يقـال إنه هـو ذلك الشيء على سبيل المجاز ، كما يقال فلان جود وكرم ، فلما كان الرجل مستغرقـاً بالحق لا جرم قال : أنا الحق .

والفـرق بين هـذا الجـواب وبين الأول أن في الأول صـار العبـد فـانيـاً بالكلية عن نفسه ، غرِقاً في شهود الحق ، فقوله : أنا الحق كلام أجـراه الحق على لسـانه في غلو سُكـره ، فيكون القـائل في الحقيقـة : هو الله ، وأمـا في الجواب الثاني فالعبد هو الذي قال ذلك ، ومراده منه المبالغة ، وبين المقامين فرق عظيم ، إن كنت من أرباب الذوق .

التأويل الرابع : لا يبعد أنه لما تجلى في روحه نور جلال الله ، وزالت حجب البشرية ، لا جرم بلغت روحه إلى أقصى منازل السعادات ، فقـد صار حقاً بجعل الله إياه حقاً ، كمـا قال تعـالى : ﴿ ويحق الله الحق بكلماتـه ﴾[1]

(١) يونس : ٨٢ .

فيصدق قوله أنا الحق لأن الحق أعم من الحق بذاته ، ومن الحق بغيره .

فإن قيل : فبهذا الوجه كل موجود حق ، فما معنى التخصيص ؟

قلنا : لأنه لما تجلى في روحه نور عالم الالهية صار كاملاً حاصلاً في هذه الدرجة ، فلاختصاصه بمزيد الكمال ذكر ذلك .

التأويل الخامس : أنه يحمل ذلك على حذف المضاف ، والمعنى : أنا عابد الحق ، وذاكر الحق ، وشاكر الحق .

السؤال الثاني : ما السبب في أن الجاري على لسان أهل التصوف من أسماء الله سبحانه في الأغلب هو الحق ؟

والجواب : قال الغزالي : لأن مقام الصوفية مقام المكاشفة ، ومن كان في مقام المكاشفة رأى الله حقاً ، ورأى غيره باطلاً .

أما المتكلمون : فهم في مقام الاستدلال بغير الله على وجود الله ، فلا جرم كان الغالب على ألسنتهم اسم الباري تعالى .

وأما الفقهاء : فهم في البحث عن كيفية التكليف ، فلا جرم كان الغالب على ألسنتهم اسم المشرّع .

القول في تفسير اسمه (الوكيل)

قال تعالى : ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾[1] وقال : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[2] وقال : ﴿ لا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾[3] .

واعلم أن الوكالة من الوكيل قبوله الأمور الموكولة إليه ، وقيامه بما يتوكل عليه ، واعلم أنه فعيل بمعنى مفعول ، فالوكيل في صفات الله تعالى

---

(١) النساء : ٨١ .
(٢) آل عمران : ١٨٣ .
(٣) الاسراء : ٢ .

بمعنى موكول إليه ، فإن العباد وكلوا إليه مصالحهم ، واعتمدوا على إحسانه ، وذلك لأن تفويض المهمات إلى الغير إنما يحسن عند شرطين .

أحدها : عجز الموكل عن إتمامه ، ولا شك أن الخلق عاجز عن تحصيل مهماتهم .

والثاني : كون الموكول إليه موصوف بكمال العلم ، والقدرة ، والشفقة ، والبراعة ، والنزاهة عن طلب النصيب ، لأن الجاهل بالأمر لا يحسن توكيل الأمر إليه ، وكذلك الفاجر ، ثم إن كان عالماً قادراً لكن لا يكون له شفقة لم يحسن أيضاً تفويض الأمر إليه ، ثم إن حصلت هذه الصفات الثلاث . وهي العلم ، والقدرة والرحمة ، ولكنه قد تطلب النصيب لم يحسن أيضاً تفويض الأمر إليه ، لأن لا محال يقدم مصالح نفسه على مصالحك ، فتصير مصالحك مختلة ، فأما إذا حصلت الصفات الأربع فحينئذ يحسن توكيل المصالح وتفويضها إليه ، ولا شك أن كمال هذه الصفات غير حاصل إلا لله سبحانه وتعالى ، فلا جرم كان وكيلاً ، بمعنى أن العباد فوضوا إليه مصالحهم ، وهذا هو المراد من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾[1] ومن قوله : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[2] ومن قوله عليه الصلاة والسلام « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

وأما المشايخ فقالوا : الوكيل ابتدأك بكفايته ، ثم والاك بحسن رعايته ، ثم ختم لك بجميل ولايته ، وقيل الوكيل الذي يثني جميلاً ، ويعطي جزيلاً ، لمن رضي به وكيلاً .

القول في تفسير اسميه (القوي ـ المتين)

قال تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[3] قال الأزهري :

---

(١) الفرقان : ٥٨ .

(٢) الطلاق : ٣ .

(٣) الذاريات : ٥٨ .

قـريء المتين بـالخفض ، والقـراءة المشهـورة هي الـرفـع ، وهي أحسن في العربية ، وعلى هذه القراءة المتين صفة الله تعالى ، ومن قـرأ المتين بالخفض جعـل المتين صفـة للقـوة لأن تـأنيث القـوةِ ليس بحقيقي ، فكـانت كتـذكيـر الموعظة في قوله : ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾[1] .

ثم نقـول : إتفق الخائضـون في تفسير أسمـاء الله على أن القوة هـا هنا عبـارة عن كمال القـدرة ، والمتانـة عبارة عن كمـال القوة ، فعلى هـذا القـوة المتينة اسم للقدرة البالغة في الكمال إلى أقصى الغايـات ، وعندي أن كمـال حال الشيء في أن يؤثر يسمى قوة ، وكمال حـال الشيء أن لا يقبل الأثـر من الغير يسمى أيضاً قوة ، وذلك لأن الانسان الذي يقـوى على أن يصرع النـاس يسمى قوياً شـديداً ، والانسـان الذي لا ينصـرع من أحد يسمى أيضـاً قويـاً ، وبهذا التفسير يسمى الحجر والحديد : قوياً شديداً .

إذا عـرفت هذا فنقـول : إن حملنا القـوة في حق الله تعالى على كـونـه كـافلاً في التـأثر في الممكنـات كان معنى القـوة هو القـدرة ، لأنه تعـالى إنما يوجد الممكنات بقدرته ، وإن حملنا القـوة في حق الله تعالى على كـونه غيـر قابل للأثر من غيره كان معنى قوته ومتانته هو كونه واجب الوجود لذاته ، وذلك لأنه كلما كان واجب الوجود لذاته كان واجب الوجود من جميع جهاتـه ، وكل مـا كان كـذلـك لم يقبـل الأثـر من غيـره البتـة ، لا بتحصيـل شيء فيـه كـان معدوماً ، ولا بإعدام شيء كان موجوداً .

فإن قيل : مقدمة قوله ﴿ إن الله هو الرزاق ﴾ يشعر بأن المـراد من قولـه ذو القوة المتين هو القدرة .

قلنا : كما أن هـذه المقدمة تنـاسب كمال القـدرة من حيث إن بالقـدرة يمكنه إيصال الرزق إلى المحتاجين ، فكـذلك ينـاسب كونـه الوجـود لذاتـه ، منزهاً عن قبـول التغيرات ، فـإنه مـا لم يكن واجب الوجـود والبقـاء في ذاتـه

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

وصفات كماله ، لا يمكنه إيصال الرزق إلى المحتاجين ، فعلمنا أن لفظ القوة محتمل لكل واحد من هذين الوجهين .

أما المتين فهو الشديد ، وإشتقاقه من المتانة وهي الصلابة لغة مأخوذة من المتن الذي هو الظهر ، لأن إستمساك أكثر الحيوان يكون بالظهر ، فلهذا السبب سميت القوة باسم الظهر ، وباسم المتين . قال تعالى : ﴿ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] ويقال كلام متين إذا كان قوياً .

واعلم أنه لا يصح في حق الله تعالى معنى المتن والصلابة ، فوجب حمله على لازم هذا المعنى ، وهو إما كمال حال التأثير في الغير ، أو كمال الحال في أن لا يتأثر عن الغير .

وقيل أيضاً : القوي بمعنى المقوي ؛ فعيل بمعنى مفعل ، وحينئذ يرجع ذلك إلى صفات الفعل .

قال أبو سليمان الخطابي : وقد ورد في الأسماء التسعة والتسعين ، فكان المتين المبين ومعناه المبين أمره في صفات الألهية والوحدانية ، يقال بان الشيء وأبان وبين وإستبان بمعنى واحد ، ثم قال : والمحفوظ هو المتين ، كما قال : ذو القوة المتين .

أما حظ العبد منه فهو : أنه إن كان في غاية القوة لم يلتفت إلى ما سوى الله ، وإن لم يبلغ إلى هذا الحد لم يلتفت إلى قول النفس ، ورجح الآخرة على مشتهيات النفس ، أما إذا صار مغلوب النفس غرِقاً في طلب اللذات الجسمانية ، فهذه الروح قد بلغت الغاية القصوى في الضعف .

وأما المشايخ فقالوا : من عرف قوة الله ترك عزيمته ، ولزم يمته ، وقيل : الذي لا أحد ينصره ، ولا أمد يحصره .

---

(١) الاسراء : ٨٨ .

القول في تفسير اسمه (الولي)

قال تعالى : ﴿ الله ولي الـذين آمنوا ﴾[1] وقـال مخبراً عن يـوسف عليه السـلام ﴿ أنت وليّ في الدنيـا والآخـرة ﴾[2] ومن هـذا البـاب المولى ، قـال حكـاية عن المؤمنين ﴿ أنت مـولانا ﴾[3] وقـال : ﴿ ثم ردوا إلى الله مـولاهم الحق ﴾[4] وقـال : ﴿ ذلك بـأن الله مولى الـذين آمنوا وأنّ الكـافرين لا مـولى لهم ﴾[5] وكما دلت هذه الآيات على كون الرب ولياً للعبـد ، دلت آيات أخَـر على كـون العبـد وليـاً للرب ، قـال تعـالى : ﴿ ألا إن أوليـاء الله ﴾[6] ، وفي تفسير الولي وجوه :

الأول : أنه المتولي للأمر ، والقائم به ، كولي اليتيم ، وولي المرأة في عقد النكاح عليهـا ، وتحقيق الكلام أن أصـل هذه الكلمـة من المولى . وهـو القرب والولي بمعنى الوالي فعيل بمعنى فاعل على المبالغة .

والثـاني : إن الولي بمعنى النـاصر كمـا قال : ﴿ المؤمنـون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[7] والناصر بالحقيقـة للخلق هو الله سبحـانه وتعـالى ، قـال : ﴿ نحن أولياؤكم في الحيـاة الدنيـا وفي الآخـرة ﴾[8] أي أنصـاركم ، ويقال : أولياء السلطان أي أنصاره .

واعلم أن هذا الاسم على التفسير الأول والثاني من صفات الفعل ، إلا أن المعنى الأول أعم لأنـه يتناول المؤمن والكـافـر وغيـرهمـا من الخـلائق ، والمعنى الثاني خاص بالمؤمنين .

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .
(٢) يوسف : ١٠١ .
(٣) البقرة : ٢٨٦ .
(٤) الأنعام : ٦٢ .
(٥) محمد : ١١ .
(٦) يونس : ٦٢ .
(٧) التوبة : ٧١ .
(٨) فصلت : ٣١ .

والثالث : أن الولي بمعنى المحب ، ومنه يقال فلان ولي فلان إذا كان حبيبه ، قال تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ أي يحبهم .

الرابع : الولي بمعنى الموالي كالجليس بمعنى المجالس ، فموالاة الله للعبد محبته له .

واعلم أن لفظ المولى في اللغة يطلق على المعتِق ، وعلى المعتَق ، وعلى الناصر ، وعلى الجار ، وعلى ابن العم ، وعلى الحليف ، وعلى القيِّم بالأمر ، والأصل عدم الاشتراك فلا بد من مشترك ، والقدر المشترك هو القرب ، فلهذا المعنى قال أهل اللغة : الولي هو القريب يقال : « كل مما يليك » أي مما يقرب منك ، وفلان يلي فلاناً في المجلس ؛ أي يقرب منه في الدرجة ، وقال تعالى : ﴿ أولى لك فأولى ﴾[1] تهديداً ، أي قاربك ودَنا منك ما أنذرتك فاحذره .

فثبت أن أصل هذه الكلمة هو القرب ، وهذا المعنى حاصل في المعتق والناصر ، وابن العم ، والحليف ، والقيم بالأمر ، فإنه حصل هناك إختصاصات مقتضية للقرب والاتصال ، إذا ثبت هذا فكونه تعالى ولياً بعباده إشارة إلى قربه منهم ، قال تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾[2] وقال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[3] وقال : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾[4] .

واعلم أن الناس يظنون أن هذه الآيات دالة على المبالغة في القرب ، وعندي أن قرب الله من العبد أعظم مما دلت عليه ظواهر هذه الآيات ، فإنما وردت هذه الأمثلة على وفق أفهام أكثر الخلق ؛ وبيانه أن ماهيات الممكنات لا تصير موصوفة بالوجود إلا بتوسط إيجاد الصانع ، فعلى هذا هذه الماهيات

---

(١) القيامة : ٣٤ .
(٢) الحديد : ٤ .
(٣) سورة ق : ٦ .
(٤) المجادلة : ٧ .

إتصلت بإيجاد الصانع أولاً ، ثم بواسطة ذلك الايجاد حصل لها الوجود ، فقرْبها من إيجاد الصانع أشد من قربها من وجودها ، بل ها هنا ما هو أدق منه ، وذلك لأنه ظهر عندنا أن الماهيات إنما تكونت في كونها ماهيات وحقائق بتكوين الصانع وإيجاده ، فيكون إيجاد الصانع لتلك الماهيات متقدماً على تحقق تلك الماهيات ، فيكون قرب الصانع منها أتم من قربها من نفسها ؛ هذه حمل القول في تفسير الولي .

أما حظ العبد من هذا الاسم : فما ذكرناه من أنّ الحق ولي العبد، والعبد ولي الحق ، فحظ العبد من هذا الاسم أن يجتهد في تحقيق الولاية من جانبه ؛ وذلك لا يتم إلا بالاعراض عن غير الله ؛ والاقبال بالكلية على نور جلال الله .

أما المشايخ فقالوا : الولي الذي نصر أولياءه . وقهر أعداءه . فالولي بحسن رعايته منصور . والعدو بحكم شقاقه مقهور .

وقيل : الولي الذي أحب أولياءه بلا علة . ولا يردهم بإرتكاب ذلة .

وقيل : الولي الذي تولى سياسة النفوس فأدبها . وحراسة القلوب فهذبها .

وقيل : الولي الذي بالاحسان ملي . وبتصديق الوعد وفيّ .

القول في تفسير اسمه (الحميد)

وقال : ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾[1] . وقال : ﴿ إنه حميد مجيد ﴾[2] .

واعلم أنه فعيل إما بمعنى فاعل ، فإنه تعالى حامد لم يزل بثنائه على

---

(١) سبأ : ٦ .
(٢) هود : ٧٣ .

نفسه ؛ وهو قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[1] وبثنائه على المؤمنين الذين سيوجدون .

وإما بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول ، أي محمود بحمده لنفسه ؛ وبحمد عباده له ؛ ومنه قوله : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾[2] ومنهم من قال : الحميد ، معناه المستحق للحمد والثناء .

حظ العبد من هذا الاسم : وأما العبد إنما يكون حميداً إذا سلمت عقائده عن الشبهات ، وأعماله عن الشهوات ؛ وكل من كان في هذا المقام أكمل كان في كونه حميداً أكمل .

وأما المشايخ فقالوا : الحميد الذي يوفقك للخيرات ، ويحمدك عليها ، ويمحو عنك السيئات ، ولا يخجلك بذكرها .

واعلم أن العامة يحمدونه على إيصال اللذات الجسمانية ، والخواص يحمدونه على إيصال اللذات الروحانية ، والمقربون يحمدونه لأنه هو لا لشيء غيره .

القول في تفسير اسمه (المحصي)

قال تعالى : ﴿ وأحصى كل شيء عدداً ﴾[3] .

واعلم أن هذا الاحصاء راجع إما إلى علمه سبحانه بعدد أجزاء الموجودات وعدد حركاتهم وسكناتهم ، وإما إلى تعلق خبره القديم بذلك . والأول أظهر . أو إلى أنه تعالى يعد الأعمال يوم القيام على الخلق لأجل الحساب . كما قال تعالى : ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾[4] ونظيره قوله : ﴿ ما

---

(١) الفاتحة : ١ .
(٢) البقرة : ٣٠ .
(٣) الجن : ٣٨ .
(٤) المجادلة : ٦ .

لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾[1] .

أما حظ العبد : فهو أنه متى علم أن الرب تعالى يحصي عليه الكليات والجزئيات ، فهو أيضاً يحصيها على نفسه .

سأل بعضهم داود الطائي عن الزمي ، فقال : الرمي حسن ، ولكن أيامك أنظر بماذا ترجيها .

أما المشايخ فقالوا : المحصي هو الذي بالظاهر بصير ، وبالسرائر خبير ، وقيل : هو الذي بالظاهر راقب أنفاسك ، وبالباطن راعى حواسك . وقيل هو الحافظ لأعداد طاعتك ، العالم بجميع حالاتك .

القول تفسير اسميه (المبدىء ـ المعيد)

قال تعالى : ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾[2] وقال : ﴿ هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾[3] .

واعلم أن مذهب أصحابنا : أن الله تعالى يفني الأشياء ، ثم إنه يعيدها بأعيانها .

قال الغزالي : الايجاد إذا لم يكن مسبوقاً بمثله سمي إبداء ، وإن كان مسبوقاً بمثله سمي إعادة ، وهذا يوهم أنه كان منكراً لاعادة المعدوم ، وقد ذكرنا هذه المسألة في كتاب الأربعين في أصول الدين ، والحجة على جوازه ما ذكره الله في كتابه ، وهو قوله : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾[4] .

---

(١) الكهف : ٤٩ .
(٢) البروج : ١٣ .
(٣) الروم : ٢٧ .
(٤) يس : ٧٩ .

القول في تفسير اسميه (المحيي ـ المميت)

قال تعالى : ﴿ وهو الذي يحييكم ثم يميتكم ﴾[1] وقال عن إبراهيم عليه السلام :﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾[2] وقال : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ [3] .

واعلم أن الحياة والموت من الله بدلالة هذه الآية ، وقال : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾[4] وقال : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [5] .

واعلم أنه تعالى يحيي النطفة والعلقة بخلق الحياة فيهما ، ويحيي الأرض بإنزال الغيث ، قال ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ [6] .

وإنما تمدح بالإماتة ليعلم أنه قادر على التصرف في هذه الأشياء كيف شاء ، وأراد .

فإن قيل : فما معنى قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾[7] وقوله : ﴿ توفته رسلنا ﴾[8] .

فنقول : خلْق الموت في الحقيقة من الله تعالى ، وفي عالم الأسباب مفوض إلى ملك الموت ، وله أتباع وأعوان ، فتارة أضيف للأعوان ، وأخرى إلى الرئيس ، وأخرى إلى الخالق لأنه المؤثر في الحقيقة .

واعلم أنه تعالى يحيي ويميت ، يحيي الأجسام بالأرواح ، ويحيي

---

(١) البقرة : ٢٨ .
(٢) الشعراء : ٨١ .
(٣) البقرة : ٢٨ .
(٤) الملك : ٢ .
(٥) الزمر : ٤٢ .
(٦) الروم : ١٨ .
(٧) السجدة : ١١ .
(٨) الأعراف : ٣٧ .

الأرواح بالمعارف والواردات الغيبية ، قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾(١) وقال : ﴿ ولا يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾(٢) .

أما المشايخ فقالوا : المحيي من أحياك بذكره ، واستعبدك ببره ، ونصبك لشكره ، والمميت من أمات قلبك بالغفلة ، ونفسك بإستيلاء الزلة ، وعقلك بالشهوة .

وقيل : المحيي من أحيا قلوب العارفين بأنواع معرفته ، وأحيا أرواحهم بلطف مشاهدته ، وقيل : المحيي من أحيا العارفين بالموافقات ، وأمات المذنبين بالمخالفات .

القول في تفسير اسمه (الحي)

قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾(٣) وقال : ﴿ هو الحي لا إله إلا هو ﴾(٤) وقال : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾(٥) .

واعلم أنه تعالى إنما تمدح بكونه حياً ، لأن مراده منه كونه حياً لا يموت ، ألا ترى أن الحي الذي يجوز عليه الموت حكم عليه بأنه ميت ، قال تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾(٦).

حكي أنه مات لبعضهم ابن فبكى حتى عمي ، فقال بعضهم : الذنب لك حيث أحببت حياً يموت ، هلا أحببت الحي الذي لا يموت ، حتى لا تقع في هذا الحزن ، قالوا : كل من صار حياً بالله لم يمت ، قال تعالى : ﴿ ولا

---

(١) الأنعام : ١٢٢ .
(٢) فاطر : ٢٢ .
(٣) آل عمران : ٢ .
(٤) غافر : ٦٥ .
(٥) الفرقان : ٥٨ .
(٦) الزمر : ٣٠ .

تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم ﴾[1] .

قال الشبلي : عجبت ممن ذكر الموت كيف لا ينسى أهل الدنيا ، وعجبت ممن ذكر الله كيف لا ينسى نفسه .

واعلم إن إطلاق لفظ الحيوان لا يجوز على الله ، مع أنه يجوز إطلاق لفظ الحي عليه ، والفرق هو التوقيف .

القول في تفسير اسمه (القيوم)

قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[2] وقال : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾[3] قال : وقرأ عمر بن الخطاب القيام ، ومن الألفاظ المناسبة لهذا الاسم لفظان .

أحدهما : القائم ، قال تعالى ، ﴿ قائماً بالقسط ﴾[4] .

والثاني : القيم : ولم يرد هذا اللفظ في حق الله تعالى ، لكنه ورد في صفة القرآن قال : ﴿ ولم يجعل له عوجاً قيماً ﴾[5] .

واعلم أنه لا شك في وجود الموجودات ، فهي إما أن تكون بأسرها واجبة ، أو بعضها ممكن ، وبعضها واجب ، أما ضد القسم الأول ، وهي أن تكون كلها ممكنة فهذا محال ، إذا كان الكل ممكناً فقد وجد ذلك الكل الممكن لا بسبب ؛ هذا خلف .

والثاني أيضاً محال ، لأنه إذا وجد موجودان واجبان بالذات فقد اشتركا في الوجوب ، وتباينا بالتعين ، فيقع التركيب في ذات كل واحد منهما ، وكل

---

(١) آل عمران : ١٦٩ .

(٢) آل عمران : ٢ .

(٣) طه : ١١١ .

(٤) آل عمران : ١٨ .

(٥) الكهف : ١ و٢ .

مركب ممكن ؛ فكل واحد منهما ممكن ، هذا خلف .

فلم يبق إلا القسم الثالث ، وهو أن يكون الواحد واجباً ، والباقي ممكناً ، فذلك الواحد لكونه واجباً بذاته يكون قائماً بذاته ، غنياً عن غيره .

ولما كان كل ما سواه ممكناً ، وكل ممكن فهو مستند إلى الواجب ، كان كل ما سواه مستنداً إليه ، وكان هو سبباً لوجود كل ما سواه ، فكان هو سبباً لتقويم كل ما سواه ، فثبت أن ذلك الواحد قائم بذاته على الاطلاق ، وسبب لقوام كل ما سواه على الاطلاق ، فوجب أن يكون قيوماً ، لأنها مبالغة من القيام ، وكمال المبالغة إنما يحصل عند الاستغناء به عن كل ما سواه ، وإفتقار كل ما سواه إليه ، فثبت بهذا البرهان النير أنه سبحانه هو القيوم الحق بالنسبة إلى كل الموجودات .

إذا عرفت هذا فنقول : تأثيره في غيره إما أن يكون بالايجاب أو بالايجاد فإن كان الأول لزم من قدمه قدم كل ما سواه وهو محال ، فثبت أن تأثيره في غيره هو بالايجاد ، والموجد بالقصد والاختيار لا بد وأن يكون متصوراً ماهية ذلك الشيء الذي يقصد إلى إيجاده ، فثبت أن المؤثر في العالم فعَّال درَّاك ، ولا معنى للحي إلا ذاك ؛ فثبت أنه سبحانه حي ، فلهذا قال : ﴿ الحي القيوم ﴾ دل بقوله (الحي) على كونه عالماً ، قادراً ، وبقوله (القيوم) على كونه قائماً بذاته ، مقوِّماً لغيره ، ومن هذين الأصلين تتشعب جميع المسائل المعتبرة في علم التوحيد .

واعلم أنه لما ثبت كونه سبحانه قيوماً فهذه القيومية لها لوازم .

اللازمة الأولى : إن واجب الوجود واحد ، بمعنى أن ماهيته غير مركبة من الأجزاء ، إذ لو كان مركباً لكان مفتقراً إلى كل واحد من تلك الأجزاء ، وكل واحد من أجزائه غيره ، وكل مركب فهو متقوم بغيره ، والمتقوم بغيره لا يكون متقوماً بذاته ، ولا هو مقوماً لكل ما سواه ، فلم يكن قيوماً على الاطلاق ؛ فإذا ثبت أنه تعالى فرد في ذاته ، فهذه الفردانية لها لازمان .

أحدهما : أنه ليس في الوجود شيئان يصدق على كل واحد منهما أنه

واجب لذاته ، وإلا لاشتركا في الوجوب الذاتي ، وتباينا بالتعين ، فتقع الكثرة في ذات كل واحد منهما .

والثاني : أنه تعالى لما كان فرداً امتنع أن يكون متحيزاً ، لأن كل متحيز فهو منقسم بالقسمة المقدارية عند قوم ، وبالقسمة العقلية عند الكل ، لأنه يشارك المتحيزات في كونها متحيزة ، ويمايزها بخصوصية ، فيحصل التركيب في الماهية ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في الجهة البتة .

اللازمة الثانية : من لوازم القيومية : أن لا يكون في محل ، لا عرضاً في موضوع ، ولا صورة في مادة ، لأن الحال مفتقر إلى المحل ، والقيوم غير مفتقر .

اللازمة الثالثة : قال بعض المحققين : لا معنى للعلم إلا حضور حقيقة المعلوم عند العالم ، فإذا كان قيوماً كان قائماً بنفسه ، فكانت حقيقته حاضرة عنده ، وكان عالماً بذاته ، وذاته مؤثرة في غيره ، فيعلم من ذاته كونه مؤثراً في غيره فيعلم غيره ، وهكذا يعلم جميع الموجودات على التركيب النازل من عنده طولاً وعرضاً .

اللازمة الرابعة : لما كان قيوماً بالنسبة إلى كل ما سواه كان كل ما سواه متقوماً به ، أي موجوداً بإيجاده ، فإفتقار ما سواه إليه لا يمكن أن يكون حال البقاء ، وإلا لزم إيجاد الموجود ، فلم يبق إلا أن يكون إما حال الحدوث ، أو حال العدم ، وعلى التقديرين فكل ما سواه محدث .

اللازمة الخامسة : لما كان قيوماً بالنسبة إلى كل الممكنات إستندت كل الممكنات إليه إما بواسطة أو بغير واسطة ، وعلى التقديرين فيلزم إستناد أفعال العباد إليه ، فكما القول بالقدر لازماً ، فظهر أن قوله الحي القيوم كالينبوع لجميع مباحث العلم الالهي ، فلا جرم بلغت الآيات المشتملة على هذين اللفظين في الشرف إلى المقصد الأقصى .

وإذا عرفت هذا : فالقيوم من حيث إنه يدل على تقومه بذاته يدل على

وجـوده الخاص بـه ، أو على السلب . وهو إستغنـاؤه عن غيـره ، ومن حيث كونه مقوماً لغيره كان من باب الإضافات .

روي عن ابن عباس أنه كان يقول : أعظم أسماء الله : الحي القيوم .

وقال عليّ عليه السلام : لما كان يوم بدر ، قاتلت شيئـاً من القتال ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ أنظر ماذا يصنع ، فإذا هو ساجد يقول : ﴿ يا حي يـا قيوم ﴾ لا يزيد عليه ، ثم رجعت إلى القتال ، ثم جئت وهو يقول ذلك ، فـلا أزال أذهب وأرجع ، وأنظره . لا يزيد على ذلك ، إلى أن فتح الله له .

واعلم أنه من عرف أنه سبحانه هو القائم ، والقيم ، والقيام ، والقيوم ، انقطع قلبه عن الخلق .

قال أبو يزيد : حسبك من التوكل أن لا ترى لنفسـك ناصـراً غيره ، ولا لرزقك خازناً غيره ، ولا لعلمك شاهداً غيره .

القول في تفسير اسمه (الواجد)

هـذا اللفظ غير مـوجود في القـرآن ، لكنه مجمـع عليـه ، وفي تفسيـره وجوه .

الأول : الـواجد : الغني ، قـال عليه الصـلاة والسلام : « ليُّ الـواجـد ظلم » أي مُـطل الغني ظلم ، يقال : وجـد فـلان وجـداً ووِجدة إذا استغنى ، ويرجع حاصله إلى قدرته على تنفيذ المرادات .

والثـاني : أن يكون مـأخوذاً من الـوجود بمعنى العلم ، يقـال : وجدت فلاناً فقيهاً أي علمت كونه كذلك ، قال تعـالى : ﴿ ووجد الله عنـده ﴾[1] أي علمه تعالى ، فعلى هذا يكون بمعنى العلم .

الثالث : الواجـد بمعنى الحزين ، يقـال : وجد فـلاناً واجـداً على كذا

---

(١) النور : ٣٩ .

بيِّن الموجدة وهذا في حق الله تعالى محال ، فيحمل على لازمه وهو إرادة إنزال العقاب بالكفار .

القول في تفسير اسمية (الواحد ـ الأحد)

قال تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾[1] وقال : ﴿ قل هو الله أحد ﴾[2] .

اعلم أن الواحد قد يراد به نفي الكثرة في الذات ، وقد يراد به نفي الضد والند ، أما الواحد بالتفسير الأول فقد ذكروا في تفسيره وجوهاً .

الأول : إنه شيء لا ينقسم ، وإنما قلنا شيء إحترازاً عن المعدوم ، لأن المعدوم لا ينقسم ، وإنما قلنا لا ينقسم إحترازاً عن قولنا رجل واحد ، وذات واحدة ، فإنه يقبل القسمة ، أما الواحد الحقيقي فإنه لا يقبل القسمة بوجه البتة .

وقال الاستاذ أبو إسحق : الواحد هو الشيء ، وحذف عنه قوله لا ينقسم ، قال : لأن الذي هو ينقسم شيئان لا شيء .

الثاني : قال بعضهم : الواحد هو الذي لا يصح فيه الوضع والرفع ، بخلاف قولك إنسان واحد ، فإنك تقول إنسان بلا يد ، ولا رجل ، فيصح رفع شيء منه والحق إحدى الذات .

الثالث : قال بعضهم : الواحد ما لا يكون عدداً ، والعدد ما كان نصف مجموع حاشيتيه ، وأقل العدد إثنان ، وله حاشيتان الواحد والثلاثة ، ومجموعها أربعة ، ونصفها إثنان ، فعلمنا أن الاثنين عدد ، وأما الواحد فليس له حاشية واحدة ، فلم يكن عدداً .

واعلم أن الجوهر الفرد بهذا التفسير واحد حقيقي .

---

(١) البقرة : ١٦٣ .
(٢) الاخلاص : ١ .

فإن قيل : الواحد بهذا التفسير مشعر بأنه أقل القليل كما في الجوهر الفرد ، وذلك يوهم كونه حقيراً ، وهو في حق الله محال .

قلنا : كون الفرد موصوفاً بالصغر والقلة إنما كان من حيث أنه يصح فيه أن يماس ويجاور ، فيعظم ويكثر ، فإذا إنفرد عنها قيل إنه صغير وحقير ، وإذا ماسَّهُ غيره وإتصل به قيل للمجموع إنه كثير ، فثبت أن وصف الجوهر الفرد بالحقارة إنما كان لهذا المعنى ، وهذا المعنى ممتنع الثبوت في حق الله تعالى ، فلا جرم إمتنع وصفه بالصغر والقلة .

واعلم أن نفاة الصفات زعموا أن من أثبت الصفات لله تعالى ، فإنه لا يمكنه أن يقول بوحدانيته ، لأنا إذا حكمنا بقيام الصفات الكثيرة بذات الله ، كان الاله هو المجموع من الذات والصفات ، فكان مركباً من الأشياء الكثيرة ، ويصح فيه أيضاً معنى الوضع والرفع ، مثل أن يقال : قادر وليس بعالم ، وزعموا أن القول بإثبات الصفات الثمانية قول بتاسع تسعة ، وقد قال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾[1] فلما كان القائل بالثلاثة كافراً كان القائل بالثلاثة ثلاث مرات أولى بالكفر .

ومعلوم أن من أثبت ذاتاً واحدة وثمانياً من الصفات فقد قال بالتسعة ، وهي ثلاثة ثلاث مرات ، وقد تقدم هذا الاشكال مع جوابه .

أما الواحد بالتفسير الثاني : فهو أنه ليس في الوجود موجود يساويه في الوجوب الذاتي ، وفي العلم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها وزعم نفاة الصفات أنه تعالى واحد بمعنى أنه ليس في الوجود موجود يساويه في القدم ، والأزلية .

وأما مثبتو الصفات فإنهم أثبتوا موجودات قديمة أزلية ، فهذا ما يتعلق بتفسير الواحد .

أما الأحد : فقال الزجاج ، أصله في اللغة الواحد ، قال الأزهري :

---

(١) المائدة : ٧٣ .

كـأنه ذهب إلى أن يقـال وحد يـوحد فهـو وحد ، كمـا يقال حسن يحسن فهـو حسن ، ثم إنقلب الواو همزة ، فقالوا : أحد ، والواو المفتوحة قد تقلب همزة كمـا تقلب المكسورة والمضمـومـة ، ومنـه امـرأة أسمـاء بمعنى وسمـاء ، من الوسامة .

واعلم أن الفرق بين الواحد والأحد من وجوه .

الأول : أن الـواحـد اسم لمفتتـح العـدد ، فيقـال : واحـد ، وإثنـان ، وثلاثة ، ولا يقال أحد ، إثنان ، ثلاثة .

والثاني : إن أحداً في النفي أعم من واحد ؛ يقال ما في الدار واحـد ؛ بل فيها إثنان ، أما لو قال ما في الدار أحد بل فيها إثنان ؛ كان خطأ .

الثالث : إن لفظ الواحد يمكن جعله وصفاً لأي شيء أريـد ؛ فيصح أن يقال : رجل واحد ، وثوب واحـد . ولا يصح وصف شيء في جـانب الاثبات بـالأحد إلا الله الأحـد ؛ فلا يقـال رجل أحـد ، ولا ثوب أحـد ؛ فكأنـه تعالى استأثر بهذا النعت .

أمـا في جانب النفي ؛ فقـد يذكـر هـذا في غيـر الله فيقـال . مـا رأيت أحداً ؛ الأحد والواحد كالرحمن والرحيم ، قد يحصل فيه المشاركة ، وكذلك الأحد قد إختص به الباري سبحانه ، أما الواحد فحصل فيه المشاركة ، ولهذا السبب لم يـذكر الله سبحـانه لام التعـريف في أحد ، فقـال : ﴿ قـل هـو الله أحد ﴾[1] وذلك لأنه صار نعتاً لله عز وجـل على الخصوص ، فصـار معرفـة ، فاستغنى عن التعريف .

وفيـه وجه آخـر : وهو أن يكـون قولـه ﴿ هو ﴾ مبتـدأ وأحد خبـره ، فله خبران أحدهما قولـه الله ، والآخر قـوله أحـد ؛ والغرض من ذكـرك أحد على سبيل التنكير ، التذكير والتنبيه على كمال الـوحدانيـة ، كقولـه : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾[2] أي على حياة كاملة .

---

(١) الاخلاص : ١

(٢) البقرة : ٩٦ .

قال الأزهري : سئل أحمد بن يحيى عن الآحاد : هل هو جمع الأحد ؟ فقال : معاذ الله ، ليس للأحد جمع ، ولا يبعد أن يقال الآحاد جمع واحد ، كما أن الأشهاد جمع شاهد .

المسألة الثانية قوله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مشتمل على ألفاظ ثلاثة من أسماء الله : وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات السيارين إلى الله .

فالأول : مقام المقربين ، وهو أعلى المقامات ، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى حقائق الأشياء فوجدوا كل ما سوى الحق معدوماً في ذاته ، فلم يبق في الوجود موجود في الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى ، فكان قوله ﴿ هو ﴾ كافياً في حق هذه الطائفة ، لأن المشار إليه لمَّا كان واحداً كانت الاشارة المطلقة لا تكون إشارة إلا إليه ، وهؤلاء هم المقربون .

ثم يليهم أصحاب اليمين ، وهم الذين قالوا الممكنات أيضاً موجودة فلا جرم ، إفتقرت تلك الاشارة إلى مميز ، وذلك المميز هو لفظ (الله) فكان قوله (هو الله) كافياً لهؤلاء .

ثم يليهم أصحاب الشمال ، وهم الذين يجوزون الكثرة في الآله ، فقيل : هو الله أحد لأجل هؤلاء .

وها هنا بحث آخر أعلى مما تقدم ، وهو أن صفات الله إما إضافية ، وإما سلبية . أما الاضافية فكقولنا عالم قادر ، مريد خلاق .

وأما السلبية فكقولنا : ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرض ، والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات ، وثانياً على النوع الثاني ، فقولنا : الله يدل على أكثر الصفات الاضافية ، وقولنا أحد يدل على أكثر الصفات السلبية ، فكان قولنا الله أحد تاماً في ذكر جميع الصفات المعتبرة في الآلهية ، وإنما قلنا إن لفظ الله يدل على الصفات الاضافية ، لأن الله هو الذي يستحق العبادة ، وإستحقاق العبادة لا يكون إلا لمن كان مستبداً بالايجاد والابداع ، وذلك لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة ، والعلم الكامل ، والإرادة النافذة .

أما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية ، لأنا بينا في تفسير لفظ القيوم أنه لمّا كان أحداً في ذاته ، لزم أن لا يكون متحيزاً ، ولا جوهراً ، ولا عرضاً ، ولا يكون ، في المكان والجهة ، وأن لا يكون له ضد ولا ند ، وإذا عرفت هذه الجهة فنقول إنه تعالى أحد في صفاته ، أحد ، في أفعاله ، أحد لا عن أحد غير متجزىء ولا متبعض أحد غير مركب ، ولا مؤلف ، أحد لا يشبهه شيء ، ولا يشبه شيئاً ، أحد غني عن كل أحد ، وأحد فرد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾[1] .

أما الوحيد ، فقد قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾[2] والمفسرون أجمعوا على أن المراد من هذه الآية هو الوليدبن المغيرة ، وقوله : ﴿ وحيداً ﴾ نصب عل الحال ، ثم يحتمل أن يكون حالاً من الخالق ، أو من المخلوق ، فإن جعلناه حالاً من الخالق ففيه وجهان : أحدهما : ذرني وحيداً معه فإني كاف في الانتقام منه .

والثاني : ذرني ومن خلقته وحيداً لم يشركني في خلقه أحد ، فإذا حملنا الآية على هذا الوجه فحينئذ يدل القرآن على تسمية الله بالوحيد ، أما إن جعلناه حالاً من المخلوق فحينئذ يسقط الاستدلال ، ثم نقول إن صح هذا الاسم ففي كونه تعالى وحيداً وجوه .

الأول : أنه سبحانه كان وحده موجوداً في الأزل ، قال عليه الصلاة والسلام « كان الله ولم يكن معه شيء » .

والثاني : أنه وحده مستقل بتدبير الملك ، فالملكوت لا يحتاج في الايجاد والتكوين إلى مادة ، ومُدة ، وآلة ، وعدة .

الثالث : أنه سبحانه متوحد بصفات الجلال ، ونعوت الكمال .

أما التوحيد : فاعلم أنه عبارة عن الحكم بأن الشيء واحد ، والعلم بأن

---

(١) الاخلاص : ٣و٤ .
(٢) المدثر : ١١ .

الشيء واحد . يقال وحدته إذا وصفته بالوحدانية ، كما يقال شجعت فلاناً إذا نسبته إلى الشجاعة .

قال المشايخ : التوحيد ثلاثة : توحيد الحق بالحق . وهو علمه سبحانه بأنه واحد . الثاني توحيد الحق للخلق ، وهو حكمة سبحانه بأن العبد موحد ، والثالث هو توحيد الخلق للحق ، وهو علم العبد وإقراره بأن الله واحد .

واعلم : أن مقام التوحيد مقام يضيق النطق عنه ، لأنك إذا أخبرت عن الحق فهناك مخبر عنه ، ومخبر به ، ومجموعهما فهو ثلاثة لا واحد ، فالعقل يعرفه ولكن النطق لا يصل إليه .

معنى التوحيد : سئل الجنيد عن التوحيد ، فقال : معنى يضمحل فيه الرسوم وتتشوش فيه العلوم ، ويكون الله كما لم يزل .

وقال المنصور المغربي : كنت في صحن جامع المنصور ببغداد ، والحضرمي يتكلم في التوحيد ، فرأيت ملكين في النوم يعرجان إلى السماء ، فقال أحدهما لصاحبه : الذي يقول هذا الرجل عِلم ، والتوحيد غيره .

وقال الجنيد : أشرف كلمة في التوحيد ما قاله الصديق : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

وقال يوسف بن الحسين : من وقع في بحار التوحيد لا يزداد على ممر الأيام إلا ظمأ .

وقال رجل للحسين بن منصور : من الحق ؟ فقال : معلّ الأنام ، ولا يعتل .

وقيل : التوحيد للحق ، والخلق طفيليون .

وقال ابن عطاء : من الناس من يكون في توحيده مكاشفاً بالأفعال ، يرى الحادثات بالله ، ومنهم من هو مكاشف بالحقيقة فيضمحل إحساسه بما سواه ، فهو يشاهد الجميع سراً بسر ، وظاهره موصوف بالتفرقة .

أما الألفاظ فقالوا : الواحد هو الذي تناهى في سؤدده ، فلا شبيه يساميه ولا شريك يساويه ، وقال الشبلي : الواحد هو الذي يكفيك من الكل ، والكل لا يكفيك من الواحد .

وقال الحسين بن منصور : الواحد الذي لا يُعد ، وقيل . الأحد المنفرد بإيجاد المعدومات ، المتوحد بإظهار الخفيات ، وقيل الأحد الذي ليس لوجوده أمد ، ولا يجري عليه حكم أحد ، ولا يعييه خيل ولا مدد .

يحكى أن الشبلي كان جالساً على دكان بعض التجار ؛ فقيل له أتعرف الحساب قال : نعم فألقوا عليه حساباً كثيراً . وكان يقول : هات فلما فرغوا من الاملاء قيل له : كم معك ؟ فقال أحد . فتعجبوا . فقال : وهل كان من الأزل إلى الأبد إلا الأحد الصمد .

القول في تفسير اسمه (الصمد)

قال سبحانه : ﴿ الله الصمد ﴾[1] وفي معناه في اللغة ، وجهان :

الأول : أنه فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ، تقول العرب : بيت مصمود ومصمد إذا قصده الناس في حوائجهم .

وقال الليث : صمدت صمد هذا الأمر ، أي قصدت قصده .

الثاني : أن الصمد هو الذي لا جوف له . وفيه يقال لسداد القارورة : الصماد ، وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة .

قال ابن قتيبة : وعلى هذا التفسير الدال فيه مبدلة من التاء ، وهو الصمت .

وقال بعض متأخري أهل اللغة : الصمد هو الأملس من الحجر الذي لا

(١) الإخلاص : ٢ .

يقبل الغبار ، ولا يدخله شيء ، ولا يخرج منه شيء .

واستدل بعض الجهال بهذه الآية على أنه تعالى جسم ، وهو باطل ، لأنا بينا أن كونه أحداً ينافي كونه جسماً ، فإن صح هذا في اللغة وجب حمله على المجاز ، فإن الجسم الذي يكون كذلك لم يقبل التصرف عن الغير ألبتة ، وذلك إشارة إلى كونه واجب الوجود لذاته ، غير قابل للتبدل لا في وجوده ولا في صفاته ، هذا ما يتعلق بالبحث اللغوي عن هذا الاسم .

واعلم أن الصمد بالتفسير الأول من باب الصفات الإضافية ، وبالثاني من السلبية .

أما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه : بعضها يليق بالوجه الأول ، وهو كونه سيدا مرجوعاً إليه في الحوائج ، وبعضها يليق بالوجه الثاني ، وهو كونه واجب الوجود لذاته ، وبعضها بمجموعهما .

أما الأول : فذكروا وجوهاً منها ، أنه العالم بجميع المعلومات ، لأن كونه سيداً مرجوعاً إليه في الحاجات لا يتم الا بالعلم .

الثاني : الصمد هو الحكيم ، لأن كونه صمداً سيداً يقتضي الحلم والكرم .

الثالث : وهو قول ابن مسعود ، والضحاك ، الصمد هو السيد الذي عظم سؤدده .

الرابع : قال الأصم : الصمد هو الخالق للأشياء ، فإن كونه سيداً يقتضي ذلك .

الخامس : قال السدي : الصمد هو المقصود إليه في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب .

السادس : قال الحسين بن الفضل : الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولاراد لقضائه .

السابع : الصمد : السيد العظيم .

الثامن : أنه الماجد الذي لا يتم أمر إلا به .
التاسع : قال ابن عباس : الصمد الكبير الذي ليس فوقه أحد .

العاشر : قال ابن عباس في رواية علي بن طلحة : الصمد الكامل في كل الصفات ، فيدخل فيه الكمال في العلم والقدرة ، والحكيم والحكمة ، والغني .

الحادي عشر : قال كعب الأحبار : الصمد الذي لا يكافئه من خلقه أحد .

الثاني عشر : الصمد الذي لا يوصف بسعته أحد .

الثالث عشر : قال أبو هريرة : الصمد الذي يحتاج اليه كل أحد ، وهو مستغن عن كل أحد .

الرابع عشر : الصمد الذي تقدس ذاته عن إدراك الأبصار والعيان ، وتنزه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان .

الخامس عشر : الصمد الذي ليس لسؤدده أمد ، ولا لبقائه عدد .
السادس عشر : الصمد الذي تُرفع إليه الحاجات ، وتطلب منه الخيرات .

أما النوع الثاني : وهو تفسير الصمد بالتنزيه ، ففيه وجوه .

الأول : الصمد الغني .
الثاني : الصمد الذي ليس فوقه أحد ، ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾[1]
الثالث : الذي لا يأكل ولا يشرب ، ﴿ وهو يُطعِم ولا يُطعَم ﴾[2]
الرابع : الباقي بعد فناء خلقه ﴿ كل من عليها فان ﴾[3] .

الخامس : قال الحسن : الصمد الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز

---

(١) الأنعام : ١٨ .
(٢) الأنعام : ١٤ .
(٣) الرحمن ٢٦ .

عليه الزوال، كان ولا مكان ، ولا أين ولا أوان ، ولا عرش ولا كرسي ، ولا جِني ولا إنسي ، وهو الآن كما كان .

السادس : قال أبي بن كعب : الذي لا يموت ولا يُورث ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾[1] .

السابع : قال سنان ، وأبو مالك : الذي لا ينام ، ولا يسهو ، ولا يغفل ، ولا يلهو .

الثامن : قال الأصم : الصمد الذي لا يتصف بصفة أحد ، ولا يتصف بصفته أحد .

التاسع : قال مقاتل : المنزه عن كل عيب ، المطلع على كل غيب .

العاشر : قال الربيع بن أنس : المقدس عن الآفات ، المنزه عن المخافات .

الحادي عشر : قال سعيد بن جبير : الكامل في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

الثاني عشر : قال جعفر الصادق رضي الله عنه : الذي يَغلب ولا يُغلب .

الثالث عشر : قال أبو بكر الوراق . الذي أيس الخلق من الاطلاع على كنه عزته ، وعجزت العقول عن الوصول إلى سر حكمته .

. الرابع عشر : هو الذي لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

الخامس عشر : قال أبو العالية ، ومحمد العرضي : هو الذي تنزه عن الحدوث والزوال ، لأن كل من له ولد فإنه سيورث ، وكل من ولد فإنه يموت .

السادس عشر : أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات ، وعن

---

(١) آل عمران : ١٨٠ .

التغيرات والتبدلات ، وعن الأزمنة والأوقات ، والساعات ، وعن الأمكنة والإحياز والجهات .

السابع عشر : الصمد هو الأول بلا ابتداء ، والباقي بلا انتهاء .

الثامن عشر : قال محمد بن علي الترمذي : الصمد الذي لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأفكار ، ولا تبلغه الأخطار ، وكل شيء عنده بمقدار .

واعلم أن كل ما ذكرناه من صفات الله باللفظ إن كان محتملاً لها ، وجب حمله على الكل .

القول في تفسير اسميه (القادر - المقتدر)

قال تعالى ﴿ قل هو القادر ﴾[1] وهو مشتق من القدرة ، يقال . قدر يقدر قدرة ، فهو قادر ، وقد يجيء بمعنى المقدّر ، يقال قدرت الشيء وقدرته بمعنى واحد ، قال تعالى . ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾[2] أي قدرنا فنعم المقدرون ، وعليه تأويل قوله ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾[3] أي لن نقدر عليه الخطيئة والعقوبة إذ لا يجوز على نبي الله أن يظن عدم قدرة الله في حال من الأحوال .

واعلم أن من الألفاظ المجانسة للقادر لفظين . أحدهما : القدير ، ولم يرد هذا في الأسماء التسعة والتسعين . ولكنه ورد في القرآن ، قال . ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾[4] وهو مبالغة من القادر ، كالعليم من العالم .

والثاني المقتدر ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾[5] ، ﴿ في مقعد

---

(١) الأنعام : ٦٥ .
(٢) المرسلات : ٢٣ .
(٣) الأنبياء : ٨٧ .
(٤) المائدة : ١٢٠ .
(٥) الكهف : ٤٥ .

صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] ووزنه مفتعل ، وهو دال على المبالغة بدليل قوله ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[2] خص الكسب بالخير ، والاكتساب بالشر ، والشر يكون ممنوعاً عنه بالزواجر العقلية والشرعية ، فلا يدخل في الوجود إلا عند شدة القدرة ، فظهر أن المقتدر أبلغ من القادر .

القول في تفسير اسميه (المقدم - المؤخر)

إعلم أن التقدم والتأخر قد يكون ذاتياً ، وقد يكون وضعياً ، أما الذاتي فقسمان : تقدم العلة على المعلول ، كتقدم حركة الإصبع على حركة الخاتم ، وتقدم الشرط على المشروط كتقدم الحياة على العلم ، والواحد على الاثنين ، أما الوضعي فهو أقسام ثلاثة :

أحدها : التقدم الزماني ، كتقدم أفعال الله بعضها بعضاً ، وذلك إنما يحصل بترجيح إرادته ، فلو أنها خصصت وجود البعض بالزمان المتقدم ، ووجود البعض بالزمان المتأخر ، وإلا لم يكن المتقدم بكونه متقدماً أولى من أن يكون متأخراً .

وثانيها : التقدم المكاني : مثل كون السماء فوق والأرض تحت ، وهذا أيضاً مما يحصل بإرادة الله تعالى ، لما ثبت أن الأجسام متماثلة فيصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر ، وكما يعقل كون السماء فوق والأرض تحت ، يعقل أن ينعكس الأمر .

وثالثها : التقدم بالشرف . مثل أنه سبحانه وتعالى جعل البعض مشرفاً بإعطاء العلم ، والطاعة ، والتوفيق ، وجعل البعض مخذولاً مؤخراً عن هذه الدرجات ، ورفع محمدا عليه الصلاة والسلام إلى أعلى الدرجات ، فقال . ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[3] وجعل أبا جهل ، وأبا لهب في أسفل الدركات ،

---

(١) القمر : ٥٥ .

(٢) البقرة : ٢٧٦ .

(٣) الانشراح : ٤ .

فهذان طرفان ظاهران وبينهما أوساط متباينة .

فأشرف الأشياء محمد ﷺ وبعده درجات أولي العزم ، وبعدهم سائر الأنبياء ، وبعدهم الأولياء ، ودرجاتهم متأخرة على الإطلاق عن درجات الأنبياء ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر : ﴿ هذان سيدا كهول أهل الجنة ما خلا النبيين والمرسلين ﴾ الحديث . فهذا يقتضي تفضيلهما على سائر الأولياء ، وقوله ﴿ ما خلا النبيين ﴾ يقتضي أن لا يكون أحد أفضل من الأنبياء وإذا كان كذلك لزم القطع بأن كل الأنبياء أفضل من كل الأولياء .

فأما بيان درجات الأولياء فصعب ، وأظهر الآيات في بيان ذلك قوله : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾[1] فيشبه أن يكون ترتيب الأولياء في درجات الفضيلة بحسب ما في هذه الآية من الترتيب .

واعلم أن حصول التفاوت في هذه الدرجات ليس إلا من الله ، وبيانه من وجوه .

الأول : قوله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[2]

الثاني : أن الشخصين اللذين أقدم أحدهما على الطاعات ، والآخر على المحظورات ، ما لم يحصل في قلب أحدهما إرادة فعل الطاعة ، وفي قلب الآخر إرادة فعل المعصية ، لم يصر أحدهما مقبلاً على الطاعة ، معرضاً عن المعصية ، والآخر بالعكس ثم حصول تلك الإرادة إن كان لأجل المزاج المخصوص فخالق ذلك المزاج هو الذي حمل صاحبه على ذلك الفعل ، وإن كان لا لأجل المزاج ، بل لأجل أن الخالق خلق تلك الإرادة ابتداء في قلبه ، فخالق الإرادة هو الذي حمله على ذلك الفعل .

---

(١) النساء : ٦٩ .

(٢) القصص : ٥٦ .

الثالث : أنه تعالى وصف ضلال بعضهم ، فقال : ﴿ ولو رُدوا لعادوا لما نهُوا عنه ﴾[1] بين أنهم كالمجبورين على الضلال ، ووصف هداية البغض ، فقال . ﴿ كأنها كوكب درى ﴾[2] إلى قوله . ﴿ نور على نور ﴾[3] .

فإن قلت : إن هذا التفاوت إنما يحصل بسبب التفاوت في الاستحقاق .

قلت : فمن أين حصل التفاوت في الاستحقاق ؟!

وبالجملة فلا بد من انتهاء أواخر هذا البحث إلى أحد أمرين . إما حصول الترجيح لا لمرجح ، وهو يقتضي نفي الصانع ، أو استناد الأمور كلها إلى الله تعالى . وذلك هو قولنا الله سبحانه ، هو المقدم. المؤخر .

الرابع : قال ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾[4] وهذا صريح في بيان التقديم والتأخير في المراتب والدرجات من الله .

فإن قيل : ظاهر قوله ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾[5] يقتضي كون التقدم والتأخر مضافاً إليهم ؟

قلنا : هذا من جنس قوله ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[6] ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾[7] .

أما حظ العبد من هذا الأسم فهو : أن يقدم الأهم فالأهم ، والقانون فيه قول الرسول ﷺ ﴿ كن في الدنيا كأنك تعيش أبدا ، وفي الآخرة كأنك تموت غداً ﴾ وذلك لأن على التقدير الأول يؤخر مهمات الدنيا كل يوم إلى آخر ،

---

(١) الأنعام : ٢٨ .
(٢) النور : ٣٥ .
(٣) النور : ٣٥ .
(٤) الأنعام : ١٦٥ .
(٥) الحجر : ٢٤ .
(٦) الصف : ٥ .
(٧) التوبة : ١٢٧ .

ولا تؤخر مهمات الآخرة ألبتة حذراً من الفوات .

واعلم أن من عرف أن المقدم والمؤخر هو الله لم يكن له أمان ، بسبب كثرة الطاعات ، ولا يأس بسبب كثرة المعاصي والسيئات ، فرب إنسان كان في الظاهر من المطرودين ، ثم ظهر أنه كان من المقربين وبالعكس .

كان ببغداد رجل صالح ، أذّن خمس عشرة سنة ، ثم صعد المنارة ، فوقع بصره على نصرانية فعشقها ، ثم دخل عليها فأبت إلا أن يشرب الخمر ، ويأكل الخنزير ، فلما سكر عدا خلفها ، فانزلق رجله وسقط من السطح ، ومات .

أما المشايخ فقالوا : المقدم الذي قدم من شاء بالتقوى والإنابة ، والصدق والاستجابة وأخر من شاء عن معرفته ، ورده إلى حوله وقوته .

وقيل : المقدم الذي قدم الأحباء بخدمته ، وعصمهم عن معصيته .
وقيل : المقدم الذي قدم الأبرار بفنون المبار ، وأخر الفجار وشغلهم بالأغيار .

القول في تفسير أسمائه
الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن

سمعت شيخي ، ووالدي رحمه الله يقول : لما أنزل الله هذه الآية ، أقبل المشركون على المدينة ، وسجدوا .

ولأرباب الإشارات في هذه الآية عبارات .

أحدها : الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، والظاهر بلا احتذاء ، الباطن بلا اختفاء .

وثانيها : الأول بعرفان القلوب ، والآخر بستر العيوب ، والظاهر بإزالة الكروب ، والباطن بغفران الذنوب .

الثالث : الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء والظاهر بالقدرة على كل شيء ، والباطن العالم بحقيقة كل شيء .

الرابع : الأول قبل كل شيء بالقدم والأزلية ، والآخر بعد كل شيء بالأبدية والسرمدية ، والظاهر لكل شيء بالدلائل اليقينية والباطن عن مناسبة الجسمية ، والأينية والكمية .

الخامس : الأول بالإيجاد والتخليق ، والآخر بالهداية والتوفيق ، والظاهر بالإعانة والترزيق ، والباطن لأنه مكون الأكوان في التحقيق .

السادس : الأول مبدي كل أول ، والآخر مؤخر كل آخر ، والظاهر مظهر كل ظاهر ، والباطن مبطن كل باطن .

السابع : الأول بعلم الأزلية ، والآخر بالحكم في الأبدية والظاهر بالحجة على البرية ، والباطن لكونه منزهاً عن الكيفية .

الثامن : الأول بالذات ، والآخر بالصفات ، والظاهر بالآيات ، والباطن عن التوهمات والتخيلات .

التاسع : الأول بالوجوب والقدم ، والآخر بالتنزيه عن الفناء والعدم ، والظاهر بلا رؤ ية ، والباطن بلا روية .

العاشر : الأول بالنزول من المبادىء إلى الغايات ، والآخر بالعروج من الأواخر إلى اوائل الدرجات ، والظاهر بالدلائل والبينات ، والباطن عن مشابهة المعقولات والمحسوسات .

الحادي عشر : الأول بالإيمان ، والآخر بالرضوان ، والظاهر بالإحسان ، والباطن بالامتنان .

الثاني عشر : الأول بالعدل ، والآخر بالطول ، والظاهر بالفعل ، والباطن بالفضل .

الثالث عشر : قال مجاهد الاول بلا تدبير أحد ، الآخر بلا تأخير أحد

الظاهر بلا تقوية أحد ، الباطن بلا خوف أحد .

الرابع عشر : الأول بالخلق ، والآخر بالرزق ، والظاهر بالإحياء ، والباطن بالإماتة ، دليله : ﴿ هو الذي خلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾[1] .

الخامس عشر : الأول بلا مطلع ، والآخر بلا مقطع ، والظاهر بلا اقتراب ، والباطن بلا احتجاب .

السادس عشر : الأول بالأزلية ، والآخر بالأبدية ، والظاهر بالأجدية ، والباطن بالصمدية .

السابع عشر : قال محمد بن علي الترمذي . الأول بالتأليف والآخر بالتكليف ، والظاهر بالتصريف ، والباطن بالتعريف .

الثامن عشر : الأول بالتكوين ، والآخر بالتلقين ، والظاهر بالتبيين ، والباطن بالتزيين .

التاسع عشر : بيانه بأربع آيات ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[2] وقوله . ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾[3] وقوله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾[4] وقوله ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾[5] .

العشرون : الأول الذي ابتدأ بالإحسان ، والآخر الذي تفضل بجميل الغفران والظاهر بدلائله وأفعاله ، والباطن بلطفه وجماله .

الحادي والعشرون : الأول بالهداية ، والآخر بالرعاية ، والظاهر بالكفاية ، والباطن بالعناية .

---

(١) الروم : ٤٠ .
(٢) النحل : ٤٠ .
(٣) إبراهيم : ٢٧ .
(٤) النساء : ٢٦ .
(٥) الحجرات : ٧ .

الثـاني والعشرون : الأول لمحبتـه السابقـة لأوليـائـه ، والآخـر بغضبـه السابق على أعدائه ، والظاهر بتجليه في الدنيا لقلوب أصفيـائه ، والبـاطن في رؤ يته في العقبى بحجب أعدائه .

الثـالث والعشرون : الأول بحسن تعـريفه ، والآخـر بنصـره وتـأييـده ، والظاهر بنعمته ، والباطن برحمته .

الـرابع والعشـرون : الأول بـالإسعـاد ، والآخـر بـالإمـداد ، والـظاهـر بـالإيجاد ، والبـاطن بالإرشـاد ، قال تعـالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمـه ظـاهـرة وباطنة ﴾[1] فالظاهر مشرق بآثار نعمته ، والباطن مضيء بأنوار معرفته .

واعلم أن السؤ ال يقع عن الأشياء من وجوه .

الأول : هل هو؟ فأجابهم بالآيات الـدالة على وجـوده ، والقرآن مملوء منه ، مثل دليل الخليل عليـه السلام : ﴿ ربي الـذي يحي ويميت ﴾[2] ودليل الكليم عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبـائكم الأولين ﴾[3] ﴿ ربنا الـذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[4] .

وثـانيهـا : كيف هـو؟ فـأجـاب بـأن كيفيتـه نفي الكيفيـة ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[5] .

وثالثها : ما هو؟ كما سأل فرعون ﴿ وما رب العالمين ﴾[6] فقال موسى : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[7] يعني لا سبيل إلى معرفته بالماهية ، وإنما السبيل إلى معرفته بذكر الدلائل على وجوده ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته .

---

(١) لقمان : ٢٠ .
(٢) البقرة : ٢٥٨ .
(٣) الشعراء : ٢٦ .
(٤) طه : ٥٠ .
(٥) الشورى : ١١ .
(٦) الشعراء : ٢٣ .
(٧) الشعراء : ٢٦ .

ورابعها : أن يقال كم هو ! فأجابهم بقوله ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾[1] ﴿ قل هو الله أحد ﴾[2] ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[3] .

وخامسها : أن يقال أين هو؟ فأجاب بقوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾[4] وبقوله : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾[5] وبقوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[6] وكأن ذلك إشارة إلى الفوقية بالقدرة والقهر ، والاستعلاء لا بالمكان والجهة .

وسادسها : أن يقال لم كان موجوداً ؟ ولم كان عالماً وقادراً ؟ ولم فعل بعد أن لم يكن فاعلاً ؟

فأجاب عنه بقوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[7] برهان صدق هذه القضية أن الممكنات لا بد من انتهائها إلى الواجب بذاته ، الممتنع تعليله ، فاستحال تطرق التعليل لذاته وصفاته وأفعاله .

وسابعها : أن يقال أي شيء هو؟ فأجاب بقوله ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾[8] وذلك لأن السؤال بكلمة أي يتناول الشيء الذي يشاركه غيره في ذاته من بعض الوجوه ، والحق سبحانه لا يشاركه شيء في حقيقة الذات ، ولا في جلالة الصفات ، وهو المراد من قوله : ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ أي هل تعلم شيئاً يشابهه في الذات والصفات حتى تفتقر إلى وصف تميزه عن ذلك المشابه والمشارك .

وثامنها : أن يقال متى كان ؟ فأجاب بقوله ﴿ هو الأول والآخر والظاهر

---

(١) البقرة : ١٦٣ .
(٢) الإخلاص : ١ .
(٣) الأنبياء : ٢٢ .
(٤) الأنعام : ٦١ .
(٥) النحل : ٥٠ .
(٦) طه : ٥ .
(٧) الأنبياء : ٢٣ .
(٨) مريم : ٦٥ .

والباطن ﴾[1] ذلك لأن كل من يتناوله سؤال متى كان وجوده مخصوصاً بذلك الزمان ، فكان مسبوقاً بعدم ، وكان ذلك العدم سابقاً عليه ، وهو سبحانه ليس له أول ، بل هو أول كل شيء ، وليس له آخر ، بل هو آخر كل شيء ، وكان دوامه منزها عن الزمان ، وبقاؤه مقدساً عن قولنا كان ويكون ، لأن كل ذلك من صفات من كان منعوتاً بالحدوث والإمكان ، وذلك لا يليق بسرمديته .

ومما يشبه هذه الآيات في الأزلية والأبدية قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[2] فإنه منزه عن الهلاك والعدم في الماضي والمستقبل ، وقال : ﴿ كل من عليها فإن . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[3] وقال : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾[4] وذلك أن تبارك مشتق من برك وهو الثبات ، فدلت هذه الآية على أنه دائم الوجود أزلاً وأبداً .

وتاسعها : أنهم سألوه عن ملكه فقال : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾[5] أي كل ملك سوى ملكه فتهليكه حصل ، وقال : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ ، وقال ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾[6] ثم بيّن أن هذه الأوهام تزول يوم القيامة ، بقوله ﴿ لمن الملك اليوم . . لله الواحد القهار ﴾[7] .

وعاشرها : سألوه عن علمه فقال ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾[8] وقال : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[9] ثم نفى عن نفسه أضداد العلم ، فمنها النوم فقال . ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾[10]ومنها النسيان ، فقال : ﴿ وما

---

(1) الحديد : ٣ .
(2) القصص : ٨٨ .
(3) الرحمن : ٢٦ و٢٧ .
(4) الملك : ١ .
(5) آل عمران : ٢٦ .
(6) يس : ٨٣ .
(7) غافر : ١٦ .
(8) الأنعام : ٧٣ .
(9) الأنعام : ٥٩ .
(10) البقرة : ٢٥٥ .

كان ربك نسياً ﴾[1] . ومنها أن يشتغل بشيء عن شيء ، فقال : لا يشغله شان عن شان .

الحادي عشر : سألوه عن كلامه فقال . ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾[2] الآية ، وقال : ﴿ لو كان البحر مداداً ﴾[3] الآية .

الثاني عشر : سألوه عن كيفيته فقال : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ وقال : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[4] .

الثالث عشر : سألوه عن أسمائه فقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[5] . ثم فصل ، فقال : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾[6] ثم ذكر الأسماء والصفات في آيات آخر الحشر[7] .

الرابع عشر : سألوه عن حقيقته المخصوصة ، وعن كنه صمديته ، فقال : ﴿ الظاهر والباطن ﴾[8] يعني أنه ظاهر الوجود ، والقدرة ، والحكمة بحسن الدلائل ، باطن عن العقول بحسن حقيقته المخصوصة ، وكنه صمديته ، هذا هو البحث المشترك في هذه الصفات الأربع ، أما الذي يخص كل واحد منها فنقول :

أما الأول : فهو القديم الأزلي الذي لا يسبقه عدم ألبتة ، وهذا فيه سؤال وهو أن وجود الباري ، ووجود العالم ، إما أن يكونا معاً أو يكون وجود الباري سابقاً على وجود العالم ، فإن كان الأول لزم إما قدم العالم وإما حدوث الباري تعالى ، وهما محالان ، وإن كان الثاني فالباريء تعالى إن كان

---

(١) مريم : ٦٤ .
(٢) لقمان : ٢٧ .
(٣) الكهف : ١٠٩ .
(٤) الانفطار : ١٩ .
(٥) الأعراف : ١٨٠ .
(٦) الاسراء : ١١٠ .
(٧) الحشر : ٢٢ و٢٣ و٢٤ .
(٨) الحديد : ٣ .

متقدماً على العالم بمدة متناهية لزم حدوث الباري ، وإن كان بمدة غير متناهية لم يكن لتلك المدة أول ، فحينئذ يكون الزمان قديماً ، وذلك محال .

والجواب : أن تقدم الأمس على اليوم ليس بالزمان ، وإلا لزم كون الزمان زمانياً ، وكما عقلنا تقدم الأمس على اليوم لا بالزمان فليعقل تقدم الباريء على العالم لا بالزمان ، وقد اندفع هذا السؤال .

وأما الآخر فزعم جهم بن صفوان : أن الله تعالى يوصل الثواب إلى أهل الثواب ، ويوصل العقاب إلى أهل العقاب ، ثم إنه بعد ذلك يفني الجنة وأهلها ، ويفني النار وأهلها ولا يبقى مع الله شيء ، فكما أنه كان موجوداً في الأزل ولا شيء معه ، فكذلك يبقى في الأبد موجوداً ، ولا شيء معه ، واحتج عليه بوجوه .

الأول قوله ﴿ هو الأول والآخر ﴾[1] هو تعالى إنما كان أولاً . لأنه كان موجوداً ولا شيء معه ، فكذا إنما يكون آخراً إذا بقي في ما لا يزال ، ولا شيء معه .

الثاني : قوله ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾[2] قدر خلودها لدوام السموات والأرض ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ وهذا الدوام متناه ، فوجب أن يكون بقاء الجنة والنار متناهياً .

الثالث : أنه إن لم يعلم عدد حركات أهل الجنة ، وأهل النار . فهذا تجهيل للرب ، وإن علم عددها كان متناهياً .

الرابع : أن الحوادث المستقبلة يتطرق اليها التفاوت في العدد ، وكل ما كان كذلك فهو متناه .

واعلم أن الجمهور الأعظم من أهل الدين اتفقوا على بقاء الجنة والنار ، واحتجوا عليه أن بقاءهما ممكن ، والسمع ورد به ، فوجب القطع

---

(١) الحديد : ٣ .

(٢) هود : ١٠٧ .

بالبقاء ، أما بيان الإمكان فلأنه لو لم يبق ممكناً لزم انقلاب الممكن لذاته ممتنعاً لذاته ، وهو محال ، أما أن السمع ورد به فلو ورد لفظ الخلود والتأييد في صفة الجنة والنار في القرآن .

أما الجواب : عن الشبهة الأولى فنقول : وصفه تعالى بأنه آخر ، يحتمل وجوها .

الأول : أنه يفني جميع العالم ، فتتحقق الآخرية بهذا القدر ، ثم إنه يوجد الجنة أو النار ويبقيهما أبداً .

الثاني : أنه يصح أن يكون تعالى آخرا لكل الأشياء ، وما سواه لا يصح هذا المعنى فيه ، فكان المراد بكونه آخراً ذلك .

الثالث : أنه سبحانه وتعالى أول في الوجود ، آخر في الاستدلال .

الرابع : أنه يميت الخلق ويبقى بعد فنائهم ، فهو آخر بهذا الوجه .

أما الجواب عن الثانية هو : أن قوله ﴿ ما دامت السموات ﴾[1] خرج على وفق المتعارف ، فإن أحداً لا يتوقع للسموات والأرض للملكوت عدماً ولا فناء .

أما الجواب عن الثالثة : فهو أنه سبحانه وتعالى يعلم أنه ليس لحركات أهل الجنة عدد معين ، وهذا لا يكون جهلاً ، لأنه لما لم يكن له في نفسه عدد معين ، وكل من علمه كذلك فقد علمه كما هو ، فلا يكون جهلاً .

أما الجواب عن الرابعة فهو : أن الخارج من تلك الحركات أبداً إلى الوجود يكون متناهياً .

أما الظاهر : فهو يحتمل في حقه تعالى وجوهاً .

الأول : أن يكون بمعنى الغالب لخلقه ، يقال : ظهرت على فلان إذا غلبته وقهرته . ومنه قولنا : ظهرنا على الدار إذا غلبنا .

---

(١) هود : ١٠٧ .

الثاني : أنه العالم بما ظهر ، وكذا الباطن العالم بما بطن ، ومنه يقال : ظهرت على سر فلان إذا اطلعت عليه .

الثالث : أنه تعالى ظاهر لكثرة البزاهين الباهرة ، والدلائل النيرة على وجود الهيبة .

فإن قيل : الظاهر هو الذي لا يقع في وجوده الشكوك والشبهات ، وقد وقع الريب الكثير لأكثر الخلق في وجوده ، فكيف يكون ظاهراً .

فالجواب : قال الغزالي إنما خفي لشدة ظهوره ونوره ، وهو حجاب نوره ، وهذا الكلام لا يفهم إلا بمثال ، فنقول لو نظرت إلى كلمة كتبها كاتب لاستدللت بها على كون ذلك الكاتب عالماً ، ولا تشك ألبتة في ذلك ، ثم كما تشهد هذه الكلمة المكتوبة شهادة قاطعة على كون الكاتب حياً عالماً قادراً ، فكذلك ما من موجود في السموات والأرض كبير ولا صغير ، من ملك ، وكوكب ، وشمس وقمر ، وحيوان ، ونبات ، إلا وهو شاهد بكونه محتاجاً إلى مدبر يدبره ، ومقدر يقدره ومخصص يخصصه بصفاته المعينة ، وأحيازه المعينة ، فلما كانت كتابة الكلمة الواحدة دالة على ذات الكاتب وصفاته ، فهذه الدلائل التي لا نهاية لها أولى بالدلالة .

أما الباطن فهو في حقه تعالى يحتمل وجوهاً .

الأول : أن كمال كونه ظاهراً صار سبباً لكونه باطناً ، لأن الشمس لو وقفت فوق الفلك لما كنا نعرف أن هذا الضوء حصل بسببها ، بل ربما كنا نظن أن الأشياء مضيئة لذواتها ، لكنها لما غربت فزالت الأنوار عند غروبها عرفنا أن الأنوار فاضت عن الشمس ، فها هنا لو أمكن انقطاع تأثير وجود الله تعالى عن هذه الممكنات لظهر حينئذ أن وجود هذه الممكنات من وجود الله تعالى . لكن انقطاع ذلك الوجود محال . فصار كماله ودوامه سبباً لوقوع الشبهة . وهو المراد من قول بعض المحققين : سبحان من اختفى عن العقول بشدة ظهوره . واحتجب عنها بكمال نوره .

الثاني : أنه تعالى باطن من حيث إن كنه حقيقته غير معلوم للخلق .

الثالث : باطن بمعنى أن الأبصار لا تحيط به . كما قال : لا تدركه الأبصار ﴾[1]

الرابع : أنه ظاهر بمعنى أنه يعلم ما ظهر ، وباطن بمعنى أنه يعلم ما بطن .

الخامس : أنه باطن بمعنى أنه حجب الكافر عن معرفته ورؤيته . وحجب المؤمنين في الدنيا عن رؤيته . وذلك يعود إلى صفات الفعل .

القول في تفسير اسمه (الوالي)

هذا الاسم لم يرد في القرآن . ومعناه : المالك للأشياء . المستولي عليها المتصرف بمشيئته فيها . ينفذ فيها أمره . ويجري عليها حكمه . وقد تقدم تفسيره في الولي .

القول في تفسير اسمه (المتعال)

هو بمعنى العلي ، مع نوع من المبالغة . وقد سبق معناه .

القول في تفسير اسمه (البر)

قال سبحانه ﴿ إنه هو البَرّ الرحيم ﴾[2] وقال في وصف يحيى عليه السلام ﴿ وبراً بوالديه ﴾[3] وفي صفة عيسى عليه السلام ﴿ وبراً بوالدتي ﴾[4] والبر والبار بمعنى واحد ، وهو المحسن .

---

(١) الأنعام : ١٠٣ .
(٢) الطور : ٢٨ .
(٣) مريم : ١٤ .
(٤) مريم : ٣٢ .

إذا عرفت هذا فنقول بر الله تعالى بعباده إحسانه إليهم ، وهو إما في الدنيا أو الدين ، أما في الدين ، فإما بالإيمان والطاعة ، أو بإعطاء الثواب على كل ذلك .

وأما في الدنيا فما قسم من الصحة والقوة ، والمال والجاه ، والأولاد والأنصار من نعمه ما هو معلوم بالجنس ، وخارج عن الحصر ، بحسب النوع ، كما قال ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[1] .

أما حظ العبد من هذا الاسم : فهو أن يكون مشتغلاً بأعمال البر ، والله تعالى جمع أقسامه في قوله : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾[2] الآية ، ومن شرط البر بذل الأحسن ، قال تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[3] وأحسن أنواع البر مع الأبوين ، كما ذكره في حق عيسى ويحيى عليهما السلام .

قال نافع : اشتهى ابن عمر لما نقه من مرضه سمكة ، فطلبتها بالمدينة فما وجدتها ثم وجدتها بعد مدة فاشتريتها ، وشويتها ، ووضعتها بين يديه على رغيف ، وقدمتها إليه ، فجاء سائل في الحال فقال : خذ الرغيف مع السمكة وادفعه للسائل ، فدفعته له ، ثم قلت له : اشتريت هذه السمكة بدرهم ونصف ، فخذ هذا القدر وادفع هذه السمكة إلينا ، فأخذه ودفعها إلينا ، فوضعتها عند ابن عمر ، فجاء ذلك السائل مرة أخرى ، فقال : اعطه الرغيف والسمكة ولا تأخذ منه الدرهم ، فإني سمعت النبي ﷺ يقول : أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر غيره على نفسه غفر الله له .

أما المشايخ فقالوا : البر هو الذي منَّ على المريدين بكشف طريقه ، وعلى العابدين بفضله وتوفيقه .

وقيل : البر الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان .

---

(١) النحل : ١٨ ، إبراهيم : ٣٤ .

(٢) البقرة : ١٧٧ .

(٣) آل عمران : ٩٢ .

قيل : لما أراد موسى فراق الخضر عليهما السلام ، قال : أوصني فقال : كن نفاعاً ولا تكن دفاعاً ، وارجع عن اللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تعير أحداً على خطيئته ، وابك على خطيئتك .

وعن ابن عمر قال : سمعت النبي ﷺ قال : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا ينام وكما تُدِين تُدان وكما تزرع تحصد » ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ﴾[1] .

القول في تفسير اسمه التواب

قال تعالى : ﴿ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[2] وقال : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾[3] وقال : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾[4] وفي تفسيره وجوه .

الأول : يقال تاب وآب وأناب أي رجع ، فمعنى التواب في وصف الله تعالى كونه عائداً بأصناف إحسانه على عباده ، وذلك بأن يوفقهم بعد الخذلان ، ويعطيهم بعد الحرمان ، ويخفف عنهم بعد التشديد ، ويعفو عنهم بعد الوعيد ، ويكشف عنهم أنواع البلاء ، ويفيض عليهم أقسام الآلاء ، فهو تعالى ناسخ المكروه بالمحبوب ، وقابل التوبة من الذنوب ، وكاشف الضر عن المكروب .

وبالجملة فالتوبة في حق العبد عبارة عن عودة إلى الخدمة والعبودية ، وفي حق الرب عبارة عن عودة إلى الإحسان اللائق بالربوبية .

الثاني : قال الخطابي التوبة تكون لازماً ومتعدياً ، يقال تاب الله على

---

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) البقرة : ٣٧ .
(٣) النساء : ٢٧ .
(٤) الشورى : ٢٥ .

العبد بمعنى أنه وفقه للتوبة حتى تاب ، قال تعالى : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ فكونه تواباً معناه المبالغة في توفيقه عبيده للطاعات .

الثالث : توبة الله على العبد عبارة عن قبول توبة العبد ، وهو من باب تسمية الشيء باسم بعض علائقه .

وأما حظ العبد من ذلك فهو : أن من قبل معاذير المجرمين من رعاياه ، وأصدقائه ، ومعارفه ، مرة بعد أخرى ، فقد تخلق بهذا الخلق .

أما المشايخ فقالوا : التواب الذي قابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذار بالاغتفار ، والإنابة بالإجابة ، والتوبة بغفران الحوبة .

وقيل : إذا تاب العبد إلى الله بسؤاله ، تاب الله عليه بنواله .

القول في تفسير اسمه (المنتقم)

قال تعالى : ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾[1] والمنتقم مشتق من الانتقام ، ولا يسمى التعذيب بالانتقام إلا بشرائط ثلاثة .

الأول : أن تبلغ الكرامة إلى حد السخط الشديد .

الثاني : أن تحصل تلك العقوبة بعد مدة .

الثالث : أن يقتضي ذلك التعذيب نوعاً من التشفي ، وهذا القيد لا يحصل إلا في حق الخلق ، أما في حق الخالق فهو محال .

واعلم أن الانتقام أشد من المعاجلة بالعقوبة ، فإن المذنب إذا عوجل بالعقوبة لم يتمكن في المعصية ، فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾[2] وأيضاً قد سمى

---

(١) المائدة : ٩٥ ، آل عمران : ٤ .

(٢) الزخرف : ٥٥ .

الله تعالى تكرار إيجاب الكفارة بتكرار المحرم أخذ الصيد انتقاماً ، قال : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾[1] وهو قريب من قوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا ﴾[2] الآية .

أما حظ العبد منه ، فقال الغزالي : انتقام العبد إنما يكون محموداً إذا انتقم من الأعداء ، وأعدى عدوه نفسه التي بين جنبيه ، فلا جرم يجب عليه أن ينتقم منها .

قال أبو زيد : تكاسلت النفس في بعض الأوراد فعاقبتها ، ومنعتها الماء سنة .

وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير .

وقال ذو النون : يجب أن يكون العبد كالسقيم ، يحتمي من كل شيء مخافة طول السقام .

وقال بعضهم : المنتقم هو الذي نقمته لا تعد ، ونعمته لا تحل ، وقيل : هو الذي من عرف عظمته خشي نقمته ، ومن عرف رحمته رجا نعمته .

القول في تفسير اسمه (العفو)

قال تعالى : ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾[3] وقال : ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾[4] وقال : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾[5] وقال : ﴿ عفا الله عنك ﴾[6] وفي تفسيره وجوه .

---

(١) المائدة : ٩٥ .
(٢) النساء : ١٦٠ .
(٣) النساء : ٩٩ .
(٤) الشورى : ٢٥ .
(٥) المائدة : ١٥ .
(٦) التوبة : ٤٣ .

الأول : العفو هو المحو والإزالة ، يقال : عفت الديار إذا درست ، وذهبت آثارها ، فعلى هذا : العفو في حق الله تعالى عبارة عن إزالة آثار الذنوب بالكلية ، فيمحوها من ديوان الكرام الكاتبين ، ولا يطالبه بها يوم القيامة ، وينسيها من قلوبهم ، كيلا يخجلوا عند تذكرها ، ويثبت مكان كل سيئة حسنة ، قال تعالى : ﴿ يمحو الله من يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾[1] وقال : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾[2] .

واعلم إنَّ العفو أبلغ من المغفرة ، لأن الغفران يشعر بالستر ، والعفو يشعر بالمحو ، والمحو أبلغ من الستر .

الثاني : أن العفو هو الفضل ، قال الله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾[3] يعني ما فضل من أموالهم الذي لا يشبه كونه فاضلاً ، وعفا مال فلان إذا كثر ، وقال تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾[4] أي ما صفا من الأخلاق ، فالعفوّ على هذا الوجه هو الذي يعطي الكثير ، ويهب الفضل ، ولا يتعب المنعَم عليه ألبتة .

أما حظ العبد منه فهو : أن يعفو عن كل من ظلمه ، ولا يقطع بره عنهم بسبب تلك الإساءة ، ولا يذكر مما تقدم من أنواع الجفاء شيئاً ، قال تعالى : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾[5] فإنه متى فعل ذلك ، فالله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين أولى أن يفعل به ذلك .

حكي عن قيس بن عاصم المنقري أن مملوكاً له تعثر ، وبيده شيء مشوي على سفود ، فوقع على ولد له صغير فمات ، فقال له قيس : اذهب فأنت حر لوجه الله .

---

(١) الرعد : ٣٩ .
(٢) الفرقان : ٧٠ .
(٣) البقرة : ٢١٩ .
(٤) الأعراف : ١٩٩ .
(٥) النور : ٢٢ .

وحكي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً ،فلـم يجبه ، وهكذا ثالثاً ، فقام اليه فرآه مضطجعاً ، فقال : يا غلام أما سمعت الصوت ؟ فقال : بلى سمعت قال : فما منعك من الإجابة ؟ فقال : ثقتي بحلمك واتكالي على عفوك . فقال علي : أنت حر لوجه الله تعالى بهذا الاعتقاد .

أما المشايخ فقالوا : العفوُّ الذي أزال عن النفوس ظلمة الزلات برحمته وعن القلوب وحشة الغفلات بكرامته .

وقيل : العفو الذي أزال الذنوب من الصحائف ، وأبدل الوحشة بفنون اللطائف .

ورئي بعض المشايخ في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : (حاسبونا فدققوا ثم منوا فأعتقوا) .

القول في تفسير اسمه (الرؤوف)

قال الله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾[1] ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾[2] وقال ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[3] واشتقاقه من الرأفة والرحمة ، والرؤوف على وزن فعول كالشكور ، والصبور .

واعلم أنه تعالى قدم الرؤوف على الرحيم ، والرأفة على الرحمة في الآيات التي تلوناها ، وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما ، وأيضاً أينما ذكر الله تعالى هذين الوصفين قدم الرؤوف على الرحيم في الذكر ، فلا بد من بيان الفرق بين الوصفين ثم بيان سبب التقديم .

أما الفرق : فهو أن الرحيم في الشاهد إنما يحصل لمعنى في المرحوم

---

(١) البقرة : ١٤٣ .
(٢) الحديد : ٢٧ .
(٣) التوبة : ١٢٨ .

من فاقة وضعف ، وحاجة ، والرأفة تطلق عندما تحصل الرحمة ، والمعنى في الفاعل من شفقة منه على المرحوم .

إذا عرفت هذا فنقول منشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان ، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم في الاحتياج للإحسان ، وتأثير حال الفاعل في إيجاد الفعل أقوى من احتياج المفعول إليه ، فلهذا المعنى قدم ذكر الرأفة على ذكر الرحمة .

قال المشايخ : الرؤوف المتعطف على المذنبين بالتوبة ، وعلى الأولياء بالعصمة .

وقيل : هو الذي جاد بلطفه ، ومنَّ بتعطفه .

وقيل : هو الذي ستر ما رأى من العيوب ، ثم عفا عما ستر من الذنوب .

وقيل : هو الذي صان أولياءه عن ملاحظة الأشكال ، وكفاهم بفضله مؤنة الأشغال .

حكي أنه عليه الصلاة والسلام كان في بعض الأسفار فمر بامرأة تخبز ، ومعها صبي ، فقيل لها : إن رسول الله ﷺ يمر ، فجاءت ، وقالت : يا رسول الله بلغني أنك قلت : إن الله أرحم بعبيده من الوالدة بولدها ، أفهو كما قيل لي ؟ فقال : نعم ، فقالت : إن الأم لا تلقي ولدها في هذا التنور ، فبكى عليه الصلاة والسلام وقال : إن الله لا يعذب بالنار إلا من أنف أن يقول لا إله إلا الله .

وقال بعض الصالحين : كان في جواري إنسان شرير فمات ، ورفعت جنازته فتنحيت عن الطريق لئلا أصلي عليه ، فرئي في المنام على حالة حسنة ، فقال له الرائي : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ، وقال : قل لأيوب وكان اسم ذلك الصالح أيوب ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾[1] .

---

(١) الإسراء : ١٠٠ .

القول في تفسير اسميه
(مالك الملك ، ذي الجلال والإكرام)

أما مالك الملك ، فقد مر تفسيره في الجليل ، أما الإكرام فتفسير لفظ الكريم يكفي فيه ، والإكرام قريب من الإنعام ، ولكنه أخص منه فكل إكرام إنعام ، وليس كل إنعام إكراماً ، وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام سر ، وهو أن الجلال إشارة إلى التنزيه ، وذاته من حيث هي هي يكفي في تحقق هذه السلوب .

أما الإكرام فإضافة ، ولا بد فيها من المضافين ، وما يعرض للشيء من حيث هو هو مقدم على ما يعرض للشيء حالة كونه مع غيره .

القول في تفسير اسمه (المقسط)

قال تعالى : ﴿ قائماً بالقسط ﴾[1] ومعناه العادل في الحكم ، يقال أقسط فهو مقسط إذا عدل في الحكم قال : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[2] وقسط إذا جار ، فهو قاسط ، قال تعالى : ﴿ وأما القاسطون ﴾[3] الآية ، والقسط النصيب والتقسيط إقران القسط .

القول في تفسير اسمه (الجامع)

قال تعالى : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ﴾[4] وقال ، ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾[5] .

واعلم أن كونه جامعاً يحمل أن يكون المراد منه أنه جمع الأجزاء ،

---

(١) آل عمران : ١٨ .
(٢) الحجرات : ٩ .
(٣) الجن : ١٥ .
(٤) آل عمران : ٩ .
(٥) المائدة : ١٠٩ .

وألفها تأليفاً مخصوصاً ، وتركيباً مخصوصاً ، ويحتمل أن يكون المراد منه أنه جمع بين قلوب الأحباب ، كما قال : ﴿ ولكن الله ألّف بينهم ﴾[1] ويحتمل أنه يجمع أجزاء الخلق عند الحشر والنشر بعد تفرقها ، ويجمع بين الجسد والروح بعد انفصال كل واحد منهما عن الآخر ، ويحتمل أنه يجمع الخلق في موقف القيامة ، ويجمع بين الظالم والمظلوم ، كما قال : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾[2] ثم يرد من شاء إلى دار النعيم ، ومن شاء إلى الجحيم ، كما قال : ﴿ إن الله جامع الكافرين والمنافقين ﴾[3] .

أما حظ العبد منه : فهو أن يجمع بين الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة .

أما المشايخ فقالوا : الجامع هو الذي جمع قلوب أوليائه إلى شهود عظمته ، وصانهم عن ملاحظة الأغيار برحمته .

القول في تفسير أسمائه (الغني - المغني - المانع)

قال : ﴿ وربك الغني ذو الرحمة ﴾[4] وقال في إثبات كونه مغنياً : ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[5] .

واعلم أنه سبحانه واجب الوجود لذاته وفي صفاته ، فكان غنياً عن كل ما سواه ، أما كل ما سواه فممكن لذاته ، فوجوده بإيجاده ، فكان هو الغني لا غير ، ومن الناس من يعبر عن الغني بالتام ، وعن المغني بأنه فوق التام .

أما المانع : فاعلم أن الممكنات بالنسبة إلى تأثير قدرته على السوية ، فدخول بعضها في الوجود دون البعض ، تكون بتخصيصه وترجيحه ، والذي وجد انما وجد بإغناء الله ، والذي بقي على العدم إنما بقي لأجل أن الله ما

---

(١) الأنفال : ٦٣ .
(٢) المرسلات : ٣٨ .
(٣) النساء : ١٤٠ .
(٤) الأنعام : ١٣٣ .
(٥) طه : ٥٠ .

أوجده ، وما خلقه . فكونه غنياً عبارة عن صفة ذاته ، وهي الوجوب والقدم ، وعدم الافتقار إلى الغير ، لأن قدرته صالحة لإيجاد الممكنات ، فإذا نسبنا قدرته إلى ما وجد من الممكنات كان ذلك هو الغني ، وإذا نسبنا بها إذا لم يوجد كان ذلك هو المانع ، ويحتمل أيضاً أن يفسر المعنى بأنه أعطى كل شيء ما هو من مصالحه ، والمانع بأنه منعه ما هو سبب لمفاسده ، والتفسير الأول أوفق بالأصول العقلية .

القول في تفسير اسميه (الضار ـ النافع)

هذان الوصفان صفتا مدح بدليل أن نفيهما عيب ، قال تعالى ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾[1] .

واعلم أن الجمع بين هذين الاسمين أولى وأبلغ في الوصف بالقدرة على ما شاء كما شاء ، فلا نافع ولا ضار غيره ، لأنا قد دللنا في هذا الكتاب على أن كل ما سوى الله تعالى ممكن ، وكل ممكن فهو مفتقر إلى ترجيح مرجح ، والخيرات والشرور كلها داخلة في هذه القضية . وهذا يوجب القطع بأنه تعالى هو النافع ، وهو الضار وهذان الوصفان إما أن يتعتبرا في أحوال الدنيا ، أو في أحوال الدين .

أما الأول : فهو أنه تعالى مغني هذا ، ومفقر ذاك ، ومعطي الصحة لهذا ، والمرض لذاك .

وأما في أحوال الدين : فهو أنه يهدي هذا ، ويضل ذاك ، ويقرب هذا ، ويبعد ذاك .

أما حظ العبد من هذين الوصفين : فهو أن يكون ضاراً بأعداء الله ، نافعاً لأولياء الله ، قال تعالى : ﴿ أذِلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[2]

---

(١) الشعراء : ٧١و٧٢ .

(٢) المائدة : ٥٤ .

ولا يكون ضرره بأعداء الله مطلوباً له إلا بالغرض ، والنفع مطلوباً بالذات .

وأيضاً حظ العبد من هذين الاسمين أن لا يرجو أحداً ، ولا يخشى أحداً وأن يكون اعتماده بالكلية على الله .

قيل : إن أول ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ ﴿ أنا الله الذي لا إله إلا أنا ، من لم يستسلم لقضائي ، ولم يصبر على جلائي ، ولم يشكر لنعمائي ، فليطلب رباً سواي ﴾ وقيل : ﴿ من لم يرض بالقضاء فليس لجهله دواء ﴾ .

وحكي أن موسى عليه السلام شكا ألم سنه إلى الله ، فقال : خذ الحشيشة الفلانية وضعها على سنك ، ففعل ، فسكن الوجع في الحال ، ثم بعد مدة عاوده ذلك الوجع ، فأخذ تلك الحشيشة مرة أخرى ، ووضعها على السن ، فازداد الوجع أضعاف ما كان ، فاستغاث إلى الله تعالى : إلهي ألست أمرتني بهذا ، ودللتني عليه ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى أنا الشافي ، وأنا المعافي ، وأنا الضار وأنا النافع ، قصدتني الكرة الأولى فأزلت مرضك ، والآن قصدت الحشيش وما قصدتني .

وأما المشايخ فقالوا : الضار الذي يضر الكافرين بما سبق لهم من قديم عداوته ، والنافع الذي ينفع الأبرار مما تحقق لهم من كريم رعايته .

وقيل : الضار الذي يضر العاصين بحرمانه ، والنافع الذي ينفع الطائعين بتوفيقه وإحسانه .

قال ذو النون : ثلاثة من أعمال الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وعدم الكراهة بعد القضاء ، وحصول الحب مع البلاء .

القول في تفسير اسمه (النور)

قال الله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[1] .

واعلم أن النور اسم لهذه الكيفية التي يضادها الظلام ، ويمتنع أن يكون الحق سبحانه هو ذلك ، ويدل عليه وجوه .

الأول : أن هذه الكيفية تطرأ وتزول ، والحق سبحانه يستحيل أن يكون كذلك .

الثاني : الأجسام متساوية في الجسمية ، ومختلفة في الضياء والظلمة ، فيكون الضوء كيفية قائمة بالجسم محتاجة إليه ، وواجب الوجود لا يكون كذلك .

الثالث : أن النور مناف للظلمة ، وجل الحق أن يكون له ضد وند .

الرابع : قال الله تعالى : ﴿ مثل نوره ﴾[2] فأضاف النور إلى نفسه ، فلو كان تعالى هو النور لكان هذا إضافة الشيء إلى نفسه ، وهو محال ، فهو تعالى ليس نوراً ، وليس أيضاً بمكيف بهذه الكيفية ، لأن هذه الكيفية لا يعقل ثبوتها إلا للأجسام .

ثم اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ على وجوه .

الأول : إن النور الظاهر هو الذي يظهر له كل شيء خفي ، والخفاء ليس إلا العدم ، والظهور ليس إلا الوجود ، والحق سبحانه موجود ، ولا يقبل العدم ، فهو تغير لا يقبل الظلمة ، والحق سبحانه هو الذي به وجد كل شيء ما سواه فهو سبحانه نور كل ظلمة ، وظهور كل خفاء ، فالنور المطلق هو الله بل هو نور الأنوار .

---

(١) النور : ٣٥ .
(٢) النور : ٣٥ .

الثاني : أن يكون المراد من قوله ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ أي الله منوِّر السموات والأرض ، والدليل عليه قوله بعد ذلك ﴿ مثل نوره ﴾ .

والثالث : أن يقال فلان زين البلد ونوره ، إذا كان سبباً لمصلحة البلد ، فكذا الحق سبحانه هو الذي استقامت به مصالح المخلوقات ، فلا جرم سمي نوراً بهذا التأويل .

الرابع : أن يكون المراد من النور الهادي . بقوله ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ معناه الله هادي السموات والأرض .

واعلم أن تفسير الآية بهذا الوجه حسن إلا أن تفسير النور في الأسماء التسعة والتسعين ، لو كان الهادي لكان ذكر الهادي بعده تكراراً محضاً ، وأنه لا يجوز .

وأما حظ العبد منه : فاعلم أن نور القلب عبارة عن معرفة الله ، قال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له نور ﴾[1] .

أما المشايخ فقالوا : النور هو الذي نوّر قلوب الصادقين بتوحيده ونوّر أسرار المحبين بتأييده .

وقيل : هو الذي حسَّن الأبشار بالتصوير ، والأسرار بالتنوير ، وقيل : هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته ، وأحيا نفوس العابدين بنور عبادته .

وقيل : هو الذي يهدي القلوب إلى ايثار الحق واصطفائه ، ويهدي الأسرار إلى مناجاته واجتنابه .

روي أن سعيد بن المسيب سأل جبلة بن أشيم أن يدعو له ، فقال : زهدك الله في الفاني ، ورغبك في الباقي ، ووهب لك يقيناً تسكن إليه .

---

(١) النور : ٤٠ .

القول في تفسير اسمه (الهادي)

قال تعالى : ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾[1] وقال : ﴿ وإن الله لهادي الذين آمنوا ﴾[2] وقال ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾[3] .

واعلم أنه سبحانه هادٍ من حيث إنه خص من أراد من عباده بمعرفته وأكرمه بنور توحيده ، كما قال : ﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[4] وهاد أيضاً من حيث إنه هدى جميع الحيوانات إلى جلب مصالحها ، ودفع مضارها ، كما قال : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[5] .

واعلم أن كونه تعالى هادياً يمكن حمله على أنه المبيّن للخلق طريق الحق بكلامه فيكون كونه هادياً من صفات الذات ، ويمكن أن يكون مفسراً بنصب الدلائل ، فيكون من صفات الفعل ، ويمكن أن يكون مفسراً بخلق الهداية في قلوبهم ، والهداية المعرفة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

وحظ العبد منه : أن يكون مشتغلاً بدعوة الخلق إلى الحق ، قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾[6] وقال : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾[7] وقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾[8] .

أما المشايخ فقالوا : الهادي الذي يهدي القلوب إلى معرفته ، والنفوس إلى طاعته .

---

(١) البقرة : ٢٦ .
(٢) الحج : ٥٤ .
(٣) الشعراء : ٧٨ .
(٤) البقرة : ٢١٣ .
(٥) طه : ٥٠ .
(٦) الشورى : ٥٢ .
(٧) يوسف : ١٠٨ .
(٨) النحل : ١٢٥ .

وقيل : الهادي الذي يهدي المذنبين إلى التوبة ، والعارفين إلى حقائق القربة .

وقيل : الهادي الذي يشغل القلوب بالصدق مع الحق ، والأجساد بالخلق مع الخلق .

القول في تفسير اسمه (البديع)

قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾[1] وفي تفسيره وجهان .

الأول : أنه الذي لا مثل له ولا شبيه ، يقال هذا شيء بديع إذا كان عديم المثل ، وهو تعالى أولى الموجودات بهذا الاسم والوصف ، لأنه يمتنع أن يكون له مثل أزلاً وأبدا .

والثاني : أنه بمعنى المبدع فعيل بمعنى مفعل ، فكان أصله من بدع، إلا أن العرب أبطلوا هذا التصريف ، فالبديع هو الذي فطر الخلق ابتداء لا على مثال سبق ، وعلى هذا التفسير يكون من صفات الفعل .

قال بعضهم : البديع الذي أظهر عجائب صنعته ، وغرائب حكمته .

القول في تفسير اسمه (الباقي)

قال تعالى : ﴿ والله خير وأبقى ﴾[2] .

واعلم أنه تعالى واجب الوجود لذاته أي غير قابل للعدم بوجه من الوجوه . فكل ما كان كذلك كان ذاتي الوجود في الأزل والأبد ، فدوامه في الأزل هو القدم ، ودوامه في الأبد هو البقاء .

قيل : الباقي الذي لا ابتداء لوجوده ، ولا نهاية لجوده ، وقيل الباقي

---

(١) البقرة : ١١٧ .

(٢) طه : ٧٣ .

الذي يكون في أمده على الوصف الذي كان في أبده ، وقيل : هو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء .

وقال النصر أبادي : الحق باق ببقائه ، والخلق باق بإبقائه .

ومن الناس من قال : إنه باق ببقاء هو صفة قائمة بذاته ، وهذا باطل من وجهين .

الأول : أنه يقال واجب الوجود لذاته ، وما كان واجباً لذاته امتنع أن يكون واجباً لغيره ، فإذا امتنع أن يكون استمرار ذاته ، موقوفاً على اعتبار أمر آخر سواه ، فلم يكن بقاؤه صفة قائمة به .

الثاني : أن بقاء الله تعالى يجب أن يكون باقياً ، فإن كان باقياً بالبقاء لزم إما الدور ، وإما التسلسل وهما محالان ، فوجب أن يكون البقاء باقياً لنفسه ، فلو كانت الذات باقية بالبقاء لزم كون الصفة أقوى من الذات ، وذلك قلب المعقول .

القول في تفسير اسمه (الوارث)

قال تعالى : ﴿ ونحن الوارثون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾[2] وقال ﴿ وهو خير الوارثين ﴾[3] .

واعلم أن مالك جميع الممكنات هو الله سبحانه وتعالى ، ولكنه بفضله جعل بعض الأشياء ملكاً لبعض عباده ، فالعباد إنما ماتوا وبقي الحق سبحانه وتعالى ، فالمراد بكونه وارثاً هو هذا ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ لمن الملك اليوم . . لله الواحد القهار ﴾[4] .

---

(١) الحجر : ٢٣ .

(٢) مريم : ٤٠ .

(٣) القصص : ٥ .

(٤) غافر : ١٦ .

قال الغزالي : وهذا الجواب والسؤال ، إنما اختصا بذلك اليوم بحسب ظن الأكثرين ، لأنهم يظنون لأنفسهم مُلكا ومِلكا فيكشف لهم في ذلك اليوم حقيقة الحال ، فأما أرباب البصائر فإنهم مشاهدون لمعنى هذا النداء في الحال ، سامعون له من غير حرف ولا صوت ، وذلك لأن المنفرد بالتدبير والتقدير من الأزل إلى الأمد ، هو الحق سبحانه ، والملك والملك له أبداً وأزلاً ، وكما امتنع انقلابه من الوجوب والاستغناء إلى الإمكان والافتقار ، امتنع انقلاب شيء مما سواه من الإمكان إلى الوجوب ، فكذلك الملك والملك له لا لغيره أزلاً وأبداً .

قال المشايخ : الوارث الذي تسربل بالصمدية بلا فناء ، وتفرد بالأحدية بلا انتفاء .

وقيل : الوارث الذي يرث لا بتوريث أحد . الباقي الذي ليس لملكه أمد .

القول في تفسير اسمه (الرشيد)

هذا الاسم غير وارد في القرآن ، والرشد هو الاستقامة ، وهو ضد الغي ، فالرشيد فعيل وهو على وجهين .

أحدهما : بمعنى فاعل ، فالرشيد هو الراشد ، وهو الذي له الرشد ، ويرجع حاصله إلى أنه حكيم ليس في أفعاله عبث ولا باطل .

الثاني : أن يكون بمعنى مفعل كالبديع والوجيع ، وإرشاد الله يرجع إلى هدايته ، وقد سبق تفسيرها .

قيل : الرشيد الذي أسعد من شاء بإرشاده ، وأشقى من شاء بإبعاده .

وقيل : الرشيد الذي لا يوجد سهو في تدبيره ، ولا لهو في تقديره .

القول في تفسير اسمه (الصبور)

هذا الاسم أيضاً غير وارد في القرآن ، ويقرب معناه من معنى الحليم ، والفرق بينها أنهم لا يأمنون العقوبة في صفة الصبور ، كما يأمنون منها في صفة الحليم .

أما حظ العبد : فاعلم أن الصبور في حقه عبارة عما إذا وقعت المنازعة بين داعية الحكمة ، وداعية الشهوة فاستيلاء داعية الحكمة على داعية الشهوة ، عبارة عن الصبر ، فلهذا قال المحققون : الصبر المحمود نوعان .

أحدهما : الصبر على الطاعة .

والثاني : الصبر عن المعصية ، والرجال في الصبر على ثلاث مراتب : منهم من يتصبر بأن يتكلف الصبر ويقاسي الشدة فيه ، وذلك أدون مراتب الصبر، ويقال له التصبر ، ومنهم من يصبر بأن يتجرع المرارات من غير تعبس ، ويفني في البلوى من غير إظهار الشكوى ، فهذا هو الصبر ، وهو المرتبة المتوسطة ، ومنهم من يألف الصبر والبلوى لأنه يراه بتقدير المولى ، فلا يجد فيه مشقة بل روحاً وراحة ، وعلى الجملة فقال : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾[1] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابـروا ورابطوا ﴾[2] قيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله ، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله . ورابطوا أسراركم على الشوق إلى الله .

وقيل : اصبروا في الله ، وصابروا لله ، ورابطوا مع الله ؛ فالصبر في الله بلاء ، والصبر لله عناء ، والصبر مع الله وفاء .

وقيل : فرق بين الحليم والصبور في حق الخلق ، فإن الحليم من تجاوز عن الاساءة على سبيل التكلف .

أما المشايخ فقالوا : الصبور الذي لاتزعجه كثرة المعاصي إلى كثرة

---

(١) البقرة : ١٥٣ .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

العقوبة ، وقيل : الصبور الذي إذا قابلته بالجفاء قابلك بالعطية والوفاء ، وإذا أعرضت عنه بالعصيان أقبل إليك بالغفران .

وقال أبو بكر الوراق : احفظ الصدق فيما بينك وبين الخلق ، والصبر فيما بينك وبين نفسك ، فهذا هو الذي يفيد النجاة .

هذا آخر الكلام في تفسير الأسماء .

القسم السادس

في اللواحق والمتممات

اعلم أنه قد ورد في القرآن والأخبار والآثار أسماء كثيرة سوى هذه الأسماء ونحن نذكرها مع تفاسيرها مرتبة على الفصول.



الفصل الأول

أسماء الذات

الاسم الأول الشيء

ذهب الأكثرون إلى أن اسم الشيء واقع على الله ، وقال جهم بن صفوان : لا يجوز إطلاق هذا الاسم عليه . لنا القرآن واللغة ، أما القرآن فآيتان : إحداهما قوله تعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾[1] وثانيتهما قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[2].

والمراد بوجهه ذاته ، فقد استثنى ذاته من لفظ الشيء ، والاستثناء من خلاف الجنس خلاف الأصل .

وأما اللغة : فهي أن من قال : المعدوم ليس بشيء ، قال الموجود : هو الشيء فهما لفظان مترادفان ، فإذا كان موجوداً كان شيئاً . ومن قال المعدوم شيء قال الشيء ما يصح أن يعلم ويعبر عنه ، فكان الموجود أخص من الشيء ، وإن صدق الخاص صدق العام ، فثبت أنه تعالى مسمى بالشيء ، واحتج جهم على قوله بالقرآن والمعقول ، أما القرآن فآيتان .

الأولى قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾[3] فلو كان تعالى يسمى بلفظ الشيء لزم بحكم هذا الظاهر ، كونه خالقاً لنفسه وهو محال ، وليس

(١) الأنعام : ١٩ .
(٢) القصص : ٨٨ .
(٣) الرعد : ١٦ .

لأحد أن يقول هذا عام دخله التخصيص ، لأن تخصيص العام إنما يجوز في صورة لا يلتفت إليها بجري الأكثر مجرى الكل .

فأما الباري فهو أعظم الموجودات ، فلا يجري بهذا القدر هناك ، وكذا لا يجوز أن يقال هذه الآية عامة دخلها التخصيص .

والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع ﴾[1] ومثل مثله هو هو ، فلما ذكر أن ليس كمثله شيء لزم أن لا يكون هو مسمى باسم الشيء ، وقول من قال الكاف زائدة باطل ؛ لأن هذا ذَكر هذا الكاف خطأ وفاسد فمعلوم أن هذا لا يليق بكلام الله تعالى .

أما المعقول : فهو أن أسماء الله تعالى دالة على صفات الكمال ، ونعوت الجلال وقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[2] واسم الشيء لا يفيد كمالاً ، ولا جلالة ولا معنى من المعاني الحسنة ، فثبت أن كل ما كان من أسماء الله تعالى وجب أن يفيد معنى حسناً ، ولفظ شيء لا يفيد حُسناً ، فوجب أن لا يكون لله تعالى .

والأولى أن يقال أجمع الناس قبل ظهور جهم على كونه تعالى مسمى بهذا الاسم ، والاجماع حجة .

الاسم الثاني (القديم)

وهو عبارة عن الموجود الذي لا أول لوجوده ، وقد يراد به الذي طالت مدة وجوده ، قال تعالى : ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾[3] وقال : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾[4] وقد دللنا على أنه تعالى موجود لا أول له .

---

(١) الشورى : ١١ .
(٢) الأعراف : ١٨٠ .
(٣) يوسف : ٩٥ .
(٤) يس : ٣٩ .

الاسم الثالث (الأزلي)

وهو عين ما ذكرناه في تفسير القديم .

الاسم الرابع (واجب الوجود لذاته)

ومعناه الحقيقة التي لاتكون قابلة للعدم بوجه من الوجوه .

واعلم أن القدم غير الوجوب ، فالقدم هو الدوام من الأزل إلى الأبد ، وأما الوجوب فهو نفي قابلية العدم ، واعلم أنه ليس في الأسماء الواردة في التسعة والتسعين ما يشعر بهذا المعنى ، إلا لفظان .

أحدهما : القوي المتين ، وذلك لأن الذي لا يقبل الأثر من غيره يقال له قوي .

والثاني : القيوم ، فإنه مبالغة في كون الشيء مستقلاً بذاته ، وذلك هو كونه واجب الوجود لذاته .

الاسم الخامس (الدائم)

وهو يفيد كونه أزلياً أبدياً .

الاسم السادس (الجسم)

قالت الكرامية : إنه تعالى يسمى جسماً ، لأن الجسم هو القائم بالنفس ، والله قائم بنفسه فيكون جسماً .

وعندنا : إن ذلك باطل ، لأن الجسم يفيد التركيب ، والدليل عليه أن الشيء كلما كان أعظم جثة قيل إنه أجسم من غيره ، وعظم الجثة عبارة عن كثرة الأجزاء فإذا كان الأجسم يفيد كثرة الأجزاء فلفظ الجسم يفيد أصل

التركيب والتأليف ، وهذا في حق الله تعالى محال ، فكان إطلاقه عليه محالاً .

الاسم السابع (الجوهر)

والنصارى يطلقون هذا الاسم على الله ، وهو عندنا باطل .

والدليل عليه أن جوهر الشيء أصله . يقال هذا سيف حسن الجوهر ، وهذا ثوب حسن الجوهر ، ويريدون بالجوهر المادة التي يكون منها ذلك الشيء ، فالجوهر اسم للذات ، يمكن أن يحصل فيها صورة وشكل ، وهذا في حق الله تعالى محال ، فكان إطلاق لفظ الجوهر عليه محالاً .

الفصل الثاني

أسماء الصفات المعنوية

أما الأسماء الدالة على العلم فكثيرة .

الأول (المحيط)

قال الله تعالى : ﴿ وهو بكل شيء محيط ﴾[1] وهو إشارة إلى أنه أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾[2] وهو إشارة إلى أنه قادر على جميع الممكنات لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه هارب .

الثاني (القريب)

قال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[3] ولهذا القرب وجوه .

أحدها : أنه قريب بعلمه من خلقه .

وثانيها : أنه قريب من خلقه بقدرته ، فإن المؤثر فيها هو قدرته ، وليس بين قدرته وبينها واسطة ، فإن عندنا جميع الكائنات إنما تحدث بقدرة الله ابتداء .

---

(١) فصلت : ٥٤ .
(٢) البقرة : ١٩ .
(٣) سورة ق : ١٦ .

وثالثها : أنه قريب بالاجابة ممن يدعوه ، قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[1] .

الثالث (المدبر)

قال الخطابي : هو العالم بأدبار الأمور وعواقبها ، ويحتمل أن يكون المراد به أن يجري الأمور بحكمته . ويصرفها على وفق مشيئته .

أما القادر فهو المتمكن من الفعل والترك ، والذي يصح منه الفعل والترك . يجوز أن يقال : يا من يتمكن من الفعل والترك يا من يصح منه الفعل والترك ، لا شك أنه لم يرد هذا اللفظ في الأخبار والقرآن ، فمن قال : لا بد من التوقيف امتنع منه ، ومن قال لا حاجة إليه جوَّز .

أما المريد ففيه ألفاظ يريد ، وهو وارد في القرآن قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[2] ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾[3] قال ﴿ ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾[4] وقال : ﴿ يفعل الله ما يشاء ﴾[5] ﴿ ويحكم ما يريد ﴾[6] .

وأما لفظ القصد فالمتكلمون يذكرونه ، ولكنه ما ورد في القرآن .

الثاني : المشيئة قال تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾[7] ولا فرق عندنا بين الإرادة والمشيئة .

الثالث : الاختيار .

---

(١) البقرة : ١٨٦ .
(٢) البقرة : ١٨٥ .
(٣) النساء : ٢٨ .
(٤) القصص : ٥ .
(٥) إبراهيم : ٢٧ .
(٦) المائدة : ١ .
(٧) التكوير : ٢٩ .

قال تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾[1] .

واعلم أن الاختيار طلب الخير ، فالقادر لما كان قادراً على الفعل والترك امتنع أن يرجح الترك على الفعل ، والفعل على الترك ، إلا إذا علم اشتمال ذلك الطرف على مصلحة راجحة ، فالمرجح في حق العبد هو العلم ، والظن ، والاعتقاد ، وفي حق الله تعالى الاعتقاد والظن محال ، فلم يبق إلا العلم ، فهذا قول الحسن البصري حيث يقول : الارادة في حق الله تعالى ليست إلا الداعي ، وهو علمه باشتمال الفعل على مصلحة راجحة ، والاختيار عبارة عن طلب الخير بالتفسير الذي ذكرناه .

واعلم أن قوله : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ يدل على أن مشيئته غير موقوفة على العلم بإشتماله على الخير ، إذ لو كان كذلك لما بقي بين المشيئة والاختيار فرق ، فحينئذ يكون قوله ما يشاء ويختار عطفاً للشيء على نفسه ، وذلك ممتنع ، بل المشيئة أعم من الاختيار فإن المشيئة عبارة عن الصفة المقتضية للترجيح ، ثم هذا الترجيح تارة يكون بدون طلب الخير ، وتارة مع طلب الخير .

الرابع (المحبة)

ومن أصحابنا من زعم أنه لا فرق بين المحبة والارادة ، واحتجوا عليه بأن أهل اللغة يقيمون كل واحد من هذه الألفاظ مقام الآخر ، فيقولون : أردته وشئته ، ورضيته . وأحببته . ولو قال : أردت . وما رضيت . أو بالعكس لعد متناقضاً . ومن أصحابنا من فرق بين الارادة . والمحبة . والرضا .

واحتج عليه بأنه ثبت بالدليل العقلي أنه تعالى مريد لجميع الكائنات . ثم إن نص القرآن يدل على أنه لا يحب بعض الأشياء . قال : ﴿ والله لا

(١) القصص : ٦٨ .

يحب الفساد ﴾[1] بمعنى أنه لا يحبه أن يجعله ديناً ، وهذا القائل فسر المحبة بأحد وجهين :

الأول : إنه عبارة عن إرادة إكرام المحبوب ، ورفعة درجته .

الثاني : إنه عبارة عن إرادة مدح المحبوب ، فالحاصل أن المحبة عبارة عن إيصال الثواب إليه في الآخرة ، وإيصال الثناء إليه في الدنيا .

وأجاب الأولون بأن قوله : لا يحب الفساد قضية مهملة ، وليست بكلية ، ينبغي في العمل بها ثبوتها على صورتها مدة ، وعندنا أنه لا يحب الفساد لأهل الدين ، وإن كان يحبه للمفسدين ، أو نقول : إنه لا يحب الفساد بمعنى أنه لا يحب أن يجعله ديناً وشرعاً مأموراً به .

الخامس (الرضاء)

فمنهم من قال : لا فرق بينه وبين الارادة ، ومنهم من فرَّق قال : لأنه تعالى مريد الكفر للكافرين ، وغير راض به ، لقوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾[2].

وأيضاً قال تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين ﴾[3] ذكر ذلك في معرض التعليم ، وقال ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[4] وقال : ﴿ إرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾[5] .

وكل هذه الآيات تدل على أن الرضا مخصوص بالمؤمنين ، وغير ثابت في حق الكفار ، فدل على أن الرضا غير الارادة .

وأيضاً يقال : اللهم أرض عنا ، ولولا أنه يختص بالمؤمنين وإلا لما

---

(١) البقرة : ٢٠٥ .
(٢) الزمر : ٧ .
(٣) الفتح : ١٨ .
(٤) الزمر : ٧ .
(٥) الفجر : ٢٨ .

حسن طلبه بالدعاء ، ثم القائلون بهذا القول فسروا الرضا بإعطاء الثواب ، أو بذكر المدح والثناء .

وكان والدي وشيخي يذكر فيه وجهاً ثالثاً فيقول : الرضاء عبارة عن ترك الاعتراض ، ويحتج فيه بقول ابن دريد :

رضيت قسراً وعلى القسر رضا   من كان ذا سخط على صرف القضا

وفي بعض الأخبار : ﴿ من لم يرض بقضائي فليطلب رباً سواي ﴾ .

وإذا كان الرضا عبارة عن ترك الاعتراض . فقوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾[1] أي لا يترك الكفر ، أي لا يترك الاعتراض عليهم في فعل الكفر ، وأجاب الأولون فقالوا : التمسك بقوله : ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ ليس بقوي من وجهين :

الأول : إن لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾[2] الآية ، وقال : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله ﴾[3] والمراد المؤمنون ، فقوله : ﴿ لا يرضى لعباده الكفر ﴾ أي لا يرضاه للمؤمنين ، ونحن نقول به .

الثاني : أن لا يرضى أن يجعل الكفر ديناً مشروعاً لهم .

السادس (السخط)

وهو عند أكثر الأصحاب عبارة عن إرادة العقوبة فهو تعالى لم يزل راضياً عن البعض ، ساخطاً على البعض ، لأن الرضا والسخط يرجعان إلى الارادة ، ومنهم من قال : السخط يرجع إلى صفات الفعل ، وهو إيصال العقاب . والأول أظهر .

---

(١) الزمر : ٧ .
(٢) الفرقان : ٦٣ .
(٣) الانسان : ٦ .

السابع (الغضب)

وهو إرادة إيصال العذاب . قال تعالى : ﴿ وغضب الله عليهم ﴾[1] والفرق بين الغضب والسخط . أن السخط يوجب الاعراض . والغضب يوجب التعذيب ، ويقرب من الغضب لفظ البغض . فإنه عبارة عن إرادة الاهانة . والاسقاط من الدرجة والرفعة .

الثامن ، والتاسع (الموالاة ، والمعاداة)

فالموالاة عبارة عن إرادة الكرامة ، والمعاداة عبارة عن إرادة الاهانة .

العاشر (الكراهية)

قال تعالى : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾[2] ومذهب أصحابنا أن الكراهة في حق الله تعالى عبارة عن إرادته أن لا يبقى الشيء على العدم الأصلي أو عبارة عن ايصال الذم في الدنيا ، والعقاب في الآخرة إلى شخص .

وقالت المعتزلة : كما إن الارادة صفة من صفات الله تعالى ، فكذا الكراهة صفة أخرى . لنا أن المعقول من الكراهة صفة تقتضي ترجيح العدم على الوجود بمعنى أنه لو وجد ، لترتب الذم في الدنيا ، والعقاب في الآخرة ، والارادة كافية في كل ذلك ، فلا حاجة إلى إثبات صفة أخرى .

قالت المعتزلة : الارادة لا تعلق لها إلا بالحدوث ، والبقاء على العدم ، ليس فيه حدوث فلا يمكن تعلق الارادة به .

وجوابنا : إن العاقل قد يقول لغيره أريد أن لا تفعل كذا وكذا ، وذلك

---

(١) الفتح : ٦ .
(٢) التوبة : ٤٦ .

يبطل قولهم ، فلنذكر الآن ألفاظاً قريبة من الارادة مما لا يجوز ذكرها في حق الله تعالى .

فاللفظ الأول التمني .

وأجمعوا على أنه لا يجوز إطلاقه في حقه تعالى ، لما أنه يوهم العجز ، والتمني عندنا عبارة عن إرادة ما علم أنه لا يكون ، أو يغلب على ظنه أن يكون ، أو يكون شاكاً في أنه يكون .

وقالت المعتزلة : التمني لا يقع إلا في القول ، وهو قول القائل ليتني فعلت كذا ، وهذا القول ضعيف ويدل على ضعفه وجوه .

الأول : أن قول القائل : ليتني فعلت كذا ، أنّا لو قدرنا أنهم ما وضعوا هذه الكلمة لمعنى من المعاني ، بل كانت من قبيل الألفاظ المهملة ، ولم يقل أحد بأن هذا تمن ، فعلمنا إن كان تمنياً لأنه مفيد معنى التمني ، وليس ها هنا معنى يدل هذا اللفظ عليه إلا الارادة التي ذكرناها .

والثاني : الفقير ، إذا قال أريد أن أكون ملكاً في الدنيا ، فكل أحد يقول : إن فلاناً تمنى الملك ، فعلمنا أن التمني ما ذكرناه .

الثالث : الأخرس قد يسمى متمنياً ، وإن كان لا قول له .

الرابع : أن النائم أو المبرسم إذا قال ليتني كذا ، والجاهل بمعنى هذا اللفظ إذا تكلم به ، لم يقل أحد إنه تمنى شيئاً ، فثبت بهذه الوجوه فساد قولهم ، وفائدة هذا الخلاف قولنا ، لو أراد الله الكفر من الكافر مع علمه بأن لا يؤمن لكان ذلك تمنياً لايمانه ، ولما كان التمني محالاً على الله ثبت أنه تعالى ما أراد الايمانَ من الكافر .

اللفظ الثاني الشهوة ، والفرق بينها وبين الارادة أن المريض يريد شرب الدواء ، ولا يشتهيه ، وقد يشتهي أكل الطين ولا يريده .

اللفظ الثالث : العزم ، وهو توطين النفس بعد التردد ، وذلك التردد

منشأ الجهل ، بأن ذلك الفعل هل هو مما ينبغي أن يفعل أو لا يفعل ، أو مما ينبغي أن يترك ، ولما كان ذلك محالاً في حق الله تعالى كان إطلاق العزم في صفاته محالاً .

ولما إنتهى الكلام إلى هذا المقام عرض من مشوشات القلب ، ما أوجب قطع الكلام ، فكان هذا آخر الكتاب ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، آمين .

فرغ من كتابته في آخر شعبان سنة ٩٥٢ هـ .

* * *

الحمد لله بنعمته تتم الصالحات وأشهد ألا إله إلا الله شهادة تحسب لنا في ميزان الحسنات وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنزل عليه الآيات البينات وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فقد تم بعون الله وحسن توفيقه طبع كتاب لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المحتويات



